

مَا وَرَاءَ الْأُفُقِ الْأَزْرقِ

الناشر



النخبة للطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فنى

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التدقيق اللغوي

حبيب حساني

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى

- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -

الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ - ٠١٢٨٨٨٦٨٨٨٧٥

الكتاب: مَا وَرَاءَ الْأُفُقِ الْأَزْرَقِ / رواية

المؤلف: مولود بن زادي

عدد الصفحات: ٣٣١

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

2017/8715

ISBN: 978 - 977 - 6580 - 65 - 7

E-mail: alnokhoba@gmail.com

مَا وَرَاءَ الْأَفْقِ الْأَزْرَقِ

رواية سيرية

مولود بن زادي

رواية

٢٠١٧

إلى روح الفقيد ميخائيل نعيمة..

وإن كنتَ قد رحلتَ عَنَّا، فَإِنَّكَ لِعَمري حَيٌّ في وجدَانِنَا..
حي بجمالِ أسلوبِكَ، ونضجِ أفكارِكَ، وصفاءِ روحِكَ، وطِيبَةِ
خاطرِكَ، وسموِ أخلاقِكَ، وسعةِ صدرِكَ، وصدقِ مشاعرِكَ،
وإيمانِكَ الراسخِ بالإنسانيةِ المنسية، ودعوتِكَ الأبديةِ إلى المحبةِ
والتسامحِ والسلامِ بين البشرِ.. كلِّ البشرِ..
سنمضي في سبيلِكَ، وسندودُ عن الإنسانيةِ
والمحبةِ والسلامِ بين البشرِ.. كلِّ البشرِ.. إلى آخرِ العمرِ.

مولود بن زادي - لندن ٢٠١٧

«لَيْسَتْ الْمَحَبَّةُ كَلَامًا مَعْسُولًا يُرَدِّدُهُ اللِّسَانُ،

الْمَحَبَّةُ مَشَاعِرٌ صَادِقَةٌ يَعْكِسُهَا سُلُوكُ الْإِنْسَانِ.»

المؤلف

«كُلُّ امْرِئٍ بِطَبْعِهِ فَنَانُ،
بَارِعٌ فِي انْتِقَاءِ الْأَلْوَانِ،
وَمَزْجِهَا لِرَسْمِ صُورَةِ شَخْصِيَّتِهِ،
لَا تَتَرَاءَى لَكَ أَلْوَانُهَا الْحَقِيقِيَّةُ،
الْخَفِيَّةُ إِلَّا بَعْدَ مُعَاشَرَتِهِ.»

المؤلف

(١)

أذنت الشمسُ بالمغيب على عاصمة الضباب لندن، فارتسم
 بخيوطها الذهبية اللامعة شفقٌ أحمر ناضر في أفق المدينة. بدا
 المنظر بديعاً ساحراً وكأنّه لوحة زيتية أو تحفة فنية، لا يقع الطرفُ
 على أجمل منها صورة في سماء هذه المدينة المعروفة بطقسها المغيّم
 والمطر والقارّ. في هذه الساعة يخرج خالد من محطة قطارات
 (غرينتش) عائداً إلى بيته من عمله بالترجمة في مطار (هيثرو) الدولي.
 يسير باتجاه بيته مطأطئ الرأس، متغيّر اللون، واني الحركة، غير آبه
 بجمال الشفق وسحر المشهد من فوقه، ولا بشيء آخر من حوله كما
 لو أنّ عناء الشغل والسفر أثقل كاهله وغشّى بصره فحجب عنه
 لوحة ساحرة ومثيرة، وبالتأكيد نادرة في سماء هذه المدينة الكثيبة.

وسرعان ما تتلاشى حمرة الشفق في السماء ويتلاشى معها ما تبقى
 من ضياء ويرخي الليل سدوله على أرجاء المدينة فيسقط سكونه

على بعض الأحياء السكنية المجاورة لحديقة غريتش. وفي سكون منزله العتيق المثل على هذه الحديقة، يتناول خالد نذرا من الطعام يسدّ به رمقه، ويجدد طاقته. ومن ثمّ يأوي إلى غرفة نومه يحمل قدحاً من القهوة، أدمنها الشقي حتى ضربت بجذورها في أعماق نفسه فصار يعنّ طيفها في وجدانه وهو لم يفرغ بعد من تناول طعامه.

يتمدد متشاقلاً في فراشه ويفتح لوحه الإلكتروني وهو أشد ما يكون عزماً على مراجعة بعض فصول روايته الجديدة التي يتطلّع إلى نشرها في الأسابيع المقبلة بعدما يفرغ من مراجعتها وتنقيحها.

وفي دفء فراشه وهدوء غرفته التي ينيرها مصباح أصفر خافت، يفتح روايته ويهمّ بالشروع في العمل وإذا برسالة من فتاة تحمل في موضوعها «عاجل!» تستوقفه وتثير اهتمامه:

«تحية طيبة سيدي المحترم..

اتّصلت بك أكثر من مرّة لأمر هام يخصّك ولم يبلغني منك ردّ. وإنّي أكتب إليك مرة أخرى وفؤادي ينبض بالأمل والتفاؤل وحسن

الظن بك والثقة بشخصك. أتطلع إلى ردك أستاذي الفاضل
فلا تتأخر أرجوك. آمنيات السعادة والتوفيق ومزيد من الابداع
والتميز والعطاء.

الآنسة وفاء هدى سلطان»

كانت تصل خالد عشرات الرسائل يومياً. كان جلّها من أشخاص
تعرف إليهم من خلال عالم التواصل الافتراضي، يرأسه بعضهم
بأسماء مستعارة ولا يعرف عنهم شيئاً. لم يكن هؤلاء يتصلون به
للتعرف عليه، ولا للاستفسار عن أعماله والبحث عنها لاقتنائها،
ولا لاقتراح مساعدته على مراجعة روايته أو الدعاية لمؤلفاته في
وسائل الإعلام وإيصالها إلى الجماهير في البلاد العربية - مع أنّه
كان بين هؤلاء الكثير من رجال الأدب والإعلام - وإنّما لطلب
مساعدة أو خدمة ما كالاستفسار عن شروط طلب تأشيرة
الدخول إلى المملكة المتحدة وإجراءات الهجرة والزواج والعمل
وما شابه ذلك، في هذه الجزر التي أضحت قبلة الرجال والنساء
وحلم الشباب والصغار. وهو في واقع الأمر لم يكن له ما يكفي
من الوقت للرد عليها أو حتى لفتحها أحياناً.

لكنّ خطابَ هذه الفتاة يبدو مختلفاً إلى حد بعيد عن تلك الرسائل
فكرةً وأسلوباً. وكيف لا وهذه أول مرّة تبلغه رسالة «لأمر يخصّه»
ولا يخصّ غيره! وهذه أول مرّة تبلغه رسالة تحمل كلمات لطيفة
عذبة ينشرح لها صدره.. كلمات طيبة ساحرة رسمتها ريشة
مشاعرها المهذّبة الرقيقة بأحلى الأشكال وأزهى الألوان، فبدت
كأنّها أزهار جميلة يفوح أريجها إليه من روضة نفسها الرحبة الزكية
الطاهرة.. نفسٌ مؤدّبة مثقفة تقدّر الأدب، وتهتمّ بما يكتب.. فتاة
تحملت مشقة مراسلته أكثر من مرّة لأمر ما يخصّه، فلا سبيل إلى
غضّ الطرف عن رسالتها، أو تجاهل دعوتها. فيردّ عليها:

«إلى الأنسة المحترمة وفاء. بأصدق المشاعر وأنبّل
الأحاسيس، أتقدم لك بخالص الشكر والتقدير لاهتمامك
بأعمالي. وإني أعترّذ إليك من تأخري في الردّ عليك أو ربما
تقصيري في ذلك، فأنا لم انتبه إلى خطاباتك السابقة في زحمة
الرسائل الكثيرة التي تصلني وضيق الوقت. أنا في الخدمة
إن احتجت شيئاً، فلا تتردّدي. وفي الختام، تفضلي بقبول
وافر الاحترام والتقدير. خالد»

وتعلو شفّته ابتسامةٌ واهنة في لحظة إرسال الخطاب مفكراً في
كلامها، متسائلاً من باب الفضول من تكون هذه الفتاة يا ترى وماذا

عساها أن تقول له في رسالتها المقبلة وماذا قد يكون هذا «الأمر الذي يخصّه»! ولا يطول به الانتظار، ففي اليوم الموالي، ما إن يفتح بريده الإلكتروني حتى تترأى له رسالة جديدة من الفتاة الغريبة:

«صباحك نور وسرور أستاذي الفاضل. تتلثم الحروف ولا تقوى على التعبير عما شعرت به اليوم من راحة وغبطة وأنا أشاهد رسالتك الكريمة المعبرة عن لطفك واهتمامك، والتي بلغتني بعد أن كدت أفقد الأمل في وصولها. أودّ أن أستشيرك في موضوع روايتك الجديدة في أقرب أجل ممكن، ولعلّ الهاتف أسرع وأنجع وأنفع من الرسالة. فسأكون من الشاكرين إن تكرمت بإرسال رقم هاتفك. لن آخذ أكثر من دقيقتين من وقتك الثمين. أتطلّع إلى ردّك أستاذي الكريم، فلا تتأخّر أرجوك. دمت ودام حرفك الجميل. خالص الشكر والتقدير. وفاء»

وينفسح صدره لكلماتها اللطيفة مرّة أخرى وإن كان قد استغرب التماسها رقم هاتفه وهو من الأمور الشخصية التي لا يتقاسمها عادة مع القراء والناس الغرباء. ويذهب في معابقتها إلى حدّ التساؤل

كيف تجرؤ على مثل هذا السؤال وهو لا يعرف عنها شيئاً؟! ويشقّ عليه أن يجرّجها وقد كلّفت نفسها مشقّة البحث عنه والاتّصال به أكثر من مرّة، فلا يجد بداً من اختلاق عذر ما في رسالة الردّ:

«تحيّة طيّبة الأنسة المحترمة وفاء. بلغني خطابك الآن وأنا أتأهّب للذهاب إلى العمل. أقترح ربما أن نتواصل في وقت متأخر الليلة من خلال البريد الإلكتروني أو رسائل الفايبر، إن كان ذلك يروقك، وسمح وقتك. تقبلي فائق احترامي. خالد»

ولا يطول به الانتظار. فبعد الغذاء بقليل، يبلغه ردّها على اقتراحه:

«حيّاك الله أستاذي الكريم. ممتنة لك لهذا الاقتراح العظيم، لكن أخشى ألاّ أقوى على السهر الليلة، فقد استفتقت في ساعة مبكرة هذا الصباح لأجل العمل وقضاء حوائج أخرى كثيرة وإني الآن أشعر بالإرهاق. أرسل لي رقم هاتفك، إن لم يكن ذلك يزعجك وسأحاول الاتصال بك في الأيام القليلة المقبلة. أعدك أنها ستكون دردشة خفيفة، لن تأخذ أكثر من دقيقتين من وقتك، فإني أتفهّم مشاغلك وأقدّر ظروفك.

ومن جهتي سأرسل لك رقم هاتفي الجديد الآن... دمت
ذخراً لنا وفخراً لأمتنا ودمت في رعاية الله وحفظه. وفاء»

ويستخفه السرور مرة أخرى وهو يقرأ كلماتها الرقيقة الصادقة.
فيعيد قراءتها أكثر من مرة دون ملل مستمتعا بألفاظها الفاتنة،
محاولاً تبين ملامح شخصيتها من بين تلك الأسطر القليلة. ثم يردّ
عليها متعاطفاً:

«أنا أيضاً أفهمهم مشاعرك وأقدر ظروفك وأتعاطف معك.
ما أكثر ما تثقلنا الحياة بأوزار المشاغل والهموم التي لا آخر
لها.. مشاغل وهموم لا نقوى على حملها، ولا نعرف الخلاص
منها.. مشاغل وهموم تتساقط على رؤوسنا كالأمطار، فتشغل
بالنا وتشوش أفكارنا وتصرف أنظارنا عن ملذات الحياة
وسحر المشاهد الطبيعية المحيطة بنا، وتشغلنا عن أهاليينا
وأصدقائنا وحتى عن أنفسنا. وننته في دوامة الصراع اليومي
غير المنتهية من أجل الحياة، فتتعرّ خطانا وتحرّ قوانا وتنهار
إرادتنا وتنقبض أنفسنا.. وفي غمرة المشاغل والمشاكل التي لا
تنتهي، تضع أيام عمرنا القصير.. أجل، تغلت منّا حياتنا كما
يفلت الرمل من بين أصابع اليد ونحن لا ندري.

هكذا هي الحياة دوماً تجرفنا في طريقها كما تجرف السيول
المتدفقة التراب والحجارة، فتلقي بها حيثما تشاء.. هكذا
هي الحياة دوماً تتحكم في وجودنا، وتعبث بأرواحنا كما
تعبث الرياح الهوجاء بأوراق الأشجار في فصل الخريف،
تبعثرها وتمزقها وترميها حيثما تشاء. وماذا عسانا أن نفعل
غير الانقياد لها والانصياع لأمرها والغوص في بحرها! وفي
بحرها نمضي جميعاً في سفينة ما، في رحلة ما.. رحلة بعيدة
نحو المجهول.. رحلة لا ندري ما يعترضنا فيها من مشاكل
وعراقيل وأخطار... ويطول الحديث...

لن أطيل عليك الكلام أستاذتي الكريمة. أعدك أنني سأهاثفك
في الأيام القليلة المقبلة بحول الله.»

ويهوي خالد إلى غرفته للعمل في اليوم الموالي وقد جنَّ الليل.
يفتح لوحه الإلكتروني ويبعث بكلمة قصيرة إلى وفاء يدعوها إلى
الاتصال به إن كانت مستيقظة وكان الوقت مناسباً. ثم، يسلمو باله
عنها وينشغل بالعمل.

وفي أثناء المراجعة، يستوقفه فصل من روايته يوقظ في نفسه ذكريات
مؤلمة حاول طردها من وجدانه. وفي أثناء الملاحقة، قرّت من قبضته

أشباح الذكريات واختفت بعيداً في أدغال اللاشعور بنفسه. وها هي تحمل عليه ثانية في لحظة ضعفه: «يدمي قلبه لفراقها، وتتقد نفسه حيناً إليها، فلا يلقي مسكناً لآلامه غير الدموع، فيلج في الاستعبار، فتنهل عبراته انهلال القطر. وينفجر بركان الأنين في أغوار نفسه، فتنبعث من داخله كلمات بريئة تتناثر حبراً سائلاً على الورق، ممتزجاً بتلك العبرات في مناجاتها من بعد رحيلها:

«لَا، لَا... لَا تَكْذِبِي!

لَا تَقُولِي هَذَا الدَّهْرُ حُبَّنَا،

فَإَنْتَهَى مَا كَانَ بَيْنَنَا!

لَا، لَا... لَا تَكْذِبِي!

فَحُبُّنَا مَتَيْنٌ كَالصَّخْرِ،

فَسِيحِ الْأَرْجَاءِ كَالْبَحْرِ،

سِرَاجِ يَشُعُّ مَدَى الدَّهْرِ.

إِنَّكَ عَلَى قُرَاقِنَا نَادِمَةٌ،
 فِي فِرَاشِ الْأَلَامِ نَائِمَةٌ،
 فِي بَحْرِ الدَّمُوعِ عَائِمَةٌ،
 وَحِيدَةٌ، بَائِسَةٌ، سَائِمَةٌ،
 عَلَى وَجْهِكَ هَائِمَةٌ.

فَلَا، لَا... لَا تَكْذِبِي!
 لَا تَقُولِي هَذَا الدَّهْرُ حُبَّنَا،
 فَأَنْتَهَيِ مَا كَانَ بَيْنَنَا!
 لَا، لَا... لَا تَكْذِبِي!
 فَحُبَّنَا مَتَيْنٌ كَالصَّخْرِ،
 فَسِيحُ الْأَرْجَاءِ كَالْبَحْرِ،
 سِرَاجٌ يَشْعُ مَدَى الدَّهْرِ.

صُورَتُكَ لَا تَبْرُحُ خَيَالِي،
 رَنَّةُ صَوْتِكَ دَوْمًا فِي بَالِي،
 حُبُّكَ شَادَ حُلْمِي وَأَمَالِي،
 فَبِاللَّهِ عَلَيْكَ إِرَافِي بِحَالِي،
 وَلَا تَتْرُكْنِي، هَيَّا تَعَالِي!

وَلَا، لَا... لَا تَكْذِبِي!
 لَا تَقُولِي هَذَا الدَّهْرُ حُبَّنَا،
 فَانْتَهَى مَا كَانَ بَيْنَنَا!
 لَا، لَا... لَا تَكْذِبِي!
 فَحُبُّنَا مَتَيْنٌ كَالصَّخْرِ،
 فَسِيحُ الْأَرْجَاءِ كَالْبَحْرِ،
 سِرَاجُ يَشْعُ مَدَى الدَّهْرِ.

آه، آه، آه... آهٍ مِنْ الْأَيَّامِ،
 تَقْذِفُنَا فِي بَحْرِ الْأَحْلَامِ،
 وَتَعِدُنَا بِالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ،
 فَخُصِّحُوا فِي دُنْيَا الْأَوْهَامِ،
 فِي دُنْيَا الدَّمُوعِ وَالْآلَامِ! «...»

وفي لحظات الصمت والتأمل، يشرد بفكره بعيداً عن صفحات روايته وغرفته ومكانه وزمانه، في رحلة بعيدة نحو الماضي، إلى زمن تلك الذكريات، فيشاهد ثانية تلك الفتاة.. يراها من بعيد جالسةً، يلوح في محياها الحزن والأسى، فيهرول نحوها لملاقاتها. ولا يكاد يصل إليها حتى تقطع حلمه رنةٌ إشعارٍ تنبّهه إلى وصول رسالة جديدة باسم وفاء:

- مساء النور أستاذ خالد! كيف حالك؟! آسفة والله! شُغِلْتُ بمكالمة مع الأهل، فلم أرسالتك إلا الآن.

- مرحبا بك أستاذة وفاء! لا بأس. ما كنتُ أتوقع ردك الليلة، فقد حسبتك نائمة.

- لا، أبداً. لكنني شُغلت قليلاً في الحديث مع الأهل في لبنان.

- إذا حضرتك من لبنان؟

- أجل، أنا من لبنان وأقيم في المملكة المتحدة...

- في المملكة المتحدة؟! يا لها من مصادفة جميلة. فنحن، بذلك، نحيا في نفس البلد!

- بل وفي نفس المدينة!

- نفس المدينة؟!

- أجل، أنا أسكن في حيّ (ستراتفورد) بمدينة لندن.

- حيّ ستراتفورد! لا أصدّق! فأنا من حيّ غرينتش على الضّفة المقابلة لنهر التايمز.

- نحن بذلك جيران ولا ندري!...

- بالتأكيد! جيران و صديقان!

تريث الفتاة قليلا كأنها تفكر ثم تتابع:

- قد تتساءل أستاذ خالد عن سرّ اتّصالي بك. فقد سألتني صديق هو أستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد عن أعمال روائية جزائرية حديثة لدراستها. فخطر ببالي توّا اقترح روايتك الأخيرة لأنني حقيقة أتابع منشوراتك من بعيد، منذ فترة. وإني منبهرة بما تخطه أناملك، حفظك الله.

- ممتن لمشاعرك الطيبة. مبادرة طيبة مباركة. لكنني الآن محتار أتساءل: ما الذي يجعله يدرس روايتي وهي غير معروفة ويترك روايات قامات أدبية بلغ صيتها أنحاء الدنيا مثل أحلام مستغانمي وهي تحيا بالشرق العربي، أو واسيني الأعرج وما أكثر رحلاته في الوطن العربي؟!

- لا!!!! لا تخفى نجوم الأدب والفكر في بلادكم الشقيقة على أحد! الدكتور مطّلع على المشهد الأدبي عنكم ويعرف هذه الأسماء الكبيرة حق المعرفة، لكنّه في واقع الأمر لا يبحث عن

أعمال معروفة مستهلكة من حيث الدراسات النقدية، وإنما عن أعمال جديدة عذراء لم تلمسها بعد أقلام النقاد! سأرسل لك طلب صداقة بالفيسبوك وأيضاً رابط صفحة هذا الأستاذ غدا بحول الله. أستأذن إذا ونواصل الحديث غدا إن شاء الله.

- في أمان الله وحفظه. تقديري لك آنسة وفاء...

(٢)

كان يشعر في بداية مشواره الأدبي أَنَّ الأدبَ بحرٌ فسيح الأرجاء،
تصبّ فيه جداول إبداع الحضارات من الماضي والحاضر والمستقبل.
وكان يراه شجرة باسقة، مترامية الأطراف، تعانق أغصانها السماء،
ترتوي منذ قديم الزمان بحبر أجداده، وعرق كُتّاب عصره، وفكر
الأجيال من بعده. وكان يرى أَنَّ هذا الانسان الذي يحيا في الطبيعة
رفقة بقية المخلوقات، مع أَنَّهُ كائن صغير وضعيف بجسده، يظلّ
كبيراً وعظيماً بذهنه. فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع
أَن يسبح بعيداً في الفضاء المحيط به وبعالمه على متن سُفن خياله.
وهو الوحيد الذي يستطيع أَن يثير أسئلة عن وجوده، وماضيه،
ومستقبله، بعقله. وكان يؤمن أَنَّ الأدبَ عظيمٌ عظيمة العقل البشري
المفكر والمدبّر، ومتنوّع تنوّع الانتماءات العرقية والثقافات البشرية،
وواسعٌ سعة الفضاء المحيط بالأرض والمجموعة الشمسية، لا تحدّه
حدود، يسبح فيه الإنسان بخياله من غير قيود.

وكان يرى أنّ الكتابة فنّ رفيع مميّز، له عمراناه وهندسته وجماله. وعمران الكتابة لا يختلف كثيرا عن عمران المدينة. فإن كان عمران المدينة يحتاج إلى أعمدة متينة يرتكز عليها ليرتفع، فإنّ عمران الكتابة يحتاج أيضاً إلى أركان متماسكة يقوم عليها. وأركان عمران الكتابة هي قدرة لغوية، وأفكار معبرة ثرية، وإلهام وإبداع وتغطية إعلامية. فاللغة هيكلٌ. والفكرة نخاع. والإلهام نور يهتدى به إلى فردوس الأفكار والمعاني والصور البديعة. والإبداع جناحان يرفرف بهما عالياً في سماء الأدب الشاسعة. والإعلام جسور يعبرها للوصول إلى جماهير القراء الواسعة.

أدرك خالد دور الإعلام في مدّ الجسور بين المبدع والمجتمع قبيل شروعه في التأليف. كان، إذ ذاك، طالبا بالجامعة. كان متفوّقا كعاداته على كثير من زملائه في الأدب واللغة، ولوعا بالمطالعة، لا يقع بين يديه كتاب إلاّ قرأه. ومع مرّ الزمن، راوده حلم الكتابة، وطفحت نفسه رغبةً في المحاولة. ولم يطل الانتظار، فإذا به يرفرف بجناحيه الرهيفين في سماء الأدب لأول مرّة، كما يرفرف الهيثم في أول رحلة له خارج العشّ. كان يخال نفسه طائرا صغيرا في مقتبل العمر، رابضا في كنف العشّ. ولا بد له الآن من الخروج والمغامرة.

فالطيور لم تُخلَق لتظلَّ حبيسةً في الأعشاش مدى الحياة! ولم تخلق لها هذه الأجنحة، على خلاف بقية الحيوانات، لتظلَّ واقفة على الأغصان؟! فإن ظلَّ رابضاً في العش أو واقفاً على غصن الشجرة، فإنه لن يكون أفضل حال من تلك العصافير المحبوسة في أقفاص صنعها لها البشر استمتاعاً بأشكالها وأصواتها! كلا! هذا العصفور لم يخلق لكي يجلس في قفص له قضبان من حديد أو من أغصان الأشجار وأوراقها! العصفور خُلِقَ لكي يطير ونعم المصير! ولكي يطير، لا بد له من كسر حاجز التردد والخوف. ولا بد له من الثقة بنفسه وبجناحيه. ولا بد له من المحاولة والمجازفة... وها هو يحاول ويغامر.. يحاول من خلال قصّة قصيرة يبعث بها إلى إحدى الصحف. وها هو الحظ يبتسم له في أول محاولة وأول خطوة. لم تكد تمضي أسابيع حتى شاهد قصّته منشورةً في الصفحة الثقافية للصحيفة. فأقرّ ذلك ناظره، وطيب خاطره.

لم يملك نفسه من الطرب، فهرع إلى محلات بيع الجرائد، ونورّ البشر يلمع في غرته، فابتاع ما لا يحصى من نسخ الجريدة، وهبّ يوزّعها على أفراد أسرته وأصدقائه وجيرانه، واحتفظ ببعضها ذكرى لنفسه، وهو لا يملك نفسه من الطرب. ها هو الفرخ الواهن يُوفّق

في أول مغامرة له خارج الوكر، مرفرفاً بجناحيه بمشقة ووجل. فينمو بعد ذلك ليصبح صقراً هماماً يخلق عالياً في الفضاء، غير حافل بالأخطار، فيمضي في رحلة طويلة خارج الأوكار، مقتفياً أثر الطيور المهاجرة في سبيل البقاء.

واليوم، وهو يحيا في ديار الغرب، فقد صار يدرك أكثر من أي وقت مضى وزن الإعلام ودوره في إيصال رسالته الأدبية إلى الجماهير في بلاده والبلاد العربية. وإن كان الإعلام جسراً بين الكاتب والقراء، فإنه أحياناً معمل عجيب مجهّز بأحدث الآلات والتقنيات التي توفّر الوقت والجهد، يُصنع فيه الكاتب من غير حاجة إلى كتابة، والبطل من غير حاجة إلى بطولة، بوصفه سحرية عجيبة، الضجة الإعلامية. إنّه الإعلام الذي رفع بالأمس أقلاماً أدبية إلى أسمى درجات العظمة والإجلال، بأعمال قليلة. فذهب صيتها في الناس، وأشرقت شمسها في السماء، وغمر نورها الأجواء، فحجب الأضواء عن كلّ النجوم من حولها. فبيع من أعمالها في أوقات قياسية، أرقام تكاد تكون خيالية، لا طاقة للجماهير العربية بها، ولا قدرة لها على قراءتها واستيعابها، في مجتمعات معروفة بنفورها من الرواية، وعزوفها عن القراءة، بل ومعروفة أيضاً بعدم إتقانها اللغة التي تقرأ فيها هذه المؤلفات الأدبية.

لكنّ هذا الإعلام، بما له من قوة وتأثير، يبقى أفضل سبيل للوصول إلى الجماهير الواسعة المتباعدة. وما دام في بداية مشواره الأدبي فإنّه بحاجة ماسة إليه، لا غنى له عنه. وهكذا فقد سرّ بهذا الإعلام الذي نشر له الآن أوّل قصة بنجاح ومن غير مشقّة. استبشر خيراً وتطلع إلى المستقبل بأمل وتفاؤل وتشجّع لكتابة قصة أخرى. وما لبث أن خاب أمله في هذا الإعلام بعد أن تكرّر اتصاله بشتى الصحف دون جدوى. صحف كثيرة ما انفك يرسلها ويهاثفها ولا يلقي ردّاً منها!

لقد أدرك الآن أنّه حتى وإن كان لهذا الإعلام، في مثل هذه المجتمعات، عنوانٌ وهاتف وبريد إلكتروني منشور في الصحف والمواقع وفي أرجاء الدنيا، فإنّ ذلك يبقى مجرد شكليات. فالإعلام لا يردّ على كلّ الكتّاب. ولا يعامل كلّ الأدباء معاملة واحدة. وفي كثير من الأوقات، لا يحفل بمن كان في بداية المشوار مثله. الإعلام يهتم بمن ذاع صيته، وسمت منزلته، وعلت كلمته، أو كان من المقربين له.

لقد أدرك الآن أن للإعلام عيوناً تشبه عيون البشر. فعيون البشر المجردة ضعيفة لا ترى الكائنات المجهرية الدقيقة وإنما الأشياء

الكبيرة البارزة في الطبيعة. فهو إن وقف أمام الإعلام وناداه بأعلى صوته، فحتى إذا نظر الإعلام حوله فإنه لن يراه، في حجمه المجهرى هذا! فإن كان يرغب حقاً في إثارة انتباه هذا الإعلام، عليه أولاً أن ينمو ويكبر ويخرج من هذا العالم المجهرى إلى العالم المرئى ويفرض نفسه ووجوده. حينئذٍ سيشاهده الكتاب والنقاد والقراء، وسيحدث عنه الإعلام والعالم لا محالة!

كاد ينطفئ في عينيه بريق الأمل والحلم وهو يرى جسور الإعلام العالقة بينه وبين الجماهير البعيدة في مهبّ الرياح. لكنّ الحياة علمته التريث والصبر الجميل، والمثابرة والصمود أمام العراقيل. وعلمته أيضاً، وهي خير المعلمين، أنه «حتى وإن انسدت كلّ الطرق في أوقات، ستفتح حتماً طرقاً أخرى وتستمرّ الحياة». فهذا هو الحرب بين وسائل الإعلام التقليدية ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة تندلع بغتة وتنتشر بسرعة في سائر أنحاء الدنيا. وبعد معارك عنيفة، ها هو دفاع وسائل الإعلام المكتوبة والسمعية والمرئية ينهار أمام جيوش منابر التواصل الاجتماعي الغازية. وها هي المدن والقرى والأرياف تفتح أبوابها لتستقبلها وتعلن ولاءها لها، وتصرف أنظارها عن وسائل الإعلام التقليدية!

كان من مزايا هذه المنابر كسر الاحتكار الإعلامي الذي تمتعت به فئة من الكتاب طويلاً. فها هي منشورات خالد اليوم تسافر إلى كل أرجاء الدنيا، فيراها كلّ البشر في لمحة بصر. ولم تنحصر فوائد هذه المنابر في النشر والإشهار فحسب، فقد أضحت همزة وصل تجمعهم برجال الفكر والأدب والفن والإعلام من سائر الأقطار. فما أصغر العالم اليوم، يجتمع كله في منبر واحد في ساعة واحدة! وما أكبره بما يحتويه من ملايين البشر! وما أجمله بما فيه من تنوع الأجناس والألوان والأديان والثقافات واللغات! وما أعظمه بما يزرع به من مصادر ومراجع ومعلومات ومعارف وأفكار، لا حد لها!

لكن، وإن كان خالد منبهاً من هذه المنابر التي سمحت له بمتابعة النشاط الأدبي والحراك الثقافي في الوطن العربي وكل أنحاء العالم وفتحت له آفاقاً جديدة للنشر والتقرب من القراء والأدباء والإعلاميين وغيرهم، فإنّه ما برح يستغرب سلوك بعض الناس فيها. أشخاص يلتحقون بقائمة أصدقائه بأسماء ليست أسماءهم، وبصور غير صورهم. وإذا به يتواصل مع بشر غرباء لا يعرف عنهم أو عن هوياتهم شيئاً. وما جدوى الصداقة إن كانت مع

أشخاص لا نعرف عنهم أشياء؟! وأي أصدقاء هؤلاء الذين يخفون عنا هوياتهم ويتعاملون معنا كغرباء؟!!

وقد اتفق أن كانت صديقتة اللبنانية المتعلمة وفاء من بين هؤلاء، وهو ما لم يكن يتوقعه، مما أثار استغرابه واستياءه. إذ أنّها التحقت به باسم ياباني! وظلّت تحمل هذا الاسم في قائمة أصدقائه وهو لا يدري! وفي أحد الأيام يكتشف، من باب المصادفة، أنّ هذه الفتاة العربية هي في واقع الأمر صديقتة وفاء! فيستغرب تصرّفها ويصارعها بذلك في إحدى الليالي:

- ما كنت أدري أنّ حساب تلك الفتاة اليابانية هو في واقع الأمر لك! كان الاسم يابانياً! وحتى صورة البروفايل كانت لفتاة يابانية! فاعتقدت في بداية الأمر أنّ الحساب لفتاة من اليابان حقاً! وجعلت أتساءل عن سرّ اهتمام فتاة من أقصى شرق آسيا بصفحتي، ومصادقتي!

وكانت المفاجأة كبيرة في أحد الأيام عندما عرضتُ فصلاً من روايتي في صفحتي، وإذا بها تسارع إلى تسجيل إعجابها بالمنشور والتعليق عليه باللغة العربية الفصحى ومن غير خطأ!

- أفهم ذلك! لكن الأمر عادي، في تصوري! هذه مجرد شكليات، وأنا لست الوحيدة في ذلك، فالكثير من الأصدقاء يستخدم أسماء وصوراً مماثلة. أعتقد أنّ أهمّ شيء في هذه المنابر هو التواصل.. التواصل وليس شيئاً آخر.. ولا يهمّ الاسم والصورة والمظاهر. فكل ذلك شكليات! وها قد ذكرتَ قبل قليل أنك شاهدتَ التعليق في صفحتك. وأنا واثقة أنك سعدت به. ثم نحن هنا في عالم افتراضي، فأين المشكلة؟!

- أكيد، أكيد! أشاطرك الرأي صديقتي الفاضلة. فهذا عالم افتراضي، كما تقولين. ولعلّ أهمّ شيء فيه التواصل مثلما ذكرتَ. لكن، هذا التواصل لا يحصل بين شخصيات وهمية، ولا بين كائنات فضائية، ولا بين أجهزة كمبيوتر وآلات وغير ذلك وإنما بين بشرٍ من لحم ودم؟! وفيه يعبر هؤلاء البشر عن أفكارهم ومشاعرهم وهواجسهم وانشغالاتهم وهمومهم... فما نشاهده فيه يتعلّق بالحياة في كوكبنا وليس في كوكب زحل! ألا ترين ما يُنشر فيها يومياً يا صديقتي؟! لا شيء يحصل هنا وهناك في عالمنا الواقعي إلّا ذاع خبره في هذا العالم الافتراضي، في لمح البصر! فهو بذلك مرآة تعكس حياة البشر بكل ما فيها من تناقضات، وعدسة

كاميرا تصوّر الواقع تصويراً دقيقاً بكل تفاصيله. فشخصيتي لن تتغيّر بتغيّر المواقع. واسمي، وأنا أخاطب البشر من خلال العالم الافتراضي، لن يكون مختلفاً عن اسمي وأنا أخاطبهم في الشارع أو في الجامعة أو على شاشة التلفزيون أو أمواج الإذاعة! ولن تتغيّر أفكارني ولا مواقفي ولا أي شيء آخر سواء كنت أمام بشر من لحم ودم أو أمام لوح إلكتروني أو شاشة الكمبيوتر! ولن يتغير فحوى رسالتي إليك سواء كتبتها على الورق وأرسلتها لك بالبريد أو على الشاشة وأرسلتها لك باللوح الإلكتروني! أنا هو أنا. ولن أتعزّر سواء كنت أحدثك وأنا واقف أمامك أو من خلف الشاشة!

آنسة وفاء، أودّ أن أسألك سؤالاً من باب الفضول فحسب، إن لم يكن ذلك يزعجك.. لمَ غيّرت اسمك؟ ولمَ اخترت لنفسك هذا الاسم الغريب؟! لمَ اخترت اسم «سيزوكو»؟! وبأي شيء فضلت اسم فتاة من اليابان على اسمك الحقيقي الساحر «وفاء» واسم بلدك الأصلي الجميل، لبنان؟!

- فعلت ذلك لأنّ وسائل التواصل كبيرة ومعقدة ويشارك فيها ملايين البشر من كلّ بقاع الدنيا. وفيهم طبعاً الصالح والطالح،

والمسلم والمخاصم، والصادق والمنافق. فأنا لست أشعر بما يكفي من ثقة وأمان في هذه المواقع حتى أنشر فيها تفاصيل هويتي، أو أعرض فيها صورتي، أو أكشف من خلالها أسرار حياتي، يراها كل من هبّ ودبّ! ما أكثر الانتهازيين الذين يتحيلون على الأبرياء هذه الأيام! وقد ازداد الأمر سوءاً بعد ظهور وسائل التواصل الاجتماعي التي اختصرت المسافات بين البشر. تطالعنا الصحف بقصص الحيل والمكائد كل يوم. فقبل أسابيع قليلة، قرأت في صحيفة «الدائلي مايل» قصة امرأة بريطانية أدلت بشهادة في قضية اغتصاب فتاة في مدينة «كليفلند» في شمال شرق إنجلترا. فاتّصل بها المتهم عن طريق الفايسبوك ليخادعها ويأخذ بثأره منها بغير رحمة بعد أن شهدت عليه في المحكمة!

- أجل، أجل.. أوافقك الرأي.. مثل هذه الجرائم ما فتئ يزداد انتشاراً في العالم. فإني قرأت في الجرائد الإنجليزية أن الشرطة البريطانية تتلقى بلاغاً عن جريمة بالفايسبوك كل ٤٠ دقيقة تقريباً! وهذا طبعاً رقم قياسي!

- عظيم! فمعنى ذلك أنك تتفهّم أمري!

- ليس تماما! لأنّي لا أظنّ الاختفاء خلف هويّات غير هويّاتنا يقينا من بلاء الناس. فما الذي يمنع المجرم من التمويه، أو المحتال من المخادعة بتقمّص شخصية وديعة ودودة يستدرج بها الضحية إلى المصيدة؟! ثمّ أليس التعامل مع البشر بمثل هذه الهويات شيئا من التحايل؟!

- التحايل؟!

- أجل التحايل.. وكيف لا ونحن نصوّر لهم هوياتنا في غير صورها الحقيقية، ونعرض عليهم صور بروفایل ليست لنا؟! نحن بذلك نخادعهم وقد لا ندرك ذلك! أعذرني على صراحتي هذه!

- العفو، العفو! أحبي صدقك! يسرّني أن أتبادل وجهات النظر معك سيّدي الكريم. وإني من جهتي أصارحك أنّي في بعض الأوقات أتساءل عن فائدة هذه المنابر التي اختلست أوقاتنا، وجدوى بقائي فيها! أشعر أنّي لم أجنّ منها شيئا يذكر منذ التحقت بها؟!

- لعلّك تقولين هذا الكلام لأنّك حديثة العهد بها. ولا شك أنّك مع مرّ الزمن ستكتشفين فوائدها، وتدركين بلا ريب أنّ منافعها أكثر من أضرارها.

إنَّها نافذة نطلّ منها على حضارات الشعوب وثقافات الأمم. فيوسّع ذلك معارفنا، وينمّي وعينا، ويعمّق فهمنا، ويثري أفكارنا، وينير عقولنا، ويقوي إيماننا بانتمائنا إلى هذا العالم المتنوع، ويعزز إيماننا بإنسانيتنا.

وإنَّها جسر يربطنا بأهاليها وأحبّتنا وأصدقائنا الذين فرّقنا عنهم الزمان. تصوري يا صديقتي أنّه بعد تخرجي ورحيلي إلى المهجر، شاءت الأقدار أن أفقد الاتصال بصديق عزيز. كتب لي عنوانه على ورق ساعة الفراق وأوصاني بحفظه والاتصال به في أقرب وقت ممكن. وضاع مني الورق لغبائي! فتساقطت نفسي أسفاً ولهفاً. وبعد نحو عشرين سنة من ذلك، كانت المفاجأة عظيمة! فقد تجدّد اللقاء بفضل وسائل التواصل الاجتماعي!

- عشرون سنة؟! -

- أجل، عشرون سنة أو أكثر من ذلك بقليل! وكم كانت الفرحة كبيرة! تصوري يا صديقتي أنه لشدة سعادته بلقائي، قال فيّ شعراً!

-الله! ما ألطف هذا الصديق! وما أعظم هذا الوفاء والاحلال
والتقدير! هلا أطربتني ببعض الأبيات؟ فإني شغوفة بالشعر!

-بالتأكيد:

«سَرَّنِي رُؤْيَةً شَخْصُكَ	وسماعي لَحْنَ صَوْتِكَ
يَا مُشْبِئًا نَارَ شَوْقِي	في ضُلُوعِي مُذْ فَقَدْتُكَ
طَالَ فَقْدَانِيكَ حَتَّى	صِرْتُ مَهْمُومًا لِبُعْدِكَ
أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَهِي	أَنْ رُزِقْتُ الْيَوْمَ وَضْلَكَ
كُنْتُ لِي نَعَمَ الرَّفِيقُ	فِي ضُحَى مَطْوِيٍّ أَمْسِكَ
كُنْتُ دَوْمًا يَا خَلِيلِي	أَشْتَهِي ثَمَرَةَ عَقْلِكَ
وَتَهَزُّ الْعِطْفَ مِنِّي	حِينَ تَتَلَوُ سَحَرَ نَقْلِكَ
سَوْفَ نَطْوِي الْعَمَرَ عَوْنًا	إِنْ يَشَأْ رَبِّي وَرَبِّكَ
إِنَّمَا الْعَمْرُ اجْتِهَادُ	فِي رِضَا رَبِّي وَرَبِّكَ
وَمَسَاعٍ طَيِّبَاتُ	لِمَقَامَاتِ تَسْرُّكَ.»

- الله، الله! ما أحلى هذه الأبيات! وما أروع هذه القصة! وهل ثمة أروع من لقاء يتجدد مع صديق بعد عشرين سنة من الفراق! ويتجدد بأبيات مدح نادرة لا يقوها الشعراء إلا في الملوك والأمراء!

- والله كدتُ أفقد الأمل في العثور عليه! وأنى لي أن أجده وأنا لا أملك حتى عنوانه، والبحار والسهول والجبال بيني وبينه! لشد ما لهفتُ على فقدانه! وإذا بمنابر التواصل تمدُّ الجسور الطويلة بيننا وتجمعنا بعد كل هذه السنوات!

- أتفهم ما كنتَ تشعر به في سنوات الفراق. لكنّ اللقاء تجدد في آخر الأمر وهذا في تصوري أهم شيء! وكما يقول الكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز «ألم الفراق لا يساوي شيئاً أمام سعادة تجدد اللقاء». وطبعاً كلّ الشناء والتقدير لوسائل التواصل الاجتماعي التي أتاحت لك فرصة تحقيق هذا الهدف!

- وسائل التواصل الاجتماعي، مثلما أراها يا صديقتي، تشبه هذا البحر الفسيح الذي يحيط باليابسة.. فهذا البحر الذي يتيح للإنسان أسفاره، ويوفّر له طعامه، يستطيع أيضاً، بقوة أمواجه وأعاصيره،

أن يغرقه وأن يجعله طعاماً تقتات به أسماكُه!.. كل واحد منا في هذا البحر ربانٌ يقود سفينته فيه. وبقاء السفينة يتوقف إلى حد ما على مهارة هذا الربان وتجربته وقدرته على تجاوز العواصف والأعاصير، وحسن التعامل مع الطوارئ والظروف الصعبة. فالربان قد يقود سفينته إلى بر الأمان وقد يرمي بها على الصخور والكتل الجليدية..

ووسائل التواصل تشبه هذا البحر الذي نلفي فيه مياهها مالحة وأخرى عذبة، وأسماكاً وديعة وأخرى مفترسة. فعلينا دائماً أن نشق طريقنا بحذر وأن نحترس من كل الأخطار التي تتربص بنا، والحواجز التي تعيق سبيلنا. تصوّر يا صديقتي أن نجاحي في استعادة الاتصال بهذا الصديق العزيز دفعني إلى البحث عن زملاء آخرين من أيام الدراسة بالجامعة. وبينما أنا أبحث، وافقت أفواجاً من رجال الفكر والأدب والفنون، وأبطال الرياضة والمسرح والتلفزيون. غير أنني لم أهتد إلى سبيلهم لتعدّد هوياتهم، وكثرة حساباتهم. وما زلتُ أبحثُ حتّى وافقت شخصاً لا يخطر لقاؤه بيال أحد!

-ومن يكون هذا الرَّجل الذي لا يخطر لقاءه ببال أحد يا ترى؟
أبلغني فقد شوقني!

-لا أظنك ستصدقين!...

-قلتُ لك أبلغني فقد شوقني!!

-إنَّه حضرته رئيس الجمهورية!

-ماذا قلتُ؟! رئيس الجمهورية؟! أتمرح؟!

-كلاً، لستُ أتمرح! قلتُ لك لن تصدقي!

-أمر غريب! ما كنت أتصوّر أن يهتم رئيس الجمهورية - وما أدراك برئيس الجمهورية - بمنابر التواصل الاجتماعي هذه!

-ولا أنا!.. حتى شاهدته! وطبعاً انبهرت وأنا أشاهد فخامته صورةً وأبتهً، يحيط به جموعٌ غفيرةٌ من الأصدقاء! فعجّلت بإرسال طلب إضافةٍ وأرفقت به خطاباً أثني على سيادته وأشيد بإنجازاته... وكم تطلّعت إلى رده ومصادقته. ولما لم تأتني منه موافقةً، خلته مشغولاً. وكيف لا، وهو القائد الأعلى يتحمّل عبء الوطن وهموم المواطن!

ولشدة غبطني وإثارتي حدثت زملاء في العمل عن اكتشافني، فما تمالكوا أن ضحكوا، متعجبين من أمري! فأدركت، أنني على حين غفلة وقعت في شباك محتالين يتحللون في خفاء شخصيات العظماء! لهذا بت أنزعج كلما لمحت هوية غير حقيقية تسعى للتواصل معنا في هذا الفضاء الاجتماعي! وما الذي يمنعنا في واقع الأمر من التواصل بأسمائنا الحقيقية؟! ولم نخفي هوياتنا عن الأصدقاء والعالم من حولنا إن لم نكن نخفي شيئاً لا نريد أن يطلع عليه غيرنا؟! فلا شك أنك الآن تدركين سبب انزعاجي من هذه الهويات المستعارة أو المزيفة...

وتمسك الفتاة عن التعقيب على كلامه، فيتابع:

- هل أنت هناك يا صديقتي العزيزة؟...

ويترقب ردّها دون جدوى كما لو أنّ الأرض انشقت وابتلعته.
فيتابع:

- أستاذة وفاء! لم لا تردّين؟ هل أزعجك حديثي؟...

وفي آخر الأمر يشعر أنّها قطعت حبلها به بعدما سئمت كلامه، فترسم على محياه بألوان قائمة لوائح الانشغال والحيرة.

(٣)

يخالها أعرضت عنه بعد كل ما سمعته منه من كلام مملّ وعتاب
لاستخدمها هوية غير هويتها، وإذا بها تفاجئه يوم غدٍ ملّس الظلام
بأتّصالٍ جديد بينا هو منشغل في الكتابة:

- مساء الخير أستاذ خالد. أنت مشغول؟

فيدع ما بين يديه ويردّ عليها بشيء من العتاب:

- أهلاً، أهلاً، آنسة سيزوكو! ماذا جرى البارحة يا صديقتي؟! فقد
انقطع الاتصال منك فجأة! أرجو ألا تكوني قد استأثرت من كلامي!
فتردّ بامتعاض:

- لا، لن أستاذ من ذلك أبداً مقدار استيائي من كلامك الآن! لماذا
تدعوني بهذا الاسم وأنت تدرك أنه ليس باسمي الحقيقي؟! أتسخر
مني أم ترغب في استفزازي؟!

- لا، لا، أبداً! لا أقصد ذلك مطلقاً! آسف، آسف! كل ما في الأمر هو أنك اليوم تُعرِّفين في منابر التواصل الاجتماعي بهذا الاسم. ولكثرة تردده على مسمعي، فقد رسخ في ذهني، واقرن بك في وجداني، حتى آني ذكرته الآن دون أن أنتبه! فاعذريني يا صديقتي..

- لا عليك إذاً. لا عليك.. حسبتك قلته من باب السخرية والاستفزاز...

- مطلقاً! وهل يعقل أن أسخر من فتاة في مقامك! حتى وإن اختلفت معك في الرأي، لك الحرية طبعاً في اختيار الاسم الذي يروقك، وإنني احترم قرارك. وأنت، مثلما ذكرتِ البارحة، لست الوحيدة في ذلك، في هذا الفضاء الواسع والمعقد. انظري إلى هذه الأسماء الغريبة التي باتت تملأ قائمة أصدقائي! مئات الأصدقاء بأسماء مختلفة لا تمت لأصحابها بصلة! بعضهم اختار لنفسه بين كل أسماء الدنيا اسم حيوانٍ أو جماد! وبعضهم فضّل اسم صفة أو تفضيل! دعا بعضهم نفسه البطل والفاضل والأفضل والأجمل والأقوى والأذكى والأتقى، وما شابه ذلك، وإن لم يكن اسماً على

مسمى! واستخدم بعضهم عبارات تعبّر عن حاله، أو عما يدور في باله، أو ربما عن أحلامه وطموحاته وأماله! فهذا عائِلٌ عاطِلٌ عن العمل، وذاك بائِسٌ من غير أمل، وهَلُمَّ جَرًّا!

- أرى ذلك بالتأكيد! لكن، قل لي أرجوك! ما المزعج لك في ذلك أستاذي الفاضل؟! إِنَّهُ كله عالم افتراضي، يدخله كلٌّ من هبٍّ ودبٍّ، ولا يحاسب فيه أحد! حتى أولئك الذين صنعوا الفاييبوك لا أتصوّر أنّهم انزعجوا من ذلك وإلاّ لمنعوه! أرجو ألاّ تنزعج من سؤالي هذا أستاذي الكريم.

- لا، أبداً، فاسألني ما شئت ولا تتردّدي. لقد تهت بين كلّ هذه الأقنعة المتنوّعة التي باتت تطل علينا، وتحيا بيننا، وتتعامل معنا بغير تحفّظ كما لو كنا نعرفها حقّ المعرفة، ونحن في واقع الأمر لا نعلم عنها شيئاً، ولا نستطيع حتى التمييز بينها! والأقنعة تظل أقنعة حتى وإن تغيّرت أشكالها، واختلفت ألوانها. فما يترأى لنا من مظاهرها الفاتنة وألوانها الزاهية يبقى غلافاً مزيفاً كاذباً، لا يعكس لنا وجوه البشر الحقيقية، وطباعهم الخفية. لقد التحق بقائمة أصدقائي مئات الأشخاص بهويات غير هوياتهم، وإني في

الحقيقة لا أتواصل إلا مع شزيمة قليلين منهم. ولكثرة الأصدقاء، ضلّت عني أسماءهم، ولم يعد بوسعي التفريق بينهم. تصوّري، آنسة وفاء، أنني أيام عطلتي في تونس العام الماضي، تعرّفت إلى مدير دار نشر وتوزيع تونسية خاصة. بدا الرجل عذب النفس، طيب الخلق، دقيق التفكير، حلو اللسان. وبيننا كنا نتجاذب أطراف الحديث، حدثته عن روايتي الجديدة وأطلعته على فصل منها. فأعجب بأفكارها، وسرّ بأسلوبها، فأبدى اهتمامه بها وعبر عن رغبته في نشرها. وما لبث أن التحق بقائمة أصدقائي وكان له هو أيضاً اسم مزيف مثلك، وإن كان الاختلاف بينكما اختلاف العقل والغريزة. فإن كنت أنت قد اخترت اسم إنسان، فإنّي لا أدري لما اختار هو اسم حيوان مفترس لا يليق بمقامه الرفيع، كما لو خلت الدنيا من أسماء البشر!

-وأيّ حيوانٍ اختار صديقك هذا؟ أسألك من باب الفضول.

- اختار اسم «الذئب». والغريب العجيب أنّ هذا الاسم يشترك فيه عدد من الأشخاص في قائمة أصدقائي! ولما فرغت من كتابة الرواية وكان بي إليه أعظم الحاجة، غاب اسمه عن ذهني لسوء

حظي! فجعلتُ أبحث عنه بين أسماء الحيوانات، ولكثرتها شعرت
كما لو كنت أتجول في حديقة حيوانات، أو بالأحرى أشق طريقي في
غابة موحشة، فأتوه في مسالكها الوعرة، وأدغالها المفزعة، وشعابها
المریعة، ولا أعثر له على أثر!

- لكن، إذا أذنت لي أن أسألك أستاذ خالد... لم تصاحب كل هؤلاء
البشر؟! أيعقل أن تفتح أبواب بيتك لكل من هبّ ودبّ من خلق
الله! فالأمر يخضع لإرادتك. أنا خلاف ذلك تماماً، فمع أنّ طلبات
الصداقة لا تكاد تتوقف إلاّ أنّي من باب الحيلة والحذر لا أقبلها.
فاليوم قائمة أصدقائي لا تتعدى ثلاثين صديقاً! أنا أبحث دائماً عن
النوع وليس الكمّ، والإخلاص وليس الحجم!

- حق ما تقولين يا صديقتي. فالصداقة ليست بضاعة تقاس بالعدد
والحجم والقيمة المالية، وإنّما بالأخلاق النبيلة والنوايا الحسنة
والأعمال الطيبة والمواقف الجريئة. وخير امتحان لذلك وقت
التعثر والفشل والضييق حينما نشعر بأعظم الحاجة إلى أصدقائنا
والبشر من حولنا. فالمرء ليس في حاجةٍ إلى ألفِ صديق، وإنّما إلى
شخصٍ لا يخذله ساعة الضيق...

وتنقطع الفتاة عن الكتابة فجأة، فيخالها قد انصرفت كما فعلت
 الليلة الماضية. ويهمّ بإغلاق لوحه الإلكتروني والانصراف هو
 الآخر، وإذا هي تناديه:

-أستاذ خالد!...

-والله حسبتك انصرفت! أين كنت؟!

-لا، لا، لم أنصرف! كنت أفكر فحسب...

-تفكرين؟! وما الذي يشغل بالك في مثل هذه الساعة يا ترى؟!

-أنت...

-أنا؟!!

-أجل! أقصد شخصيتك...

-وما بها شخصيتي؟!

-صورة شخصيتك، أستاذ خالد، تتضح لي يوما بعد يوم من خلال
 حديثك معي. ولا يسعني اليوم إلا أن أقول من غير تردد إنك تبدو

مختلفاً عن بقية البشر! طبعاً بالمعنى الإيجابي للكلمة، فلا تقلق!

يبعث مديحها في نفسه شعوراً بالدفء والمسرّة والاعتزاز ممزوجاً بشيء من الخجل، فيردّ بشيء من التواضع:

-أأنت متأكدة؟ فأنا لا أرى نفسي مختلفاً عن بقية البشر...

-أجل! أجل! في الماضي كنت أصرف وقتاً طويلاً في الحديث والردّشة مع عدد كبير من الأصدقاء. كنت أجتهد وأسهر وأفكر، ولا أجني من ذلك غير وجع الرأس وضيق الصدر والضجر! أنا حقاً منبهرة! لستُ أجاملك إن قلتُ لك: لقد أعجبني شخصك، وراقني حديثك!

-وأطربني حديثك أيضاً آنسة وفاء! إن اختلفنا في بعض المسائل -والاختلاف بطبيعة الحال لا يفسد للود قضية - فإننا، على ما يبدو، نشترك في أشياء كثيرة، وهذا مكسب عظيم.

-سررت بهذا التوافق أستاذ خالد.

-وأنا أيضاً...

ويمسك عن الحديث قليلاً ثم يتابع:

-هل لي أن أسألك سؤالاً آنسة وفاء قبل أن نفترق؟

-أكيد! تفضّل!

-أود أن أعرف من باب الفضول فحسب كيف عثرت عليّ في هذا الفضاء الرحب الذي يضم ملايين البشر.

-والله لم يكن الأمر هيئاً! فقد كنت محقاً البارحة عندما قلت الفايسبوك يعيننا على استعادة الصلة ببشر ضرب الدهر بيننا. فأنا أيضاً طفقت أبحث عن أصدقاء طفولتي. فاعترض سبيلي طمّ من الناس تباينت آراؤهم، وتعدّدت توجهاتهم، وتفاوتت مواقفهم في الحياة، واختلفت فلسفتهم في أمور الدنيا والآخرة.

فمنهم من احترف الدّعوة فبات يغرق صفحته وصفحات الأبرياء بالحديث والدعاء، ويكنّ لمن لا يشاطره الرأي الضغينة والعداء.

ومنهم من امتهن السياسة فصير صفحته قاعدةً تقلع منها مقالاته فتحلّق في السّماء وتغير على من تشاء.

-آه والله! ما أكثر هذه المظاهر في منابر التواصل هذه الأيام! فقد استشرى فيها هذا الوباء حتى بدت وكأنها فضاء حالك السواد مفزع في هذا الكون، لا يحكمه نظام أو قانون.. وإن كان فيه قانون لن يكون غير قانون الغاب، تُرتكب فيه أبشع المخالفات من غير عقاب.

ففي الدين، ها قد جعل الجميع نفسه إماماً أو داعية وخوّل نفسه ما لا حق له، وراح يُفتي بما لا علم له. وها هي رسائل 'المصلحين' والمصلحات' تتهاطل علينا محمّلة بالأدعية والآيات القرآنية، تأمرنا بتوزيعها على أكبر عدد ممكن من البشر، وتعدنا بعقاب في الدنيا والآخرة إن لم نمثل لهذا الأمر! آخر رسالة وصلتي هذا الصباح من أحدهم. تقول:

«لأنني أحبك، صليّ على النبي عشر مرات، وأرسلها لعشرة أشخاص، وخلال ساعة ستقام مليون صلاة على النبي، في ميزانك. فلا تقل إنك لا تملك وقتاً!»

- والله وصلني بعضها أنا أيضاً من أصدقاء في قائمة أصدقائي ومن غرباء لا أعرف عنهم شيئاً. وصلّني رسالة غريبة قبل أيام

فيها شيء من الوقاحة والتهديد. تقول:

«إذا فشلت في إرسالها، فاعلمي أنّ الله غنيّ عنك!!!!»

لا إله إلا الله عدد الليالي والدهور..

لا إله إلا الله عدد الأيام والشهور..

لا إله إلا الله عدد أمواج البحور..

لا إله إلا الله عدد القطر والمطر..

لا إله إلا الله عدد أوراق الشجر..

لا إله إلا الله عدد الشعر والوبر..

لا إله إلا الله عدد الرمل والحجر..

لا إله إلا الله عدد الزهر والثمر..

لا إله إلا الله عدد أنفاس البشر..

حتى إذا كنت مشغولة، أرسل إليها عشرة أشخاص بنية الفرج.»!

فتساءلت في أعماق نفسي: «ما هذه الرسائل المحملة بالشعوذة والدجل؟!»...

تُذكرني هذه الرسائل قليلاً بصكوك الغفران التي تاجرت بها الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى!

- والله صدقت، فهي أشبه ما يكون بذلك، مع ربما اختلاف بسيط: ففي تجارة صكوك الغفران يقبض رجل الدين أجره من الإنسان، أما في تجارة الأدعية والآيات القرآنية هذه فيطمع المرء في الحصول على أجره من الله! فهذا يطمع في حياة الآخرة وذاك يطمع في حياة الدنيا! والطمع طمع سواء كان الثواب في الحياة أم بعد الممات!

هذا عن الدين، أما في السياسة، فقد جعل الجميع نفسه خبيراً في شؤون الدولة والعلوم السياسية، لا يجادله في معرفته أحد! وجعل بعضهم مواقع التواصل الاجتماعي منبراً يلقي من خلاله خطابات الكراهية، ويدعو إلى العنف وسفك الدماء وهتك الأعراض ونشر الخراب والدمار في أنحاء الأرض! إنها براكين الشر تندلع فتبث في نفوس البشر القلق والهلع.. قلوب تلتهب ضغينة، تندفق حمم نيران الشر من أفواهها، فتُغرق في طريقها قلوب الناس الطاهرة! فتهدّ

براءتها وتقتل إنسانيتها! فما أحوج بني آدم اليوم إلى غسل النفوس من رواسب الحقد والشر، وسقيها من منابع المحبة وعمل الخير. وما أحوج البشر إلى التواصل والتعاون زرعاً للمحبة والإخاء، بدلاً من إثارة البغضاء والعداء.

- هذا ما نحتاجه بالتمام! نحتاج إلى التعاون على البرّ ومدّ جسور التسامح والوئام والسّلام بين البشر في كامل أنحاء الدنيا، بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية أو القبلية أو الدينية...

- صدقت.. لكنّك لم تخبريني بعد كيف عثرتِ عليّ بين هؤلاء الدعاة والسياسيين وبقية البشر في هذا الفضاء الأزرق الواسع؟!

- صرفت بالي عن صفحات هؤلاء، ومضيت في سبيلي، أطلب من يشفي غليلي، حتّى اهتديت إلى برّ صفحتك والأحاح يمزّقني بوقامه الخارق، فارتويت من نبع الأدب والفنّ الدافق...

- ما أعذب كلامك، وما أطيب أريجِه! يبدو لي أنك مولعة بالأدب!

- أنا شغوفة بالأدب لا سيما الشعر. يجمعنا حبّ الأدب والكتابة، وأنا سعيدة بذلك!

- الكتابة؟ وهل كتبت شيئاً من قبل؟
- أجل، فقد صدر لي قبيل أسابيع في بيروت ديوان شعرٍ عن دار
النّفائس للطباعة والنّشر والتّوزيع.
- عظيم! سعدت كلّ السعادة بسماع الخبر! ما كنت أعلم أنّك
أديبة! لم تخبريني بهذا من قبل؟!
- لا أدري. ربما لأنّنا لم نجد الفرصة للتحدّث في هذا الموضوع.
- وهل تكتبين النثر أيضاً؟
- إضافة إلى الشعر أكتب المقالة. نشرت عدة مقالات اجتماعية في
صحف لبنانية وسورية وأردنية، لا سيما في موضوع المرأة ومكانتها
وحريتها وغير ذلك. لكنني لم أكتب القصة أو الرواية، وأودّ أن
أجرّب حظّي فيهما مستقبلاً.
- أكيد! أكيد! فكل شيء ممكن! والرواية اليوم موضوعة العصر وقبلة
الكتّاب لما تحظى به من مكانة وتكريم. فما أكثر الشعراء الذين
صرفوا أنظارهم إلى الرواية في هذا العصر يا صديقتي.. وبعضهم

حلّق عالياً في فضاء الأدب على أجنحة الرواية. ومن هؤلاء أحلام مستغانمي التي ظلت طويلاً تتأرجح بين الشعر والسرد إلى أن رست في سبيل الرواية الذي آل بها إلى قمة الهرم وإلى ذروة المجد. وهل كانت ستحقّق مثل هذا التآلق الباهر لو اكتفت بنظم الشعر في عصرنا!

-في تصورك، هل معنى هذا أن الشعر قد فقد مكانته وقيّمته؟!

-أبداً! فالشعر يبقى بلا ريب أفضل وسيلة للتعبير عما يختلج في النفس من مشاعر. وهذا الشعر الذي نفذ منه الإنسان إلى دنيا الأدب سيبقى بقاء هذا الإنسان على وجه الأرض.. هذا الإنسان الذي تشبه نفسه البحر، تتلاطم فيها أمواج العواطف والهواجس بغير توقف، ولا غنى له من التعبير عن ذلك. والشعر أفضل وسيلة لذلك، فلا عجب أن الشعر نشأ قبل الرواية.

لشعر، يا صديقتي، وقع عظيم في الأدب. فالشعر بلا ريب هو الذي أضفى ألواناً جميلة ساحرة على روايات أحلام مستغانمي. وهذه اللمسات الفنية البديعة، التي برعت في رسمها رائدة الأدب

العربي أحلام مستغانمي أكثر من غيرها من الأدباء، هي التي أثرت في نفوس الجماهير وأطربتها إلى أبعد حد.

لقد تعانق الشعر والنثر، وتواشجت الألوان الأدبية، وانهارت الأسوار العازلة وتلاشت الحدود الفاصلة بينها، وتداخلت الأصناف فيما بينها حتى بات من الصعب التمييز بينها.

فحاولي ولا تردّدي! فلا شيء يمنعك من الخوض في الرواية التي خاض فيها شعراء من قبلك. ومن يدري، قد يتجلى أثر الشعر في أسلوبك أيضاً صديقتي الشاعرة الرائعة!

-أنا شاكرة لفضلك. وإنّي أتطلّع إلى توجيهك ونصحك، فلا تبخل عليّ بما تستطيع أستاذي القدير.

-العفو، العفو صديقتي الكريمة! أشكرك جزيل الشكر لثقتك بي! وإنّي دائماً في خدمتك وتحت أمرك.

(٤)

ويتجدد اللقاء في اليوم الموالي بالحوار التالي:

-أتعلمين أنسة وفاء أن أول ما كتبته وأنا في ميعة الشباب قصة قصيرة، ومن بعدها مقالة، ثم مقالة أخرى. ولم أكتب الرواية إلا في وقت لاحق بعد هجرتي!

-والله لست متعجبة لذلك على الإطلاق! فقد قرأت مقالتك النقدية أكثر من مرة، وأعجبت بها شكلاً ومضموناً. ومن سماتها، في تصوّري، قوّة الأسلوب، ومتانة التعبير، وعمق التحليل، ودقة الشواهد، مما لا يدع مجالاً للشك أو الجدل. أنا فخورة بك. دمت متألقاً في دنيا القلم.

-هذه شهادة أعتز بها ما حييت! وكيف لا وهي من شاعرة قديرة في مقامك! ممتن لمشاعرك الطيبة أستاذتي الكريمة.

-العفو أستاذ! أنا حقاً منبهرة بمقالاتك الموضوعية الراقية. أنا كلَّ مرّة أتعلّم منها شيئاً واستفيد من التقارير التي تستشهد بها وما تحمله من معلومات قيمة وأرقام دقيقة. وإني أشعر وأنا أقرأها أنك تبذل جهداً كبيراً وتنفق وقتاً طويلاً في كتابتها. فهي مقالات طويلة وعميقة وثرية بالأفكار والمعلومات!

-حق ما تقولين يا صديقتي. إني أتعب حقاً في كل مقالة أكتبها! فإن كان أغلب الكتاب، في جل الأوقات، يفرغ من كتابة المقالة خلال ساعات أو حتى دقائق قليلة، فإن مقالتي تستغرق أياماً طويلة، أسمى فيها كلّ مسعى للإمام بالموضوع من كلّ الجوانب، مستقصياً في كلّ مسألة، مستعيناً بكل ما وقعت عليه يدي من مراجع عربية وأجنبية بغض النظر عن مصادرها وتوجهات أصحابها.

-لكن، كيف لك أن تتجاهل مصادرها وتوجهات أصحابها؟! ألا تخشى أن تقع يدك على مصادر غير موثوقة أو هدامة أو مخالفة لأفكارك وثقافة مجتمعك! ومن يدري فقد تتأثر ببعض أصحاب هذه التوجهات على اختلاف مشاربهم وأنت لا تدري!

-لا، لن أتأثر لأنني حصّنتُ روحي منذ عهد طويل، فصارت لنفسي من المناعة ما لا تستطيع أن تحترقه جرائم التوجهات المتصارعة في

حياة البشر. ولن تحترق هذه الجراثيم إلا من كان سقيم النفس، ضعيف الإرادة، تحذر عقله الغرائز، وتغذي نفسه المصالح، وتقيّد فكره أفكاراً مسبقةً ضربت بجذورها في أعماقه، فلم يعد باستطاعته التخلص منها. وإنّك إن نزعت منه هذه الأفكار، فكأنما نزعت منه روحه التي لا حياة له من غيرها. أني لا أنظر إلى ما أقرأ بعين العواطف والميول والغرائز كما يفعل كثير من الناس حولي، وإنما بمجهر العقل. ومجهر العقل في منتهى التطور والدقة والكمال، نرى به الأشياء حتى ما كان صغيراً دقيقاً منها لا تبصره العين المجردة، ونرى به الأشياء واضحةً كما هي في الطبيعة، بكل أجزائها وتفصيلها. أني قطعْتُ عهداً على نفسي ألا انجرف خلف هذه التيارات المتناحرة، المتدفقة في العالم من حولنا. واعلمي أني حتى إذا زلت قدمي ووقعت خطأ في مياهاها العكرة، فإنني سأعرف السباحة فيها، وسأشقُّ طريقي بين أمواجها، وسأعثر حتماً عن سبيل الخلاص من جاذبيتها، والإفلات من قبضتها.

أجل، يا صديقتي، فقد اخترت سبيلي منذ أمد طويل، ولن أحيّد عنه ما حييت. فلا أنا مع هذا ولا مع ذاك، ولستُ أفضل هذا على ذاك، ولا أدعم ذاك على حساب هذا، وإنما مع ما يراه العقل، ويقبله

المنطق، ولم يجد عن سبيل المحبة والإنسانية، حتى وإن تعارض مع شخصي وتفكيري وما ورثته من أفكار. لشد ما سئمت قراءة مقالات مقيدة بتوجهات مفكرها، وملونة بألوان حججهم الواهنة. لقد صار هؤلاء، لكثرة تقيدهم بتوجهاتهم الضيقة، يكرّرون أنفسهم في مقالاتهم الواحدة تلو الأخرى وهم لا يدرون.. مقالات على الرغم من كثرتها، واختلاف أحجامها، وتنوع عناوينها، وتعدد مناسباتها، فإنها تنحصر في فكر واحد، وتصب في بحر واحد.. فقد مقالات متشابهة في مضمونها ومنهجها ولهجتها وغايتها.. فقد صرْتُ كلما رأيت مقالة لأحد هؤلاء أدركت مسبقاً ما سيقوله فيها قبل قراءتها، وما أخطأت قط في ذلك! وكيف أخطئ وهي مرآة تنعكس عليها صور توجهاتهم! هذه التوجهات، يا صديقتي، أشبه بتذكرة سفر بلا عودة، أو رحلة إلى المنفى بلا رجعة، فمن سلك سبيل المنفى هذا لن يعرف العدول عنه والرجوع إلى مواطن الحكمة والروية. والتوجهات أشبه بالمخدرات التي إن أدمنها المرء بات من الصعب عليه أن يقلع عنها. فما أسهل إدمانها، وما أقوى مفعولها، وما أصعب الإقلاع عنها! وهي أيضاً أشبه بهذا الكوكب الذي نحيا على سطحه. فإن كانت للأرض جاذبية تشد الأجسام

إليها، فإن للتوجيهات أيضا جاذبية تشد الكتاب والمفكرين إليها، فيخضعون لنظامها، ولا يعرفون التخلص منها. هذه التوجيهات، يا صديقتي، شبح رهيب ينتاب النفوس الضعيفة منا، فيخدّر حواسها، ويشلّ حركاتها، ويحبس فكرها في قفص ضيق لا تعرف الخروج منه. والغريب العجيب والطريف في كلّ هذا أنّ أصحاب هذه التوجيهات لا يدرون أنهم محدودو الإرادة، مشلولو الفكر، مقيدون في سجون ضيقة شاركوا في بناء أسوارها وحبك قضبانها بأيديهم!

إني اخترت الحياة خارج هذه الأقفاص الضيقة الكثيرة. وإني اخترت التخلص بفكري من كلّ هذه القيود والسمو عاليا إلى ما وراء الأفق الأزرق والتحليق عاليا في الفضاء. وإني من هذا الفضاء الطاهر، صرت أبصر ما لا يبصره غيري من البشر، وصرت أرى كلّ شيء بمنظار مختلف.. أراه كما هو في طبيعته وليس في شكله المزيف، وأراه كما قدّر له أن يكون وليس كما أردته أنا أن يكون. إنها عالمان متجاوران مختلفان مختلفان الليل والنهار، والعبودية والحرية، والدنس والطهارة، والقشرة واللب، والحدق والحب... عالم يحيا تحت هذا الأفق الأزرق، يشلّ أذهان الكتّاب والمفكرين، ويحبس

أرواحهم في أقفاص صغيرة، ويملي عليهم ما يكتبون ويقولون.. وعالم يسبح بعيداً خلف هذا الأفق الأزرق يشل عواطفهم وميولهم ومصالحهم، ويجرّر تفكيرهم، ويضفي على أعمالهم وأحكامهم أسمى درجات الطهارة والصفاء والحكمة والصدق.

أيّ مصداقية، يا صديقتي، في كتابات لا نكتبها بحرية؟! وأي مصداقية في كتابات لا يملئها علينا العقل والمنطق وإنما الغرائز والميول والتوجهات المتصارعة صراع الحيوانات المفترسة؟! وإن كان العقل يميزنا من سائر الحيوانات في الطبيعة، وسمحنا لغرائزنا بالاستحواذ على ذاتنا وإدارة سلوكنا، ألا نكون قد حكمنا على أنفسنا بالتزول من الحضارة إلى الخطيرة والحياة في مملكة الحيوانات؟! ثم، أي مصداقية في توجهات، رغم تنوعها واختلافها، تشترك كافة في كونها أحادية التفكير، أنانية، همّها مصلحتها، ومصلحتها قبل مصلحة البشرية وهموم الدنيا ومشاكل الإنسان والمبادئ الإنسانية؟! لا، لا، لن أكتب وأنا مقيد بمثل هذه القيود ما حييت! ولن أكتب أبداً بإرادة غيري وإنما بإرادتي، وحسب ما يمليه عليّ عقلي وحسب قناعاتي! فالحرية من شروط الكتابة.

-أنا مثلك أقدّس الحرية ولا أتصور أنني أستطيع أن أكتب شيئاً

من غيرها. ما أروع الحرية.. الحرية هي الغذاء الذي تقتات به مخلقتنا، والهواء الذي تتنفسه أنفسنا، والنبض الذي تحيا به أرواحنا.

-تماماً! أرى أنه يجمعنا إيمان راسخ بالحرية وبقداسة الحرية وأهمية الحرية في الحياة والكتابة.

الإبداع يا صديقتي يعتمد على الخيال، والخيال يحتاج إلى الحرية. فلا خيال بغير حرية، ولا حياة لإبداع من غير خيال ومن غير حرية. وإني يا صديقتي لشدة إيماني

بأهمية الحرية للإبداع كتبت يوماً في إحدى مقالاتي: «الإبداع يستمد روحه من الخيال، والخيال لا يقبل أن يقيد بقيود. والإبداع يحب كل ما هو طبيعي تلقائي، ولا يحب التكلف والمبالغة بغير حدود. والإبداع مثل الشجرة. فإن كانت الشجرة تحتاج إلى فضاء لتُغصن وتُبرعم، فإنّ الإبداع أيضاً يحتاج إلى فضاء لينمو ويتبلور. وإن كانت الشجرة تحتاج إلى ماء لكي تبقى على قيد الحياة، فإنّ الإبداع أيضاً يحتاج إلى ماء. وماء الإبداع ينبع من أفكارنا وخيالنا. والإبداع مثل الشجرة، إن كان يحيا بالماء فإنّه قد يموت من كثرة الماء.

ومن يسعى لتقييد إبداعنا فهو كمن يسعى لتقييد الهواء في السماء،

أو كَمَنْ يسعى للسباحة ضد تيار مائي متدفق، وذلك أبعد ما يكون عن المنطق. فإن قال لي قائل: لماذا تجرأت وكتبت ما كتبت؟ قلت له أني! أكتب كما أردت أنا وليس كما أردت. فهذا أنا وليس أنت. فإن مانعت، خذ قلمي واكتب به أنت ما شئت.»

-الله، الله على الكلام الراقي الجميل! وصفك هذا في منتهى البلاغة والأناقة والحكمة! لست أجاملك إن قلت أني! حقا منبهة بما تكتب! بوركت أستاذي القدير! لكن قل لي.. أنت إذا دخلت دنيا القلم من باب المقالة الأدبية والقصة القصيرة، وماذا عن الأشعار والخواطر؟ أظني شاهدت بعضها في منشور لك من قبل؟!

-هذا صحيح يا صديقتي العزيزة. لكن ما كتبتُه من أشعار وخواطر كان قليلاً ووجيزاً وكان كلّه من خلال رسائل حبّ عفوية صادقة بعثت بها إلى فتاة تيمني حبّها وأضرم في قلبي نار الشوق والحنين، وفجّر في نفسي بركان الحيرة والأنين. أما أنتِ يا عزيزتي، فقد سلكتِ إلى دنيا الكتابة طريقاً غير طريقي، فوجتِها من باب الشعر كما ذكرت. وإني! أتساءل من باب الفضول لماذا الشعر بالذات بدلا من القصة القصيرة أو أي لون من الألوان الأدبية أخرى؟!

-والله أثرتُ الشعرَ على بقية فنون الأدب لأنه في نظري صدرُ
حنون أرتقي فيه في ساعة الضيق والكرب، فيكشف غمّي، ويشحذ
عزمي. إنه لعمرى نبراس أهتدي به في الظلام، ودواء أسكنُ به
آلامي. واليوم وأنا أحيا بعيدة عن حضن الأوطان الدافئ أراه
رداء ناعما دافئا يقيني من الريح والمطر، والصقيع والقرّ، في أرض
المهجر.

- بالتأكيد آنسة وفاء. ما أحوجنا في هذه الديار إلى شيءٍ دافئٍ مريحٍ
يسلّينا ويواسينا ويشغل بالنّا عن هذا الطّقس القارّ القاتم المحيط
بنا في هذه الجزر!...

ويترى هنيهة ثم يتابع متحسرا:

-لم ذكرتني الآن بالمناخ البارد في هذه البلاد يا صديقتي بعد أن
غاب عن بالي في غمرة الحديث الشيق الدافئ معك؟! لم ذكرتني
به؟!!

آه! لشدّ ما أفتقد أشعة الشمس الذهبية الدافئة! لا أكاد أذكر آخر
مرةً شاهدت فيها الشمس مشرقة في سماء هذه المدينة الكثيبة!..

- لا بأس يا صديقي، فهذا المناخ قدرنا. فنحن اليوم نحيا في ظله. وما جدوى نكرانه أو تجاهله أو الهروب من الواقع الذي نعيش فيه! لا مفرّ لنا من مواجهة الحقيقة وتقبّل هذا الواقع! فنحن فيه وهو فينا، يبيثُ البردَ في أجسادنا، ويرسم غشاوة الكآبة والتشاؤم أمام أبصارنا، وينشر غيوم الشجن والغم في أنفسنا. إنه، لسوء حظنا، مناخ تبتّس نفوسنا له، ولا مناص لنا منه. إنّنا لا نرى هنا غير المطر والسحاب والضباب. لا الربيع في هذه الأوطان ربيع، ولا الصيف صيف! وأي صيف هذا الذي لا نرى في ليله ضياء القمر والنجوم، ولا نستفيق في صباحه إلّا على سماء رمادية ملبّدة بالغيوم! أي صيف هذا الذي نرتدي فيه المعاطف والقبعات الصوفية ونحمل فيه المظلات الواقية من المطر! وأي صيف هذا الذي لا نعرف فيه الاستجمام في الحدائق الجميلة القريبة منا، أو الاستمتاع بالشواطئ الساحرة المحيطة بنا!

- صدقت عندما قلتِ إنّهُ قدرنا! هكذا هو مناخ هذه الجزر التي قضت الأقدار أن نصرف بقية أعمارنا فيها! ما أغرب الزمان! بالأمس كانت بريطانيا البلاد التي لا تغيب عنها الشمس! فقد اكتسحت أساطيلها البحار والمحيطات، واجتاحت جيوشها

البلدان والقارات. فرحبت مساحتها، وجّمت ثروتها، وعظمت قوّتها. فمدّت الشّمس أطناها عليها ولم تعد تفارقها. وتجري الرّياح بما لا تشتهي السفن. فما لبث أن انفجرت براكين الثّورات في كلّ أرجائها. أمم ثارت في سبيل استرجاع حرّيتها وسيادتها وحقّها في الحياة، فعصفت بقواتها وتحرّرت من قبضتها. وإذا بأكبر إمبراطورية في الدنيا تتقهقر وتنهار. وشيئا فشيئا تقلّصت رقعتها فأمست أرخبيلاً صغيراً قاراً، لا تشرق الشمس فيه إلا نادرا. وما أغرب الحياة! تأبى أن تكون عادلة في تعاملها مع البشر! ففي الوقت الذي تتهاطل فيه الأمطار في الجزر البريطانية، بلغني البارحة أنّ الجزائر تشهد موجة حرارة غير عادية وهي في مطلع فصل الصيف!

-والله نفس الأمر في لبنان! فدرجات الحرارة عندنا شهدت ارتفاعاً رهيباً هذه الأيام! إنّ ذلك بلا ريب من تأثير الاحتباس الحراري، والأمر يسوء سنةً بعد سنة! فالغازات السّامة الرّهيبية ما انفكت تتصاعد في سماء المدينة من معاملنا وعرباتنا ومراكبنا، فتساهم في اختلال توازن نظام المناخ في بيئتنا. ثمّة فجوة رهيبّة فوق رؤوسنا! طبقة الأوزون التي تحمي غلافنا الجوّي في انهيار مستمر! تصوّر

أنها الآن تجاوزت مساحة ٢٦ مليون كيلومترا مربعا! فبالله ما الذي نتوقعه بعد كل هذا الدمار الذي لحق الوسط الذي نعمره؟!

-صدقت! فمثل هذه التأثيرات يفضي قطعاً إلى مثل هذه الاضطرابات الشديدة! لا أدري إذا كنت تذكرين السيول الجارفة التي اجتاحت إنجلترا قبل سنوات قليلة فقط؟

-لا، والله. هلاً ذكرتني؟

-بالطبع! كان ذلك في صيف سنة ٢٠٠٧. ففي شهر يونيو من تلك السنة، نزلت على مناطق كثيرة بإنجلترا، خلال ٢٤ ساعة فقط، كميات رهيبة من الأمطار فاقت مقدار ما ينزل فيها خلال شهر كامل! ولم تتوقف الأمور عند ذلك الحد، فقد تواصلت هطول الأمطار بلا هوادة خلال الشهر التالي يوليو ليزيد الطين بلة. فعمّت الفيضانات ذلك المكان، وامتلك الهلع السكان. فاقتضى الأمر تدخل قوات الجيش البريطاني لأول مرة في عهد السلم إغاثة للمنكوبين، وإنقاذاً لممتلكات المواطنين.

وها هي الفيضانات تعصف بالجزر البريطانية من جديد، بلا رحمة! لعمرى أشعر كما لو كنا محاصرين في هذه الديار البعيدة: الفيضان

أمامنا والبحر خلفنا، فأين يا ترى المفرّ من غضب الطبيعة وتقلبات
الدهر؟

- الأمر مفزعٌ وعجيب! الأرض في هذه الديار لكثرة الأمطار تغرق،
وفي بلادنا لشدة الحرارة تحترق! وبين القرّ والحرّ، أين المفرّ؟!

- لا مفرّ من هذا المناخ يا صديقتي، ولا مفرّ من مشيئة القدر. وكما
ذكرت قبل قليل، فهذا المناخ قدرنا الذي لا مفر منه ولا سبيل إلى
نكرانه. وإنّ الواقع الذي لا بد من تقبّله والعيش فيه، بكل فوائده
ومساوئه.

وعن نفسي، أشعر أنّ القدر قد رسم لي على صفحات كتابه سيلاً
لن أعرف العدول عنه، وقادني في تلك الطريق إلى هذه الديار
ورماني في قفص من ذهب لن أعرف الخروج منه.

صحيح أنّي في هذا القفص سجين. لكن ما أنا سجين فيه إلّا
بالجسد، فبروحي ما زلت حرّاً طليقاً، أتسلّل بين قضبان القفص،
فأمضي في طريقي إلى الأوطان الدافئة. فأحلّق فوق سهولها وجبالها،
وأحطّ على أغصان بساتينها، وأنزل بباحات منازلها، فأستأنس إلى

أهاليها، قبل أن أقفل إلى هذه البلاد البعيدة، بلاد الضباب والغيوم
والأمطار.. وإلى هذا القفص الذهبي الذي حبستني فيه الأقدار.
وإنني سأظلّ وفياً لتلك الأوطان، حتى وإن ضربها القحط والتهبت
فيها النيران، أو عبث بها الزمهرير وأغرقها الطوفان.

وإن كنتُ بجسدي وبجزء كبير من ثقافتي وأفكاري أنتمي إلى هذه
الديار، فإني بروحي وشعوري ما زلت أنتمي إلى تلك الأوطان.
تتقد نفسي شوقاً إليها، فأرحل بخيالي إليها وأرتمي باكياً في حضنها
كما يرتمي الطفل الرضيع في حضن أمه.

(٥)

ها هو الليل يرخي سدوله على أرجاء المدينة. يقف خالد عند النافذة، ينظر إلى الحديقة الغارقة في الظلمة والسكون. وإذا به يغرق في بحر التأمل ويهيم على وجهه في بידاء الأفكار والهواجس. ويستيقظ بغتة على وقع نغمة على هاتفه المحمول. إنها رسالة جديدة من وفاء بعد نحو أسبوعين من الانقطاع:

-صديقي العزيز خالد،

عجيبة هي الحياة! لا ندرك فيها قيمة الأشياء إلاّ بعد ضياعها منّا، ولا قيمة الأشخاص إلاّ بعد رحيلهم عنّا، ولا قيمة الأوطان إلاّ بعد تغرّبنا عنها وبعدّها عنّا. وكأنّ القرب منها ضبابٌ يحجب عنّا أشعّتها. أو كأنّ البُعد عنها منظرٌ، به نرى صورتها، ونتبين طبيعتها!

لكم سمعتُ المجتمع من حولي يردّد عبارة «ما هو بعيد عن العين بعيد عن القلب»! وإني لِشَدّة ما سَمِعْتُهَا صدّقْتُهَا، ورسختُ في أعماقي كلماتها، وآمنتُ بها إيماني برَبِّ الفلقِ، إلى أن رمتني الأقدار في ديار الغربة بعيدا عن الأوطان. فمع أنّه مرّ على رحيلي منها اليوم أعوامٌ إلّا أنّي ما زلتُ منصهرة فيها، متّصلة بها بدمي ووجداني وذاتي، اتّصال الحنين بأمّه، بحبل السرة.

وإني اليوم لا أجد بداً من أن أقول لبلادي والدموع تنهال على خدي: «لَكم أحبّك يا بلادي! أحبّك حبّاً ليس قبله ولا بعده حبّاً! أحبّك وحدك، ولن أحبّ في الكون سواك! أحبّك وأحنّ إليك وأنا في غربتي بعيدة عنك! وإني حتماً سأصلي نارَ الحنين، وأُسقي من عين الأين حتى أعود إليك، وأرتمي في حضنك، وأنعم ثانية بدفئك، وأرتوي من حنانك! أجل! لَكم أحنّ إليك، وإلى هوائك، وصيفك، وضجّة شوارعك، وزحمة طرقاتك، وصخب وسائل نقلك، وفوضى أسواقك، وكلّ شيء فيك! وإن كنتُ لا أطيّق حرارة صيفك الشديدة فإني سأحتمل ذلك لأجلك ولأجل المكوث بجوارك، والاستمتاع بقربك!»

- ما أعذب كلامك! وما أعظم حنينك إلى الأوطان صديقتي
 الفاضلة وفاء! في هذه الحياة، يا صديقتي، لا يشعر بقيمة الأشياء
 إلا من فقدوها، ولا يشعر بقيمة الأوطان إلا من رحل عنها
 فاقتدها، ولا يشعر بما تشعرين به من ألم وغم وحسرة للبعد عن
 الأهل والأحبة والأصدقاء إلا من عصفت به رياح القدر بعيدا
 عن الديار ورمت به في بحر الغربة تتقاذفه أمواج الحنين والأنين
 مثلي ومثلك. ومثلك تماما، طالما آمنت بأنَّ البعيدَ عن العين
 بعيدٌ عن القلب إلى أن وطأت قدمي ديار الغربة، وصحوت من
 غفوتي، وتذكرت مهد طفولتي. فأدركت آنذاك أني صرت أحسنَّ
 إليه وأحبه أكثر من أي وقت مضى من عمري. سنوات طويلة
 من الفراق، يا وفاء، لم تستطع أن تقطع هذا الحبل الوثيق الذي
 يربطني بوطني.. وضباب لندن الكثيف لم يحجب عني شمس
 الجزائر الدافئة التي ما زلت أراها تسطع أمام بصري من خلف
 الضباب والغيوم الداكنة!.. وبعد كل هذه السنوات يبقى حبُّ
 الوطن شعوراً راسخاً في النفس، لا يشوبه عكرٌ أو دنس، فهو شيء
 من ذاتي، وجزءٌ من حياتي، وسيظلُّ حاضراً في كتابتي، في غُربتي،
 حتى ملكاتي. أشعر يا صديقتي أن نار الحنين إلى الأوطان ستظل تتقد

في ذاتي حتى وفاقي.. أشعر، يا صديقتي، أن الزمان قد زجني في سجن هذه الديار، وإني سأمضي بقية العمر مقيدا في غياهب هذا الأسر.. شعور غريب يتتابني أني لن أنعم بالحياة ثانية في الشرق تحت أشعة الشمس الدافئة، وأني سأصرف بقية حياتي في الغرب تحت هذه الغيوم الداكنة الكثيفة، تتساقط منها قطرات المطر كأنها دموع حزينة تنهال من عيون الطبيعة، فتبلل وجهي وتمتزج بعبرات الشجن والأين المتساقطة من عيني.. ومهما كان، فإني سأعود يوماً إلى حضن الوطن للاستقرار، وأنداك لن أعود إليه على قدمي وإنما في الكفن والتابوت بعد موتي.

-أبعد الله الشرّ عنك يا صديقي! لكن قل لي: طالما سمعتك تعاتب القدر كما لو كان القدر هو الذي يمنعك اليوم من العودة إلى الأوطان! ما أكثر المهاجرين الذين يعودون إلى أوطانهم كل عام. ثمة لاجئون لبنانيون استقروا في بريطانيا طويلاً بعد اندلاع الحرب الأهلية في لبنان واليوم وبعد استقرار الأوضاع رجع بعضهم للعيش في الأوطان. فتح بعضهم محلات، وأنشأ بعضهم شركات، ويحيا بعضهم من مرتب المعاش يتقاضاه من بريطانيا أو دول أخرى. بلا شك نملك جميعاً شيئاً من الإرادة والحرية.

- ما أكثر ما يخادع الإنسان نفسه معتقدا أنه حرّ في تصرفاته، يتخذ قراراته بملء إرادته! إنه في ذلك أشبه بمن ينظر إلى القشرة ويترك اللباب الذي لا يقع تحت حواسه! فمن يقوى على كسر القشرة والنفاذ إلى الأعماق يرى حتماً أنّ الإنسان في واقع الأمر يخضع في سلوكه لجملة من المؤثرات من معتقدات وميول ورغبات ومصالح، تصقل أفكاره وترسم له مواقفه، وتُملي عليه أفعاله. فما يملكه البشر من حرية التصرف محدود للغاية يا وفاء.

وعلى ذكر هؤلاء المهاجرين الذين يشدون الرحال إلى الأوطان، ليأصدقاء سلكوا هذا السبيل أيضاً، وكلما سألت أحدهم عن سبب الرحيل عن هذه الديار التي في يوم ما حلمهم الأكبر وضخوا بالنفس والنفيس في سبيل الوصول إليها وطلب الحياة فيها، وقد وفّرت لهم الأمن والسلام والاستقرار والرفاهية طويلاً، قال «خوفاً من انحراف الأولاد عن القيم الدينية، والتأثر بالثقافة الأوربية، والانصهار في الحضارة الغربية». ومن هؤلاء صديق حميم عرض شقته للإيجار وعاد إلى أرض الوطن قبل أشهر قليلة. عانقني في ساعة الرحيل وقال لي بصوت متأثر: «أنا أعلم أنّي سأفتقدكم جميعاً وسأفتقد هذه المدينة العظيمة وما ألفته فيها من عيش رغد

ورفاهية وحرية.. وإن كنتُ برحيلي سأفقد الكثير، إلّا أنّي في المقابل سأكسب أسرتي وهذا بالنسبة لي مكسب كبير. وصلتُ إلى هذه الديار قبل عشرين سنة وكنت آنذاك أعزب واليوم تغيرت الظروف.. فأنا متزوج ولي بنات. لا أريدهن أن ينشأن في مثل هذا المحيط الغريب عن ثقافتنا الإسلامية. هذه المجتمعات يا صديقي تمنح المرأة حرية مطلقة لا تليق بنسائنا! كيف يمكننا التحكم في بناتنا في مجتمعات لا تفرّق بين الذكر والأنثى، ولا تؤمن أنّ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض!.. وكيف نغرس في نفوس بناتنا الروح الإيمانية والتقوى وغض البصر عن الفحشاء والمنكر في مجتمعات تبيح الجنس والميول المثلية! وأين هي الصحة الطيبة والرفقة الصالحة لبناتنا بين كلّ أجناس الدنيا المحيطة بنا! لا، لا يحق لنا أن نفكر في أنفسنا، فنحن سنحاسب يوما على أفعالنا وعلى تربيّتنا أولادنا! لا بد أن نحسن تربية بناتنا وفقا لشريعتنا الإسلامية...»

فأي حرية هذه، يا وفاء، يا صديقتي، إن كانت العقائد والرغبات والهواجس هي التي تغذي تفكيرنا، وتُملي علينا قراراتنا، وترسم مسرى حياتنا!!

لا، لا، لم يكن صديقي حراً بقراره الفرار بأسرته من هذه الديار وفرضه هذا القرار على أبنائه وبناته وإنما كان في ذلك مقيداً بأغلال العقيدة والهواجس، تتلاعب بمشاعره وتفكيره كما تشاء، وتؤثر في سلوكه كما تشاء، وتقلي عليه ما تشاء، وتعبث بمستقبله ومصير بناته كما تشاء، وما عليه إلا الإذعان لها والانصياع لأمرها!!

وإن كنت تحالفيني الرأي وترين في تصرفه شيئاً من الحرية، فهل من العدل أن يستغل حريته لسلب حرية بناته وحقهن في اختيار سبيلهن في هذه الحياة؟! وهل من العدل أن يجرمهن من فرص الدراسة واكتساب العلوم والمعارف والتنافس على أرقى المهن في مجتمع نشأ في أحضانه، وهو اليوم من أرقى أمم الدنيا؟! وهل من العدل أن يرغمهن على السير على دربه واتباع سبيل مجتمعه؟! غريب هو الإنسان، إن حدثته عن الحرية، أسرف في وصف محاسنها وذكر حاجته إليها، وإن حرمتها منها بكى واشتكى وأقام الدنيا وأقعدها لأجلها، وإن بسطتها بين يديه أساء فهمها واستخدامها، فجعلها سلاحاً يقتل به حرية الآخرين!

-والله دوختني بكلامك هذا أستاذ خالد! إن لم يكن التصرف بملء الإرادة حريةً، فما هو مفهوم الحرية إذًا؟!

-الحرية يا صديقتي أعظم من أن من تنحصر في مفاهيم ضيقة امتلأت بها الكتب والمعاجم.. فما أكثر أن نقرأ أن «الحرية هي القدرة على اتخاذ القرار...» وما أكثر ما يتردد على مسامعنا أن «الإنسان الحرّ هو من لم يكن عبداً أو أسيراً».. هذه المفاهيم القديمة، يا صديقتي، تنظر إلى الجسد ولا تنظر إلى الروح.. وتنظر إلى قشرة الجوز ولا ترى اللبّاب الكامن بالداخل وراء ذلك الغلاف اليابس المحيط به.. وتنظر إلى الإنسان على أنه جسدٌ مجرّد من الروح التي تحيا فيه وتتغذّى بأفكار المجتمع من حوله. وقد تثبت فيه هذه الأفكار والمعتقدات كما تثبت المسامير في الخشب الصلب والجدران المتينة فيستعصي بعد ذلك إقلاعها..

وحسب هذه التعريفات البسيطة، يا صديقتي، يكفي هذا الجسد أن يكون قادراً على اتخاذ القرار والحركة وألا يكون في عبودية أو أسرٍ ليعتبر حرّاً. لقد نسيت هذه المفاهيم، يا صديقتي، أن للحيوان أيضاً جسداً! ونسيت أن الحيوان أيضاً يكره الأسر، وقد يعبرُ فيه عن ملله وحزنه وغيطه، وقد يثور على وضعه ويتنقم من صاحبه! ونسيت أن الحيوان هو أيضاً يستطيع أن يختار سلوكه كما أشار إلى ذلك أحد مؤلفات دار نشر جامعة أكسفورد سنة ٢٠١٢!

لا، لا، ليست هذه هي الحرية بمفهومها الصحيح!.. الحرية، يا صديقتي، أعظم وأرقى وأطهر من أن تُلصق في هذا الجسد الضيق الذي تحركه الغرائز والميول والعقائد والأحلام والطموحات والأوهام وترسم مساره وتحدد خطواته..

لا، لا، ليست هذه هي الحرية بمعناها الصحيح!.. الحرية، يا صديقتي، لا تكبّل بأغلال المجتمع، ولا تقيد بأحكام العقل، ولا تكون حيث الملذّات والرغبات والأهواء، ولا تجتمع والهواجس والأوهام والمصالح مثلما لا يجتمع النور والظلام، والجلاء والخفاء، والطهارة والقذارة، والذكاء والغباء، والحكمة والتهور، والعلم والجهل..

لا، لا، لن يدرك الإنسان هذه الحرية إلا إذا تحررت روحه من هذا الجسد الجشع وتطهرت من رجس المصالح والأحقاد ونزّت به إلى ما خلف هذا الأفق الأزرق حيث الصفاء والعفوية والصدق والمحبة. فهذا الذي يعود إلى الأوطان باسم الدين ليس حراً وإنما مقيداً بأغلال العقيدة، وذاك الذي يقطع البحار ويحتمل كلّ ما يلقيه في طريقه من متاعب وأخطار في سبيل العيش في المهجر ليس

حرا هو الآخر وإنما مكبّل بسلاسل الأحلام والرغبات والطمع في حياة أفضل.

-لكن أستاذي الحكيم، على ذكر عودة المهاجرين إلى الأوطان، ما الذي يمنعك أنت شخصياً من ذلك، وقد قلت أكثر من مرّة إنك دوماً تحن إلى وطنك، وترحل إليه بوجدانك؟

-غريبة هي الحياة، تعصف بنا أمواجهها خارج ديارنا، فتقذفنا على هذه الشواطئ البعيدة التي لم نحلم قط أن نستفيق يوماً على رمالها!.. وما أصعب أن ندرك اليوم أنّ تلك الأوطان التي رأينا نور الحياة بين أحضانها، واستقينا من حنانها، لم تعد لنا! وما أصعب أن ندرك أنّها رغم البعاد تسكننا ونحن لا نسكنها، وقد نغيب عنها مدى العمر!!

لقد فات الأوان، يا صديقتي، بعد كلّ هذه السنوات من حياتي في ديار الغربة!.. لقد فات الأوان، فقد حبستني الأقدار في هذا السجن، ولم يعد لي خيار!.. لقد فات الأوان، فقد أمسيت اليوم مرتبطاً بهذا السجن الكبير بجسدي ارتباطي بالأوطان بوجداني!..

ما أضخم هذا السجن يا صديقتي! فهو أعظم من كلّ سجون الدنيا، وما أكثرها! رأيت يوماً سجناً في حجم وطن يا وفاء! رأيت يوماً سجناً في حجم الجزر البريطانية مجتمعة، تمتد في ربوعه السهول، وترتفع فيه الجبال، وتجري من تحته الأنهار، وتحيط به البحار! وما أفخم هذا المكان! رأيت يوماً سجناً في شكل قصر فخم، قصبانه من الذهب الخالص، وجدرانه مرصعة بالجواهر!.. سجن زناناته شقق فاخرة فيها فرش وثيرة، تحيط بها بساتين مزهرة مخفوفة بأشجار باسقة، تنساب فيها أنهار رقراقة! والآن يا صديقتي، أخبريني.. هل رأيت أحداً قط تحلّى بملاء إرادته عن العيش في قصر فخم، منقطع النظر، ليحيا بعد ذلك في كوخ بائس، حقير؟!

لا، لا، لن أخادع نفسي! فالعيش ملكاً معزواً في بلادٍ غريبة لخير وأهون من العيش عبداً مستضعفاً في بلادٍ حبيبة.

لقد فات الأوان، يا صديقتي، فقد مكثتُ في هذا السجن طويلاً، فتعودتُ الحياة فيه كثيراً حتى أنني صرتُ أشعر بالغربة وأنا بعيد عنه في أرض الأوطان بين الأهل والأصدقاء والأحباب. فأنا،

لسوء حظي، لم أعد أرى ما يرون، ولا أسمع ما يسمعون، ولا أشعر بما يشعرون، ولا أفكر كما يفكرون أو فيما يفكرون. وهل ثمة غربة أصعب وأبشع من الغربة التي يشعر بها المرء في بلاده وبين أهله وذويه!

لقد حكم عليّ الزمان بالانشطار إلى جسد يُرزق في بلاد الغرب وروح تسبح بعيدة عنه في أجواء الشرق. وسيعود جسدي حتماً إلى الأوطان يوماً لتتناثر أجزاؤه في ترابه، وتمتزج به، فهي منه وإليه. أما روحي من بعد رحيلي فستسبح عالياً عنه في الفضاء خلف هذا الأفق الأزرق حيث تحيا حرة طليقة للأبد، أرواح ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران وأمين الريحاني وكل روح من الأرواح المتمردة، التي أبت أن تنساق في مجرى التوجهات المتصارعة والأحكام المتناقضة، ورفضت أن تسلك طريق الجدل والانقسام والكرهية، واختارت سبيل الحرية والمحبة والإنسانية..

وأنت يا صديقتي العزيزة، ما سرّ بقائك في هذا المكان، بعيداً عن الأهل والأحباب في لبنان يا ترى؟!

-والله هو شيء واحد فحسب.. الوظيفة.. فلولا ارتباطي بالعمل
لما بقيت في هذه الديار يوما واحدا!

-إلى هذا الحد؟ وما عملك هذا؟

-مدرّسة.

-مدرّسة؟! عظيم! صدق أمير الشعراء عندما قال عنك يوما:
«قم للمعلم وفه التبجيلا، كاد المعلم أن يكون رسولا». وماذا
تدرّسين إذا؟

-أدب عربي في جامعة «وست منستر» هنا في لندن...

-أستاذة أدب عربي! وفي جامعة بحجم وست منستر! حرام عليك
يا آنسة! لماذا لم تخبريني بذلك من قبل!

-حرام عليّ؟! لماذا تقول ذلك؟!

-أقوله من باب حاجتي إليك وإلى خدماتك! أجل، يا وفاء، يا
صديقتي! لكم بحثٌ عن شخص في مثل مهنتك ومقامك! نعم،
لطالما بحثتُ عنك! وما أحوجني إليك!

- ما أحوجك إليّ أنا؟! عمّا تتحدث، فإنّي لا أفهم شيئاً!

- كنتُ دوماً أبحث عن شخصٍ مخلصٍ يعينني على مراجعة روايتي قبل نشرها! فإنّي سأكون من الشاكرين إن تكرّمت بمساعدتي بقدرٍ ما!

- بالتأكيد! بالتأكيد! لكن، أتأذن لي بسؤال من باب الفضول فحسب؟

- أكيد! تفضّلي أستاذة!

- ما الذي منعك من إيجاد من يساعدك على مراجعة عملك من قبل؟ فمنابر التواصل الاجتماعي تعجّ بأهل اللغة والأدب! فقد نظرتُ إلى قائمة أصدقائك من قبل من باب الفضول، فلمحت مجموعة غير قليلة من الشخصيات الأدبية والفكرية الراقية، ومن أصحاب المؤهلات الأدبية العالية! لحظة أرجوك لأستعرض صفحتك على شاشة الجهاز أمامي!...

- طبعاً، طبعاً! تفضلي!

تستمسك وفاء عن الكتابة هنيهة ثم تتابع:

- احمم!.. أرى أنّ لك صديقة أستاذة بكلية الآداب بالدمام بالعربية السعودية، وأخرى بكلية الآداب بجامعة دمشق بسوريا! وأرى نخبة من خريجي معاهد الدراسات الأدبية من مختلف الدول العربية، فضلاً عن طلبة الأدب العربي في كلية الآداب في جامعة بسكرة وسطيف وجامعات أخرى! فلا تقل لي، بعد كلّ هذا، إنّك لم تجد من يعينك بين كلّ هؤلاء الأصدقاء الأدباء!

- ماذا أقول لك أستاذة وفاء؟! والله التمسست المساعدة مراراً وتكراراً بشتى الطرق. نشرتُ إعلانات على صفحتي، ولما لم ألق منهم رداً، سعيت للاتّصال بنخبةٍ منهم عن طريق رسائل خاصة. عندئذ، وعندئذ فقط بلغني ردّ بعضهم...

- قلتُ لك! من الطبيعي أن تجد من يساعدك بين كلّ هؤلاء الأصدقاء المثقفين! إذا سألت وجدت!

- تريثي ولا تستعجلي الأمر يا عزيزتي، فالأمر لسوء حظي لم يكن كما تتصورين!

-آسفة! تفضّل أستاذ! لن أقاطعك ثانية!

-قلتُ إنه في آخر الأمر عندما راسلتهم، ردّ عليّ بعضهم وتطوّع رهطٌ منهم لمساعدتي، فاغتبطت واستبشرت خيراً ويمناً. وما لبثتُ أن سلّمتهم فصولاً من روايتي، فشعرت بالاطمئنان والراحة. وتوالت الأيام والليالي وما زلت أترقّب اتّصالاتهم دون جدوى. فخاب ظني، وانغلب أمري!

-وما الذي منعك من الاتصال بهم والاستفسار؟! لم تترقب اتّصالحهم إن كنت أنت في حاجة إليهم؟! لا تدري لعلّ العمل جاهز في انتظارك وقد شُغل هؤلاء بأنفسهم وحياتهم! لن تخسر شيئاً.

-هذا ما فعلته بالتمام! اتّصلتُ بعد أن طال انتظاري وعيل صبري، لكن ما لقيتُ منهم غير الدّرائع الباطلة، والوعود الرّائفة. وما زلت أنتظر حتى اللّحظة دون طائل. لكم تمنيت أن يصارحني هؤلاء من الأوّل بعدم رغبتهم في مساعدتي أو ربما بعجزهم عن ذلك، كي أرتاح وأكفّ عن الانتظار، بدلاً من المماطلة والأعذار!..

- بالتأكيد لا شيء أفضل من الصراحة. أنت لم ترغم أحدا على مساعدتك. فهم الذين وافقوا بمحض إرادتهم. فإن لم يستطيعوا الوفاء بوعدهم، فعلى الأقل يبلغونك حتى تتصرف وتبحث عن غيرهم.

- هذا ما قصدته بالتمام، لكنّه لم يحدث لسوء حظي. ائتمنت أستاذة على عملي وانتظرتُ حتى سئمتُ الانتظارَ من غير طائل، فبدرت إلى مكاتبتها مستفسراً عن مدى تقدّمها في المراجعة وتفاءلتُ خيراً. وإذا بها لم تفعل شيئاً! تحجّجت بضيق وقتها، وتراكم أعمالها، وكثرة انشغالاتها.. أعمال وانشغالات لم تترك لها ولو بعض الثواني تخطّ فيها كلمات قليلة تبلغني بتأخرها! والعجيب في الأمر أنها كانت دائماً تلفي متسعا من الوقت للنشر والتعليق والمشاركة في النقاش في منابر التواصل الاجتماعي، مثلما كنت أشاهدها!.. وكانت تلفي ما يكفي من الوقت للتهجّم على منشوراتي في صفحتي ونقد أفكارتي ومجادلتي وحتى لومي على الإقامة في أوروبا الغربية التي كانت تنظر إليها على أنها «بلاد الكفار»! على ما يبدو، لم يعد أحداً يساعد أحداً دون مقابل في هذا العصر! إنها طبيعة البشر!

وهذا ما جعلني أفكر في عرض أجرٍ أبتاع به سعيهم، وأثير به اهتمامهم، وأستنهض به همّتهم.

-عجيب أمرهم حقاً! ما كنت أتوقع خلقاً كهذا من عامة الناس فضلاً عن نخبةٍ مثقفةٍ! لكن، لا عليك! دعك منهم، ولا تهتمّ! فهذا قد وجدّني أخيراً، لأعوّضك عما فاتك خيراً!

-لا أريد أن أتعبك مع أني أحتاجك!

-لا تقل مثل هذا الكلام ثانية سيّدي الكريم! ولا تعب ولا إزعاج ولا هم يحزنون! هذا واجبٌ منّي لأستاذٍ أحترم قلمه وأقدر جهده! سأهوّن عليك الأمر بإذن الله تعالى! فأرسل لي عمّلك واطمئن.

-غدا بحول الله أبعث لك بالفصل الأوّل. وسأفتش عمّن يراجع بقية الفصول؟

-ماذا تقول أستاذ خالد؟! أنت، بكلامك هذا تغيظني! أتستهين بكفءاتي وتشكّ في قدرتي؟!!

- كلاً، كلاً، أستاذة وفاء! أنى أستهين بقدره مدرّسة بارعة، وشاعرة رائعة!

- إذاً، سلّمني الرواية، ودعني أراجعها من أوّلها إلى آخرها! فيكون لي بذلك شرف الاطّلاع عليها والاستمتاع بها قبل صدورها! أمهلني فقط أياماً قليلة وسأتفرّغ لذلك.

فيردّ خالدٌ مدعناً لأمرها:

- إذاً أمري على الله! سيكون لك ذلك بإذن الله...

(٦)

كان به إلى فحص الرواية قبل نشرها أعظم الحاجة. وفي سبيل ذلك تحمّل أعباء الاتصال بأصدقاء وغرباء في مشارق الدنيا ومغاربها. وحتى لا يثقل كاهل أحد، كان من الضروري أن يقسّم عمله إلى أجزاء. فلم يرسل أكثر من فصل أو فصلين لكل متطوّع.

ومرّت الأيام وتوالى الأسابيع، وما زال ينتظر ردّهم ووعودهم، دون جدوى. فصول روايته التي بعثَ فيها نورَ الحياة من روحه، وسقاها بدمه ودمعه وعرق جبينه، وجدّ وكدّ وسهر الليالي لأجلها، وجدت نفسها في آخر الأمر لسوء الحظ، متفرّقةً، وحيدةً، مبثرةً في سائر أنحاء الدنيا، تتقاذفها وعود الأصدقاء الكاذبة وترميها في آخر المطاف إلى سلّة الجفاء والإهمال.

وها هو اليوم يتنفس الصعداء ويخفق قلبه فرحاً وارتياحاً بعد أن وجد ما كان يصبو إليه بعد طول انتظار. ها هو اليوم يشعر أنه

لم يعد في حاجة إلى هؤلاء البشر الذين ظلوا لعهد طويل يطيبون نفسه بعود لا ينوون بها وفاء. وها هي المساعدة التي التمسها من وراء البحار تأتيه من مكان لم يخطر له على بال! هذه المساعدة التي طلبها من أماكن بعيدة في العالم من غير طائل، ها هي اليوم تأتيه من مكان غير بعيد عنه، ومن شخص يحيا هو الآخر في ديار الغربه بالقرب منه!

يُقبل بكل همّة على جمع فصول الرواية ووضع اللمسات الأخيرة عليها قبل أن يسلمها لهذه الفتاة التي وعدت بالتفرغ لها خلال أيامٍ.

وتتعاقب الأيام والليالي والأسابيع والفتاة لم تتصل به بعد ولو لمجرد التحية أو السؤال عن حاله. وقبل أن يستغرق في السؤال والتفكير، يبادر بمكاتبتها معبراً لها عما كان يشعر به نحوها:

- شيء غريب لا أذكر أنني شاهدت مثله في ماضيّ حدث لي البارحة يا وفاء، وإني لا أعرف له تفسيراً. فبينما كنت أراجع الفصول الأخيرة من روايتي، متجولاً في صفحاتها، منتقلاً بين فقراتها، متأملاً كلماتها، وإذا باسم واحد يسطع في الأجواء، كما تسطع الشمس في السماء،

فيههر ضياؤه بصري، ويحجب عني كلّ الكلمات.. اسم ليس ككل
الأسماء يتراءى لي فيخلب عقلي، ويشغل بالي، ويضعف تركيزي،
ويكسر إرادتي، ويصدني عن مواصلة المراجعة...

ويتراءى له ردّها على شاشة اللوح قبل أن ينهي كلامه:

-وأيّ اسم في الدنيا يستطيع أن يفعل كلّ ذلك؟!

-إنّه اسم «وفاء»...

-وفاء؟!

-أجل، إنه «وفاء»... إنه اسمك يا صديقتي يا وفاء.

-ماذا؟!...

-أرجوك يا وفاء! لا تسأليني ماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟ فأنا حتى
الساعة مختار في الأمر ولا أدري.. ودعيني أبادر أنا بالسؤال: أين
أنت هذه الأيام يا صديقتي يا وفاء؟ وما أخبارك؟ فقد طال عني
غيابك!

-الحمد لله، الحمد لله. شكرا لسؤالك أستاذي الفاضل. ممتنة لمشاعرك الطيبة النزينة. ومعدرة على تأخري في الاتصال، فقد شُغِلْتُ بالامتحانات الجامعية هذه الأيام، وهي امتحانات تتطلب وقتا وجهدا. وإني في بعض الأوقات أتأخر في الجامعة وأعود إلى البيت متعبة. تصوّر أني عدتُ لتوي من الجامعة. دخلت قبل دقائق مرهقة ولم أخلع بعد ثيابي المبلّلة.

-ثيابك المبلّلة؟!

-نعم، أنا الآن مبلّلة من رأسي إلى قدمي! والأمطار كما أرى عبر زجاج النافذة ما زالت تتهاطل!.. وبغزارة!..

-ولماذا لا تحملين معك مظلة يا صديقتي ونحن في هذه المدينة المعروفة بجوّها الممطر المضطرب؟! ألم تشاهدي أحوال الطقس قبل خروجك من البيت؟! نشرة الأحوال الجوية تنذرنا باستمرار الضغط الجوي المنخفض فوق الجزر البريطانية هذه الأيام، وما يصحبه من اضطرابات!

-والله لم أشاهد التلفزيون ولم أطلع الجرائد منذ أيام بسبب ضغط الامتحانات. على كلّ حال، في الصباح سافرت إلى الجامعة

بالسيارة. وكانت السيارة متوقفة خارج المبنى مباشرة. وكان الجو آنذاك صحوا. ولما عدت لم أجد موقفا شاغرا بالقرب من المنزل. تصوّر أيّا تبلّلت وأنا أهروول من موقف السيارات إلى مدخل المبنى تحت الأمطار الغزيرة! مسافة أمتار فحسب!

-ممكن جدا! فالمطر، كما أرى، غزير في هذه الساعة! أنا الآن جالس بالقرب من النافذة المطلة على حديقة غرينيتش أشاهد زخات المطر المتساقطة بغير انقطاع. يا له من منظر مريع يا وفاء!

-حديقة غرينيتش! تسكن بالقرب من حديقة غرينيتش إذاً؟

-بل منزلي ملتصق بالحديقة وتطلّ نوافذه عليها.

-جميل! جميل أن تسكن بالقرب من حديقة! والأجمل أن تكون الحديقة حديقة غرينيتش السياحية الشهيرة!

-والله اخترت السكن في هذا المكان بالذات لأنه هادئ ويساعد على التفكير والتركيز. فأنا لا أقوى على الكتابة في الأماكن المزدحمة الصاخبة. أنتِ بلا شك زرتِ هذه الحديقة من قبل؟

-كلاً، مع أني سمعتُ عنها الكثير. وكيف لا وهي من أشهر الأماكن السياحية في لندن وإنجلترا.

-بالتأكيد، فغرينيتش شهيرة عالمياً بحديقته وبمرصدها الملكي فضلاً عن خطّ غرينتش والتوقيت العالمي...

-الله! أنت، بكلامك هذا، تثير فضولي ورغبتني في زيارتها! كنت أفكر في زيارتها لكن لستُ أدري.. لم أجد الفرصة.. أنا الآن أرغب في زيارتها أكثر من أيّ وقتٍ مضى! أجل، أودّ أن أراها، وفي أقرب وقتٍ ممكنٍ!...

-إلى هذه الدّرجة؟!

-إلى هذه الدّرجة وأكثر! ولم لا نزورها معاً إن لم يكن ذلك يزعجك طبعاً. فأنت منها وأنا غريبةٌ عنها، وأهل مكة أدري بشعابها!...

تترقّب ردّه على فكرتها، لكنّه لا يفعل. وأنّى له أن يردّ وقد شلّ سؤالها ذهنه، ولجم لسانه. أليس الصمت أحياناً حصناً يحمي به المرء من سهام الأسئلة العسيرة والمربكة؟! وسرعان ما تشعر الفتاة بذلك، فتبادر إلى مكاتبته ثانيّةً:

-آسفةٌ إذا كنت تجرأت! ما كنتُ أقصد! لن أردّد اقتراحاً كهذا!...

ويردّ عليها محاولاً التّخفيف من الموقف المحرج الذي أثاره
سؤالها:

-لا، لا داعي للاعتذار! لا عيب في ذلك على الإطلاق. ولا أتصوّر أن يكون لي اعتراض على ذلك. ولمَ لا نلتقي؟! أشعر أنّه باتت تربطنا أواصر صداقةٍ طيبة.

فتردّ وفاء موافقةً:

-أشاطرك هذا الشعور أستاذ خالد! فمع أني أعرفتكَ قبل أسابيع قليلة إلا أني أشعر أني أعرفك منذ زمن طويل.

-عظيم! عظيم! فاللقاء سيمنحنا بالتّأكيد فرصة للتعارف أكثر، ولتسليمك نسخة من روايتي لمراجعتها مثلما تحدثنا. وسيمنحنا فرصة لمناقشة الرّواية التي ترغبين في كتابتها. أعدك أني سأشجّعك على كتابتها. ولن يهدأ بالي حتّى أراك منشغلة بكتابة أوّل فصل فيها بإثارةٍ وأمل.

-شكراً، شكراً جزيلاً! وأنا بدوري أعاهدك أني سأستमित في مراجعة عملك. ولن أرتاح حتى أعيده إليك مصححاً في أقرب أجل بإذن الله تعالى.. أتطلع حقاً إلى لقاءك.. وإني أرغب في التقاط صور تذكارية في هذه الحديقة، لكن لي مطلب بسيط عندك إذا أذنت لي حضرة الكاتب.

-أكيد، تفضلي..

-ألتمس منك ألا تنشر صورنا في منابر التواصل. فأنا كما تعلم لا استعمل فيها هويتي الحقيقية، وأتعامل فيها مع الناس بحذر، ولا أأتمن فيها كل من هب ودب من البشر.

-اطمئني فليس من عادتي أن أنشر صور الأصدقاء دون استشارتهم والحصول على موافقتهم. أنا أيضاً لي منك مطلبٌ واحد يسيراً إن أمكن.

-طبعاً، طبعاً أستاذ خالد! تفضّل! أنت تأمر وأنا أنفذ!

-العفو أستاذتي الفاضلة. إنّه شيءٌ هينٌ! حينما نلتقي أسأليني عما شئت وأنا أجيبك، عدا موضوع واحد لا أحبّد التحدّث عنه في الوقت الحاضر.

- حيراني! وما هذا الموضوع الذي تأبى الخوض فيه، يا ترى؟!

يتريث خالد قليلاً ثم يرد:

- حياتي الشخصية...

فترد الفتاة غير مكترثة:

- كلاً كلاً! تهمني شخصيتك وكتابتك أكثر من أي شيء آخر في الدنيا!...

وتمسك عن الكتابة قليلاً كأنها تفكر ثم تتابع:

- لكن، معذرة أستاذ خالد! هل لي بسؤال من باب الفضول لا غير...

- أكيد! تفضلي أستاذة!

- لكن لم لا تحبذ الحديث عن حياتك الخاصة؟ شغلتنى!

- لأنني أريدك أن تشاهدي صورة خالد صافية طاهرة مستقلة عن كل ما في الوجود.. أريدها أن تُرسم أمامك على لوحة الطبيعة

البيضاء الناصعة صورةً صادقةً معبرة بريشة الأيام والليالي التي نعيشها أنا وأنتِ.

أجل يا وفاء، أريدك أن تشاهدي ألوان نفسي الحقيقية مثلما هي مرسومة في الطبيعة، وليس صورة نفسٍ مزيفةٍ ملطّخة بألوان حياتي الشخصية وحياتي الأسرية والحياة الغابرة وما كان خارج إرادتي.

لا، لا أريد أن تشترك ظروفي الشخصية والأسرية المعقدة في رسم هذه اللوحة البريئة الجميلة يا وفاء. ولا أريد أن يشترك الماضي في رسم هذه اللوحة بألوان قد تكون قاتمة، ولا المستقبل حتى وإن كنتُ واثقاً أنّه سيضفي عليها ألواناً زاهية.. فالماضي مُثْقَلٌ بالمشاكل والهموم، والمستقبل مبهم ومجهول.

لقد شاءت الأقدار، يا صديقتي، أن يخلق البشر منفصلين بعضهم عن بعض، ومنفصلين حتى عن البيئة التي ينشأون فيها فيتحركون في أرجائها ويتتبعون من خيراتها وكثيراً ما يرحلون عنها إلى غيرها وقد لا يعودون إليها، ولكل واحد من هؤلاء البشر كيانه وشخصيته وطريقته في التفكير والتدبير والتعبير، وفي كلّ ذلك

لعمري حكمة ومغزى. ومع ذلك، لا ننظر إلى الإنسان ولا نقدر قيمة الإنسان إلا إذا نظرنا إلى بيئته وأسرته وقبيلته وأصله وفصله ولون بشرته وعقيدته ومن له علاقة به ومن ليس له صلة به!! نحن جميعاً فنانون يا وفاء! أجل، نحن فنانون ماهرون في الرسم بالألوان الزيتية، منشغلون في رسم صور البشر من حولنا بغير انقطاع على لوحات خيالنا.

أجل، يا صديقتي، نحن نرسم صور البشر من حولنا ثم نحفظها في ذاكرتنا، فتضرب بجذورها في أعماقنا ويعظم سلطانها فينا فتملي علينا طبيعة تعاملنا مع كل البشر من حولنا، فنميزهم بعضهم عن بعض، ونفضل بعضهم على بعض، ونحب بعضهم ونكره بعضهم، وندنو من بعضهم ونأى عن بعضهم..

أجل، يا وفاء، نحن نرسم ونظل نرسم ونخزن الصور طول العمر، ولعلنا في هذه الحياة، نرسم بقدر ما نفكر وبقدر ما نتنفس ونتحرك.. لكن هذه اللوحات التي نرسمها يومياً، يا وفاء، لا تكتمل في أذهاننا إلا إذا أضفينا عليها ألوان البيئة والثقافة والماضي والحياة الاجتماعية وما شابه ذلك! وهذه الألوان، لكثرتها وكثافتها،

تطغى على الألوان الأصلية، وتخفي ألوان الذات الحقيقية تماماً مثلما تخفي مواد الزينة الكثيرة والكثيفة وجوه البشر الطبيعية.

أجل يا وفاء، أريدك أن تشاهديني مثلما أنا الآن أمامك.. أريدك أن تشاهدي ذاتي المستقلة عن أسرتي وعن كل المخلوقات والخلفيات.. وأريدك أن تشاهدي ذاتي كما تتراءى لك في الحاضر. فأنا الآن، يا وفاء، مختلف عن أنا في الماضي. فأنا الماضي قد مات. أما أنا الحاضر فما زال ماضياً في مشوار الحياة. وأما أنا المستقبل فلست أعرفه، وقد لا ألتقيه أبداً في حياتي، فالعمر أقصر مما نتصور!

- لكن الانسان، يا أستاذ خالد، ابن مجتمعه، وهذه الخلفيات التي تحدثت عنها شيء منا لا يمكننا أن نفصله عن أنفسنا!

- حق ما تقولين يا صديقتي، لكن لا يمكننا التغافل عن آثار هذه الخلفيات في حياتنا. فنحن إن لم نعرف الخلاص منها فإنها ستنصهر لا محالة في أنفسنا، وتسري في عروقنا، فيكون لها بالغ الأثر فينا وفي تفكيرنا. إنها ضباب يتكاثر شيئاً فشيئاً، فيغشى أبصارنا، ويحجب عنا الذات البشرية في صورتها الأصلية الحقيقية وبألوانها الطبيعية. نحن جميعاً فنانون ماهرون، نحسن التلاعب بالألوان الزيتية،

بارعون في رسم الجسد الذي نشاهده بأعيننا، إلا أننا عاجزون عن رسم الذات رسماً صحيحاً دقيقاً يليق بمقامها لأنها لا تقع تحت حواسنا مثل الجسد.

هذه الذات، يا وفاء، لا تدركها أبصارنا لأنها تكمن خلف قشرة سميكة متمثلة في الجسد والأسرة والحياة الاجتماعية. ولن نستطيع النفاذ إلى هذه الذات وبلوغ أغوارها، واكتشاف ما فيها، وإدراك معانيها وعظمتها إلا إذا كسرنا هذه القشرة اليابسة. ولن نستطيع كسر هذه القشرة السميكة المتينة إلا إذا خلّصنا أنفسنا من هذه الجاذبية القوية المحيطة بنا، وحلقنا بأرواحنا عالياً خلف الأفق الأزرق حيث تعانق الأرواح بعضها بعضاً من غير شهوات، وتحيا معاً في حب ووثام وصدق، بعيداً عن عالم ما تحت الأفق الأزرق هذا الذي تسوده المادة وتطبعه المصالح والتوجهات والخلفيات والحسابات.

- سأُنزل عند رغبتك، فلن أسألك عن حياتك، ولن أهتم سوى بشخصيتك أستاذي الرائع.. أعدك بذلك...

وتستمسك الفتاة عن الكتابة ثانيةً ثم تتابع:

- آسفةٌ، أستاذ خالد! الحديث معك شيقٌ والوقت ضيقٌ! ها قد أخذ النّعاس يثقل أجفاني، والإرهاق يهدّ كياني، فلا أجد بداً من الاستئذان...

- أكيد، تفضلي! تهمني راحتك يا صديقتي!

- طيب، فقط لا تنس ترتيب موعد اللقاء في غريتش كما تحدثنا، فأنا في الانتظار! وليكن اللقاء في الأيام القليلة المقبلة ولم لا؟! فأنا في هذه اللحظة أشاهد توقعات الأحوال الجوية في موقع (البي بي سي). يرتقب وصول تيار جويّ مرتفع يصحبه تحسّن الطّقس في الأيام المقبلة بعد كل هذه الأمطار! سيكون ذلك بلا شكّ أفضل وقت لزيارة الحديقة!

- أكيد! أكيد! لا فائدة في زيارة الحديقة في يوم ممطر كهذا. على كلّ حال، يبقى ما تقوله الأرصاد الجوية نسبياً. صحيح أننا نملك الأقمار الصّناعية وأرقى الأجهزة التّكنولوجية، غير أنّ التّوقعات الجوية تبقى نسبيةً. فحالة الطّقس أحياناً تتغير في السّاعات الأخيرة بتغير الاتجاهات الضّغط الجوي الذي يبدو أحياناً وكأنه يتجه نحونا، وإذا به يغير مساره لاحقاً بعيداً عن الجزر البريطانية!

في هذا البلد، عندما نخرج من البيت، لابد من حمل المظلة
والنظارات الشمسية في نفس الوقت!

- هذا صحيح! فالطقس أحياناً يبدو غريباً! قد نشهد توافق أربعة
فصولٍ كاملةٍ في يومٍ واحدٍ! لكن ماذا نفعل؟! هذا هو مناخ الجزر
البريطانية التي نحيا فيها!.. أتمنى فقط أن يكون الطقس جميلاً يوم
اللقاء. على كلِّ حال أنتظر منك مكالمَةً فلا تتأخَّر!

ولا تخف! لن أَدَسَّ أنفي في أموركَ الشَّخصيَّة ولن أسعى لمعرفة
شيءٍ عن حياتك يوم اللقاء، فاطمئن!

فيقول شاكراً:

- وأنا أشكرك لتفهّمك. أعدك أنني سأتصل بك قريباً بإذن الله.

فتردّ وفاء مصرّةً:

- لا تقل: «قريباً»، قل «غداً»! قلتُ لك يرتقب أن يتحسن الجو
في الأيام القليلة المقبلة، ومن يدري كيف يكون بعد ذلك! يا الله
اجتهد وحاول الاتصال غداً!

فيقول الرجل مستسلماً:

-حاضر! حاضر! سأحاول غدا وأمرني على الله!

-حسناً، وقبل أن تغادر أستاذ خالد، دعني أرسل لك هدية بسيطة. إنَّها مقطع موسيقي أحب سماعه عندما أعود من الشغل مجهداً خائرة القوى. فعلى هذه الأنغام الهادئة، أفرّ من صخب هذه المدينة بحثاً عن الراحة والسكينة.

-عظيم! سأتعرف إذاً على ذوقك في الموسيقى! أتمنى ألاّ تخيبي أُملي أستاذة وفاء! ألف تحية والله يحرسك صديقتي الوفية...

يستنزل خالد الملفّ ثم يفتتحه، فتصدح من حوله أنغام (قصّة حبّ) الكلاسيكية الشهيرة، تداعب أنفاسه، وتراقص نبضات قلبه، وتغازل مشاعره. وسرعان ما ينال منه النعاس هو الآخر، فيقوم وينصرف من عمله ويأوي في هدوء إلى فراشه وأنغام قصة حبّ ما برحت ترنّ في أذنيه.

(٧)

يتناول خالد فطور الصباح، ثم يرتدي ملابسه الرياضية ويخرج للركض في حديقة غرينتش كعادته في أواخر الأسبوع.

تبدو السماء في هذه الساعة صافية ناعمة ترتسم على لوحها الأزرق الفاتح عروسُ النهار بألوانها الزاهية معلنةً مولد يوم جديد جميل ممتع ليس كسائر الأيام المتوالية على هذه المدينة المعروفة بطقسها الغائم والمطر والبارد. تتناثر أشعة الشمس الذهبية على أرجاء الحديقة الواسعة، تغمرها دفء وبهاء، وتفعمها حيوية وإبتهاجا. ويهب النسيم العليل في أجوائها، فيتسلل بين الأشجار الباسقة، ويتراقص بين الأغصان المتعانقة، مغازلاً أوراقها اليبانة، فتهتز له مترنحةً مبهتجة غير قادرة على مقاومة لذة لمساته المنعشة الساحرة.

ويستغرق خالد في الركض بخطى ثابتة ووجدانه تائهاً بين ثنايا المشهد، سابحاً في نشوة الطرب، لا يعرف الخلاص من قيود سحر

الطبيعة المحيطة به، إلى أن يرّ بغتة جرس هاتفه مشيراً إلى وصول رسالة. يتوقّف ويسحب هاتفه من جيبه وهو يلهث، وإذا برسالة نصية جديدة من وفاء، في أعلاها رقم هاتف محمول وآخر ثابت:

«صباح الخير أستاذ خالد. أرجو أن تكون بخير. أود فقط أن أذكرك برقمي هاتفي، الجوال والثابت. أستودعك الآن في انتظار مكالمتك. أرجو ألا تتأخّر عليّ! تحياقي الخالصة. وفاء»

يعجّل بحفظ الرقمين في هاتفه النقال ويهمّ بمهالفتها، ثمّ يتردّد. يفكر قليلاً محاولاً استحضار أوّل مرّة اتصلت به هذه الفتاة. فتشال عليه أسئلة لا يعرف لها جواباً. أيعقل أن تكون علاقته بها قد نمت بهذه السرعة فصار على وشك لقاءها في هذه الحديقة؟! ولم كلّ هذا الاهتمام به والحرص على لقاءه؟! يتساءل عن نوايا هذه الفتاة اتجاهاً، وسعيها للتقرب منه، فيلومها تارة ويلوم نفسه تارة أخرى. وكيف يلومها وحدها وهو لم يحترس منها ولم ينأ بنفسه عنها؟! وما ذنبها في واقع الأمر وهي لم تكرهه على فعل شيء؟! فكلّ ما في الأمر أنها دعتة للقاءها بأدب ولطف، ووافق هو بطيبة خاطر ومن غير سؤال أو تحفّظ!

وبيته في بحر السؤال فيغرق قلبه في بركة الحيرة والغمّ برهة ثمّ يستجمع يقظته فيتساءل لماذا يدع مثل هذه الهواجس تعكّر صفوه في هذا اليوم الجميل! ولماذا يعكّر صفوه هذه المشاهد البديعة أمامه، وهذه الأجواء الرائعة حوله، وهذه اللحظات الممتعة التي يعيشها الآن في إحدى أروع حدائق المدينة وفي أحد أجمل أيام السنة! فيدسّ هاتفه في جيبه ويمضي في عدوه صارفاً باله عن صديقتة وعن نفسه وعن العالم بأسره.

لكنّ طيف هذه الفتاة يأبى مفارقتها. فيها هو يسابقه إلى بيته فيسبقه إليه، ويتربّص به في ظلمة غرفته. وما إن يتمدّد في فراشه ويفتح لوحه الإلكتروني حتى يلوح في الشاشة أمامه. وما أغرب هذا الشبح؟ شبح ليس أبداً كسائر أشباح الدنيا! فالأشباح تُعرف بالرعب وقبح الخليقة، وهذا الشبح يبدو جميل المناقب، كريم الخليقة، ينتاب صفحته معجبا بأقواله، ومعلّقا على منشوراته بأجمل الحروف وأحلى الكلمات وألطف العبارات! وها هي تعليقاته الساحرة تتردّد في كلّ الصفحات، تفيض بالثناء عليه وعلى مقالاته وخواتمه وحتى صورته. يشدّ ذلك انتباهه، ويشغل باله، ويثير تساؤله: ترى ما سرّ كلّ هذا الإعجاب الذي أغدقته عليه فتاة

لا تعرفه إلا منذ أمد قصير، ولا تعلم عنه وعن حياته الكثير؟! ولم كل هذا الاهتمام بمنشوراته، وهل خلت الدنيا من الأدباء؟! ولماذا تعرض عليه مراجعة روايته من أولها إلى آخرها، بعد أن أبى عشرات الأساتذة والأدباء مراجعة فصول بسيطة منها؟! ويستغرق في التساؤل والتفكير، فيزيده التفكير حيرة وعذابا، ولا يجد للسؤال جواباً. ويقطع حبل تفكيره بغتة بالتساؤل عن جدوى الحيرة إن كانت صداقتهما في مقتبل العمر، وكان هو والفتاة في بداية المشوار، وطريق الحياة وعمر وحافل بالأشواك والأخطار! وهل من الإنصاف أن يحكم عليها وهو يعترف أنه لا يعرف عنها إلا القليل؟! ومن يدري؟! قد تكون الفتاة بريئة صادقة، رهلة المشاعر، طيبة الخاطر، لا تريد منه إلا الصداقة والمودة، ولا تريد له إلا الخير والفائدة! ومن يدري أيضا؟ قد تكون هي الأخرى ذاقت ويلات الجفاء والغدر والمرارة من بشر من حولها، لم يدركوا قيمتها، فراحت تفتش عمّن يحفل بها ويخلص لها، فأعجبت بشخصه، واستأنست به، وشعرت بالأمن والراحة والغبطة بجواره! لا، لن يسبق الأحداث، ولن يحكم عليها حكما مسبقا جائرا. وسيمضي في طريقه داعيا المولى القدير أن يؤمن سفره، وييسر أمره، ويحقق له مبتغاه في دنياه.

ويمرّ على مكتبة (إيست غرينتش) مساءً، فيستنسخ صفحات روايته الجديدة، ثم يهرول إلى بيته. ويفتح المذياع ويختار إذاعة (كلاسيك أف أم)، وينهمك في ترتيب صفحات روايته استعداداً لتسليمها للفتاة. وتتعالى من حوله أنغام موسيقى (بحيرة البجع) الرومانسية الساحرة، فتلامس وجدانه، وتداعب مشاعره، وتطرب نفسه، فيخلق عالياً في سمائها الرحبة، ويجول في بساطينها الخصبة، مستمتعاً بمناظرها الخلابة، مستنشقا عطر ورودها الجذابة. ويستوقفه فجأة فصلٌ من كتابه يثير في نفسه ذكريات غالية من الماضي:

«سار الفتى رويداً في ساحة مقام الشهيد الفسيحة. كانت آنذاك غارقة في هدوء غير معتاد لا تقطعه إلا أنغام موسيقى خوليو الرومانسية. فبدت كأنها حلبة رقص مترامية الأطراف، تراقص في أرجائها الأنغام وتتهامس الأحرف وتتعانق الكلمات، فتنبع منها أسمى معاني الحب والشوق والحنين، فتثير مشاعره وتضرم في نفسه نار الذكريات والاشتياق.. مشاهد من الماضي تتاب وجدانه، وتستطير فؤاده، وتسعر أنفاسه، وتهوي به في دنيا الهيام والأحلام التي لا تحدّها حدود.

وفي غمرة المشاهد المثيرة وعلى وقع الألحان الساحرة، تلوح في وجدانه صورة فتاة.. فتاة ولجت حياته غازية يوماً. سارت آنذاك بجيوشها نحو مملكته، فهزمت دفاعه، وعبرأت حدوده، واقتحمت قلاعها، وتربعت على عرش قلبه.. ولشدة حسنها ولطفها وكرمها، خلبت لبه وسكنت نفسه، فأحبها، وأخلص لها ولم يعد باستطاعته الاستغناء عنها والحياة من غيرها. وإذا بجيوش القدر تحاصره من كل مكان، ثم تحمل عليه بكل شراسة، فتهد حصونه، وتجتاح قصره، فتأسر مملكته، وتهز كيانه، وتطفئ شعلة الحب والعطف والحنان التي كانت تبعث الدفء في قلبه وتوقد الحياة في نفسه.»

تسري به هذه الكلمات بعيداً في أغوار الماضي، إلى سنوات الدراسة الجامعية عندما بدأ مشوار حبه مع هذه الفتاة.

كان آنذاك طالباً نجيباً متفوقاً في الدراسة. وكان شغوفا بالمطالعة، ولوعاً باللغات، متعلقاً بالكتابة. ولشدة ولعه باللغة والكتابة أخذ يفكر في تصنيف معجم مترادفات ومتجانسات يكون الأول من نوعه في وطنه، يفيد الدارس والمدرس والمترجم والأديب والباحث، ويخدم لغته العربية الثرية بالألفاظ والمترادفات.

وسرعان ما أدرك صعوبة إنجاز مثل هذا العمل العظيم الذي يحتاج إلى مراجع ضخمة ووقت طويل واهتمام بالغ، ودراسته تشغل باله وتستنفد طاقته. فلم يجد بداً من تأخير المشروع. فحمل حلمه معه خارج الأوطان بعد تخرجه. وشُغِلَ عنه فيما بعد ببناء حياته الجديدة وكتابة الرواية التي كان يجد فيها متعة لا توصف.

وها هو اليوم يفرغ من كتابة روايته الجديدة، فيستفيق في وجدانه حلمه القديم، ويسطع في ليله نور الإلهام والإثارة والهمة والرغبة في تحقيق هذا العمل، ويلوح في الأفق أمامه بريق الأمل والتفاؤل. ويشعر في أعماق نفسه أنه قد آن الأوان أخيراً لتجسيد ذلك الحلم الذي ما فتئ يراوده. ويشعر أنه إن لم يستغل الفرصة الآن ولم يجتهد، ضاع حلمه للأبد لضخامة المشروع وصعوبة إنجازهِ وضيق وقته...

ها هو الآن جالس أمام لوحه الإلكتروني منهمكا في العمل، مستعينا بمراجع عربية وغربية، قديمة وحديثة، مجتهداً لجمع أوّل كلمات مترادفة في معجمه. وتلوح في محياه أمارات الحيرة والانشغال وهو يشاهد نفسه في مستهلّ رحلة شاقّة طويلة.

وتنتابه الهواجس فيتساءل في نفسه لماذا يزجّ بنفسه في متاهة الألفاظ والتعابير غير المتناهية؟! ولماذا يحكم على نفسه بالعزلة عن بقية العالم من حوله؟! ولماذا يهدر سنوات من عمره في تصنيف معجم لم يعد يحتاجه بعد تخرجه؟! ولم لا يكتفي ربما بنشر الرواية كبقية زملائه؟! أليسوا يتسابقون لنشر أعمال روائية كلّ سنة يشاركون بها في معارض الكتاب؟! أوليس ما يخطّه هؤلاء هو الذي يشدّ الأنظار، ويثير اهتمام الصحف ونشرات الأخبار؟! فلم لا يقتفي خطى هؤلاء الكتاب فيوفّر على نفسه الجهد والعذاب؟! لم لا يفعل ما يفعلون فيفرح مثلما يفرحون ويستريح كما يستريحون؟! وهل ثمة أصعب من تصنيف معجم مترادفات في لغة في وزن العربية وهي من أثرى لغات الكون لفظاً وترادفاً، أكثر من اثني عشر مليون كلمة؟!... وتنهال عليه الأسئلة وتغمره الهواجس، فتتبطّ من عزمه، وتحثّه على التخلي عن معجمه.

وسرعان ما يتدخلّ العقل فيسحبه من بركة الهواجس، وينجيه من طوفان اليأس.

ولا تلبث أن تعلو شفتيه ابتسامةً رضا وهو يشاهد أوّل كلماتٍ في المنجد تلوح أمامه، فترسم في الأفق بداية تجسيد حلم طال انتظاره، وليس من المستحيل تحقيقه.

وتتعاقب الأيام والليالي والرجل منطوي على نفسه، منشغل بمعجمه، مستغرق في بحثه، تائه بين أدغال ألفاظه، ومتاهات معانيه، لا يكاد يجد وقتاً لأسرته أو الاستمتاع بحياته.

ويفيق يوماً على رسالة قصيرة من وفاء تحمل له السّلام وتدعو له بدوام الصحة والعافية والهناء.

ها هي الفتاة الغريبة تتذكّره بعد أن سلا باله عنها في غمرة انشغاله بمعجمه. فيتذكّر تَوّاً وعده بالاتصال بها هاتفياً.

يتناول هاتفه وقد خطر بباله مداعبتها قليلاً ما دامت لا تعرف صوته. فيحدّثها باللّغة الإنجليزية مجتهداً في محاكاة صوت رجلٍ هنديّ مدّعياً أنه موظّف بإحدى شركات الاتصالات البريطانية:

- صباح الخير. أيمكنني أن أتحدّث مع صاحب البيت؟

فتردّ وفاء بصوتٍ هاديٍّ:

- أنا صاحبة البيت.

فيتابع مجتهداً في الحفاظ على لهجته الهندية المصطنعة:

- مرحباً سيّدي. اسمي السيّد (خان). أنا من شركة الاتصالات البريطانية «تولك تولك». أودّ أن أعرض عليك خدمةً جديدةً تمنحك مكالماتٍ محليةً ووطنيةً مجانيةً على مدار الأربع والعشرين ساعة وسبعة أيام في الأسبوع، إضافةً إلى سعة إنترنت وتحميل غير محدودة تسمح لك بالإبحار في الشبكة العنكبوتية وتحميل الملفات من غير قيود. كلّ ذلك مقابل اشتراكٍ زهيدٍ لا يتجاوز واحد والعشرين جنيه إسترليني في الشهر!

- ليس الآن.. ربّما مستقبلاً.. أنا الآن مرتبطةٌ بعقدٍ مع متعامل هاتفيٍّ آخر.

- لا تحملي همّاً سيّدي، فنحن الذين نقوم بكلّ إجراءات تحويل الخطّ من متعامل الهاتف الحاليّ إلى شركة تولك تولك. سيكون الأمر بسيطاً ولن يستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع.

- ليس الآن، ليس الآن...

- وماذا لو أخبرتك أننا نتكفل أيضا بدفع تكلفة إنهاء العقد المبكر!
نحتاج إلى موافقتك فحسب.

فتقول الفتاة غير مكترثةٍ بالعرض:

- آسفة سيدي، قلت لك لا أريد الآن...

فيرفع الرجل صوته ملحاً:

- هذا، سيدي، أفضل عرض في السوق في الوقت الحاضر! أوكد
لك سيدي أنك لن تجدي عرضاً مماثلاً في أي مكان!...

فتقاطعه وقد ضاقت به ذرعاً:

- أنا آسفة، لا بد لي من الانصراف الآن! اتصل بي ربما لاحقاً!

فيقول متعمداً استفزازها:

- لحظة فقط سيدي!.. إضافةً إلى المكالمات الهاتفية المحلية والوطنية
المجانية وسعة النت غير المحدودة، ما رأيك إذا منحتك أيضاً باقة

تلفزيون كلفتها وحدها عشرة جنيهات في الشهر! سيّدي لن تجدي
عرضاً كهذا في...

فتقاطعه وفاء وقد فرغ صبرها:

- قلت لك ليس الآن! أنا مشغولة! سأضطرّ إلى إنهاء المكالمات!...

وعندئذ ينفجر ضاحكاً ويقول بصوته العادي:

- آسف أستاذة وفاء!.. معذرة من المزاح!.. أنا خالد!

فتصبح متعجّبة:

- خالد! لا أصدّق ما أسمع!

فيردّ ضاحكاً:

- أجل، أنا خالد ولست السيّد خان الهندي! لا أدري كيف خطر
هذا المزاح على بالي! آسف مرّة أخرى!

- لا، لا تحمل هما! لكنك فاجأتني حقّاً! لقد أحسنت تمثيل دور
السيّد خان هذا وتقليد لهجته الهندية هذه حتى أنّي خلّتك حقّاً

موظفًا هنديًا بهذه الشركة وما أكثر هؤلاء البريطانيين من أصول هندية في هذا البلد وفي شركات الاتصالات البريطانية! بعض هؤلاء الموظفين يتعامل مع الزبائن بالهاتف مباشرة من الهند! فكما تعلم، لقد دفعت الضرائب العالية الكثير من الشركات إلى مغادرة بريطانيا وفتح مقرات دائمة في بلدان أخرى أقل تكلفة على غرار الهند تُستخدم فيها يد عاملة محلية رخيصة.

- هذا صحيح! فالمملكة المتحدة فقدت الكثير من متعاملي الهاتف وشركات أخرى بسبب الضرائب العالية. حتى شركة الخطوط الجوية (راين إير) المعروفة بانخفاض التكلفة فرّت من الرسوم العالية. حوّلت مقرّها إلى فرنسا ولا لوم عليها!...

ويضيف مازحاً:

- أتركك الآن. فأنا لا أرغب في تأخيرك عن موعد عملك. ألم تخبريني قبل قليل أنك ذاهبة إلى الشغل؟!

- ذاهبة إلى الشغل؟! أعتقد أنني أقلت ذلك لموظف شركة الاتصالات السيّد خان وليس للروائي خالد!...

وبينا هي تحدّثه، إذ يشعر أنّها تمضغ شيئاً ما فيقول:

- من باب الفضول فحسب، ماذا تأكلين يا ترى؟ أهو طعامٌ لذيذٌ من صنع يديك؟

- لا، لا، مجرد شوكلاتة...

- شوكلاتة!

- أجل، شوكلاتة.. لذيذة حقاً.. سأبوح لك بسرّ، لكن، لا تضحك منّي، أرجوك!

- لا، لا، أبداً! هاتي ما عندك!

- أنا مدمنةٌ على تناول الشوكلاتة وهذه نقطة ضعفي! تصوّر أنّي خرجت البارحة للتسوّق فلم أشتّر غير الشوكلاتة! تصوّر أنّي أنفقت مائتين وأربعين جنيهً على الشوكلاتة فحسب!

- ماذا؟! كلّ هذا المبلغ على الشوكلاتة وحدها! هذا جنون!

- أعترف أنّي، يوم أمس، فقدت السيطرة على نفسي وتصرّفت كما لو كنتُ مجنونة حقاً! أنا في الواقع قصدتُ المركز التجاري في

ستراتفورد لأبتاع الملابس والعطور لأهلي بلبنان. وإذا بي أتوقف عند محل (ثورنتونز) المختص في بيع الشوكولاتة، فسبى خاطري ما وقع عليه نظري. فاشترت الكثير من العلب، خاصة (لندور) و(فيرو) و(كادبوري) وهي من الأنواع المفضلة عندي.

- مم! أتصورك جالسةً في الصالون تتحدثين معي وأنتِ محاطة بكل أصناف الشوكولاتة هذه!

- والله الشوكولاتة ليست حولي فحسب، فهي منتشرة في كل مكان في البيت! هنا في الصالون وفي غرفة النوم والمطبخ، وفي الثلاجة وفوقها وفي كل مكان! بات بيتي يشبه محل الشوكولاتة! ههههه...

- ههههه... والآن، كفي عن الحديث عن الشوكولاتة هذه، فقد أسلت لعباي بحديثك هذا! مع أني في واقع الأمر حريص على التقليل من كل ما هو سكري أو دهني حفاظاً على صحتي ورشاقتي!

- لا عليك! سأنتقي لك علبة أحضرها لك يوم اللقاء! وسألح...

فيردّ عليها ضاحكاً:

- حسناً، حسناً! لن أمانع هذه المرّة! على شرط!...

- على شرط ماذا؟!

- على شرط أن تكون صحيّة، مجردة من السّكريّات والمواد الدهنيّة!

- يا سلام! وأين أجد لك هذه الشوكولاتة السّحريّة؟!

- ربما في هذا المحل الكبير المختص في الشوكولاتة الذي ذكرت! تصوّري يا وفاء أنني دخلت أحد المتاجر الكبيرة يوماً للتسوق، وبينما أنا واقفٌ في قسم الحلويّات بين جمع من الزبائن أفحص ملصقاتها الغذائية، إذ سألتني إحدى الموظّفات إذا كنتُ أحتاج إلى مساعدتها. فقلت لها من باب المزاح لكن بنبرة جدّيّة: «أبحث عن حلويّات لا تحتوي على سكريّات أو موادٍ دهنيّة تضرّ بالصّحة!»

فردّت الموظّفة باسمّة: «أعتقد أنّك أخطأت في المكان! إذا كنت تبحث عن أشياء صحيّة من هذا القبيل، أنصحك بالانتقال إلى

قسم الخضر والفواكه في الجهة الخلفية! وانفجر الزبائن الحاضرون ضحكاً!...

وتعلّق وفاء على قصّته ضاحكة:

- ظريفةٌ والله! ما كنت أعرف أنّ دمك خفيفٌ إلى هذا الحدّ!...

وتمسك عن الكلام بغتة كأنّها تفكّر ثمّ تضيف:

- بالمناسبة، لم تخبرني بعد بموعد زيارة جرينيتش كما تحدّثنا. فقل لي: متى نلتقي؟

- ما رأيك إذاً لو نلتقي في نهاية الأسبوع؟ يوم السبت مثلاً؟ أنا في إجازة يومي السبت والأحد.

- ممتاز! أنا أيضاً لا أعمل يوم السبت. قد أغيب ساعة أو ساعتين في الصباح للتسوق، وبعد ذلك تحت أمرك في أي وقت تشاء! وربما يستحسن أن أتصل بك يوم الجمعة لتأكيد تفاصيل اللقاء. ما رأيك؟

- فكرة جيدة. أنتظر إذاً أتصّالك الجمّعة بإذن الله، فلا تنسي.

- لا! لا! لن أنسى! فاطمئن! لكن قل لي.. هل لي بطلب قبل اللقاء؟

- بالتأكيد أستاذة وفاء.. تفضلي..

- هلاً أحضرت لي روايةً عربيّةً ما أقرأها ساعة فراغي. عادةً ما أقرأ الأدب الإنجليزي، وإني لسوء حظي لا أذكر آخر مرّة قرأت فيها روايةً عربيّةً! فلا تضحك منّي!

- لا، لن أضحك منك! فالكتب العربية هنا قليلة وباهظة الثمن. أما الكتب الإنجليزية فهي متوفرة في المكتبات العمومية ونستطيع أن نستعيرها مجاناً. والكتب الإنجليزية القديمة تباع بملايين في بعض محلات بيع الكتب القديمة والأسواق! أنصحك ربما بإحضار الكتب العربية من لبنان مستقبلاً.

- فكرة ممتازة! لم أفكر في هذا الأمر من قبل! سأفعل في أثناء زيارتي المقبلة للبنان.

- ما رأيك في رواية لعميد الأدب العربيّ طه حسين؟

- اقترح ممتاز! تصوّر أني لم أقرأ له في حياتي سوى رواية واحدة (الحب الضائع) مع أنه من أعظم الأدباء في التاريخ!
- لا عليك! فأنت من الآن فصاعدا ستقرئين له أكثر لأنني أملك جلّ مؤلفاته بحكم أني معجب بأدبه! سأجلب لك الآن ربها كتاب (الأيام) وسأبحث لك أيضا عن أحد مؤلفات رائد المسرح العربي توفيق الحكيم، فأنا معجب بكتاباته هو أيضاً! أرجو فقط أن يكون ما أقترحه عليك عند حسن ظنك.
- بكل تأكيد، فأنا لا أشكّ مطلقاً في حسن ذوقك واختيارك أستاذي الرائع!

(٨)

يدنو من المكتبة الخشبية الصغيرة في الصالون، وينظر إلى عناوين الكتب القديمة المرصوفة على رفوفها. كان من بين هذه الكتب معاجم ضخمة مثل معجم (أكسفورد) الإنجليزي والمنجد في اللغة والأعلام العربي الذي أرسلته له شقيقته بعد وصوله إلى هذه الديار قبل سنوات طويلة. كانت هذه الرفوف المصنوعة من خشب سنديان بلون بني فاتح تبدو مقوسة لشدة ثقل هذه المعاجم. كان بعض هذه الكتب القديمة يبدو ممزقا أو مغبرا، لم يتحرك من مكانه الذي وضعه فيه منذ سنوات. يمد يديه ويسحب روايته المفضلة (مدرسة المغفلين).

ليس من شك في أنه قرأ جلّ أعمال رائد المسرح العربي، لكن هذه الرواية بقيت لها نكهة خاصة ووقع خاص في نفسه لما كانت تحمله من أفكار عجيبة وسعة خيال. وما برح ينظر إليها نظرة خاصة

ويفضّلها على بقية الأعمال. كان ينظر إليها على أنها مجموعة قصصيّة غريبة غرابة خيال توفيق الحكيم أحياناً.. لكلّ واحدة منها عالمها وجمالها وسحرها.. كلّ واحدة منها ملكة جمال تستهويه برونقها ورقتها، فتسارع نبضات قلبه لرؤيتها، وتُشَلّ حركته بالقرب منها، فيظلّ مشدوهاً والها بها، لا يعرف الخلاص من قبضتها ولا صرف باله عنها.. كلّ واحدة منها روضة مزهرة، يتردّد إليها تردّد النحلة الجائعة إلى الزهرة، فيمتصّ بنهم رحيقها، ويستنشق عبقها، فيشعر باللذة والطرب.. رواية ليست كسائر الروايات.. تحفة أدبية بديعة خلّبت عقله، فراح يقبل عليها، مرّة بعد أخرى، فيعيد قراءتها باهتمام وشغف كما لو كان يقرأها لأول مرّة في حياته!

ولشدّ ما ولع بحكاية «لا كرامة لنبيّ في وطنه»! فهي في نظره من أروع القصص القصيرة التي قرأها في حياته.. قصّة طريفة مفعمة بالعبر تروي حياة شابّ يدعى (زنجر) يحيا في مجتمع مغفّل، لا ينظر إلّا إلى المظاهر، ولا يرى قيمة المرء إلّا من الظاهر. وقد شاء القدر أن يكون زنجر دميم الخلقة. فأثار مظهره سخرية الناس حوله، وأثر في تصرّفاتهم نحوه. فصار كلما شاهد أحد صورته أو سمع صوته سخر منه. وصار كلما تقرب إلى فتاة أعرضت عنه، وكلما

طلب يد امرأة للزّواج رفضته. فانهارت ثقته بنفسه وبكلّ الناس من حوله. فنأى بنفسه عن البشر ليتقي شرّهم، ويجتنب مكرهم، وهو يشعر في أعماق نفسه أنّ عذاب العيش في منأى عن الرفاق، أهون من معاشرة أهل الجفاء والنفاق.

وذات يوم، حلّت بالقرية زمرةٌ من المزارعات من قريةٍ نائيةٍ للعمل، فاقترَب من إحداهن وقد بدت له مضطربة البال، مشغولة القلب. فعاملها بعطف وأدب، وأخلصها النصيحة والحب، وأحاطها بالعطف والأمان، وأشعرها براحة البال والاطمئنان. فشغِلَ بالها عما مرّت به من ظروف، وزال عن قلبها الخوف. وارتاحت لشخصه وانبهرت من حسن خلقه، فوقعت في حبّه، ورضيت به زوجاً. فشَدّه المسكين بقرارها، واحتار القوم لأمرها.

زَفّت إليه عروسه التي نظرت إليه ببصر العقل والحكمة، فاجتازت بنظرها حواجز الجسد والشكل والمادة الذي كانت تتوقف عندها أنظار البشر كافة، فرأت فيه، من خلف ذلك الشكل الخادع، هذا الشخصَ الكريم والحميم والعظيم. ولو نظرت إليه ببصر الذات من خلال غشاء الرغبات والشهوات الزائف لرأته ذميماً، دميماً مثلما كان ينظر إليه هؤلاء البشر من حولها.

ها قد ابتسم الحظ لهذا الفتى أخيراً. فبعدما هزأت به بنات القرية طويلاً، عوّضه الله من هي خيرٌ منهن حسناً، وخلقاً وأزكى نفساً.

يمسك خالد الرواية بين يديه متأملاً. لقد صارت هذه النسخة قديمةً هشة بعد أن عاث فيها الزمن، فتأكّل غلافها، واصفرت أوراقها، وتشوّه شكلها. لكنّ لبّها بقي صافياً جميلاً، وبقي مغزاها قلعةً شاهقة متينة لا تدركها رماح الزمان. لا يشك خالد أبداً في أنّ صديقه وفاء ستعجب بهذه الرواية مثلما أعجب بها تماماً.

يريدها أن تشاركه قراءة هذه القصص المؤثرة ليتبين من بعد ذلك رأيها.. ويريدها أن تطلع أولاً على قصة (زنجر) المعبرة، تستقي من نبعها الخالص عبرة وفائدة.. يريد لها أن تشعر من خلالها بمدى ضعة هؤلاء البشر، يستخفون ببشر مثلهم، يعيشون بجوارهم! ويستخفون بهم لأنّ الأقدار شاءت أن يكونوا في هذه الحياة أقلّ جمالاً أو ذكاءً أو حظاً أو مالاً أو مقاماً!.. بشر ختم الجهل والغباء على قلوبهم وأذهانهم غشاوة، فصاروا لا ينظرون إلا إلى ظاهر الأشياء المحيطة بهم في هذا العالم!.. بشر مقيدون بأغلال الأنانية والمادة!.. بشر خيّمت في نفوسهم الشكليات والأحكام المسبقة،

وباتت، في غياب العقل والمنطق، هي سيدة النفوذ وصاحبة القرار عندهم، تتحكم في سلوكهم ومخططاتهم، وتعبث بحياتهم وبأرواح الناس من حولهم!

لا، لن تتغير نظرة أفراد المجتمع إلى زنجر ولا إلى عشرات الملايين من الأشقياء في هذه الدنيا إلا إذا تحرروا من قيود الجسد واللذة وارتقوا عاليا خلف هذا الأفق الأزرق. فذلك هو الحد الفاصل بين اللباب والقشرة، وبين الصفاوة والكدر، وبين الإرادة والقدر، وبين الخير والشر.

يدخل غرفته بعد ذلك ويستلقي على ظهره في فراشه واضعاً يديه تحت رأسه ويصرف باله عن حكاية زنجر وما لقيه من سوء معاملة من بني جلدته، ويستغرق في التفكير في لقائه المرتقب مع الأستاذة اللبنانية:

ترى إلى أي مكان سيأخذها يوم اللقاء؟ بلا ريب، إلى حديقة غرينتش الشهيرة، فقد عبرت له عن رغبتها في زيارتها في أول مرة أثارا فيها موضوع اللقاء. لكن هل سيكون التجوال في الحديقة كافياً؟ وهل مجرد السير في حديقة يليق بأستاذة في مقامها، كلّفت

نفسها مشقة البحث عنه، وعرضت عليه المساعدة على مراجعة روايته من غير مقابل؟! لا، لا بد أن يفكر في شيء إضافي يليق بها وبمنزلتها، وبكرم ضيافتها! لا بد له أن يفكر في مبادرة ما يحتفظ بها سرّاً لتكون مفاجأة سارة لها. وسرعان ما تعنّ له فكرة دعوتها إلى حضور حفل موسيقي يرتقب بثّه المباشر في حلبة (أو ٢) في (نورث غرينتش) نهاية الأسبوع. فينهض من فراشه بخفة وإثارة ويفتح لوحه الإلكتروني ويعجّل بحجز التذاكر قبل نفادها لقرب الموعد وشعبية مثل هذا الحدث الفني في أحد أشهر المرافق الترفيهية في العاصمة لندن. فلم يبق له الآن إلا أن يترقّب اتصالها مثلما وعدت للتحديث عن تفاصيل اللقاء.

ويصله ردّها عشية الموعد في ساعة متأخرة من الليل معذراً ومغنياً للأمل:

«أسفة أستاذ خالد، لن أستطيع الحضور غداً، فقد طرأ طارئ. واعذرني لتأخري في الرد عليك وإبلاغك بذلك. أنا على كلّ حال لست مشغولة يوم الاثنين إن كان ذلك يروقك وسمحت ظروفك. فما قولك؟ أتطلع إلى ردك أستاذي العزيز»

وماذا عساه أن يقول الآن وقد أخلفت وعدها له وهو من احتفظ
بهذا اليوم لأجلها، وصرف مبلغا باهظا للترفيه عنها! ها هي كلّ
مسايعه تنهار فجأة أمام عينيه!

وفي آخر الأمر، يتمالك نفسه ويتقبّل الأمر على مضض، فيوافق على
اقتراحها.

ويتطلّع إلى اتصالها ثانية عشية يوم الإثنين، وتمرّ الساعات ويدجو
الليل، دون جدوى. فيعال صبره وتستخفه فورة الغضب
فيكتب لها كلمات قليلة يبلغها فيها بخيبة أمله وبقراره الكف عن
الاتصال بها.

وترتسم في محياه ابتسامة حزينة وتلوح في عينيه أمارات الحسرة
وهو يتأمل رسالته على شاشة لوحه الإلكتروني قبل إرسالها.

كم هي عجيبة علاقات البشر! يكاد لا يصدّق أنّ هذه الرسالة
القصيرة أمامه هي في واقع الأمر كلّ ما يحتاجه ليضع حدّاً لمشوار
علاقته مع هذه الفتاة الغريبة! كم هي هشة علاقات البشر! أيعقل
أن تنتهي العلاقات التي نجدّ ونكدّ ونسهر في سبيلها بمثل هذه

السرعة والسهولة؟! وهل يعقل أنّ هذه العلاقات التي يتجاذب البشر أطراف الحديث طويلاً لإرساء أسسها ويتبادلون فيها الرسائل لمدّ جسور الصداقة والمودة وتعزيز الثقة فيها، تستطيع أن تنهار بكلمة واحدة مثل «وداعاً»!

يتأمل رسالته القصيرة ثم يضغط زر الإرسال على مضض. وبعد ذلك يقفل لوحه الإلكتروني ويأوي إلى مضجعه. يشعر في بادئ الأمر بالحزن والمرارة. وشيئاً فشيئاً يقنع نفسه أنّ ما صنعه هو أفضل ردّ على من لا يحترم الوعود والمواعيد. ويتنفس الصعداء وهو يشعر أنّه قد طوى صفحة قديمة وفتح أخرى جديدة في حياته. ها قد تحرر الآن من التزامات مراسلتها وضبط المواعيد معها وتدبير أمور الخروج رفقتها وما يستلزمه ذلك من وقت وجهد وتفكير وتدبير ووجع رأس وبأس. لقد آن الأوان الآن ليلتفت إلى معجمه وهو طبعاً عمل ضخّم ومتطلب، يستحق اهتمامه أكثر من أي صديق في الدنيا. فذلك العمل أولى وأبقى وأنفع للبشر والأجيال المقبلة.

وها هو يأوي إلى فراشه مطمئن النفس، مستريح الخاطر. وفي اليوم التالي، يصحو وادع النفس، منشراح الصدر. لكن ذلك لا

يدوم طويلاً. فسرعان ما تلوح في وجهه أمارات الانشغال وهو يفحص رسائل الفايسبوك على هاتفه ويشاهد ردها على خطابه:

«أستاذ خالد، ما هذا الذي قلته في رسالتك؟! ما هذا الذي قلته؟! ما كنت أتوقع رداً قاسياً كهذا منك! أرجوك لا تلمني وترحل عني! فالظروف كانت أقوى مني، وسأشرح لك كل شيء يوم اللقاء. إنني أتوق إلى لقاءك، فلا تحرمني من ذلك. تقبل عذري وامنحني فرصة وأخبرني متى نلتقي...
أتوسّل إليك...»

يغلق خالد تطبيق الرسائل ويدسّ هاتفه في جيبه غير آبه بما قالته له الفتاة في رسالتها. فهي في نظره مذنبه، وكيف لا وقد انتهكت مبدأ من مبادئ الحياة في المجتمع البريطاني، الذي تحيا فيه، المتمثل في احترام الوقت والمواعيد. كيف لها أن تخالف قاعدة من قواعد الحياة في المجتمع البريطاني وهي احترام الوقت والمواعيد؟! لقد كان لحياته الطويلة التي عاشها في ديار الغربه عميق الأثر في بلورة شخصيته، وصقل تفكيره، وتغيير مجرى حياته. فتغيرات نظراته إلى عناصر كثيرة في الحياة، ومنها الوقت.

ما أكثر ما كانت تتردد على مسمعه عبارة «الوقت من ذهب» حينما كان يحيا في مجتمعه بين أهله وذويه، قبل رحيله. كان يتساءل في أعماق نفسه ما إذا كان لهذه الكلمات معنى في نفسه وأثر في حياته وحياة أفراد المجتمع من حوله، فلم يكن التساؤل يزيده إلا ارتياباً. أيعقل أن يكون الوقت من ذهب إذا كان في كثير من الأحيان يبدو له طويلاً ومملّاً لا يدري ماذا يفعل فيه! ولشد ما كان يستثقله في أثناء العطلة الصيفية الطويلة في غياب أماكن الترفيه والتسلية! يضيق به ذرعاً، فتراه يحاول أن يشغل نفسه بأي شيء يجده أو يخطر في باله، يصرف به هذا الوقت المحمل بالملل والضجر!

كان يتساءل في غمرة السأم والغم: ترى لماذا يقرن هذا الوقت الفارغ بالذهب؟! وإن كان كذلك، فأين هو بريق الذهب هذا ولم لا يراه ساطعاً في أفق هذا المجتمع من حوله؟! لا، لم يكن يرى في الوقت ذهباً ولا فضة ولا نحاساً ولا قيمة تُذكر! كان يراه مجرد زمن ممل، يلزمه كالظل، فيسير حياته، ويثقل كاهله، ويكدّر عيشه، ولا مفرّ له منه!

لا، لا يعقل أن يكون هذا الوقت من ذهب! فأَيُّ ذهب هذا الذي يسأله المرء فيسعى لتبديده بيده وبأَيِّ شكل؟!

لا، لا يعقل ذلك! فالذهب نفيس ونادر، لا يُمَلُّ ولا يَهْلُمُّ! فستان بين هذا الوقت الطويل والمهين والذهب الناصع الثمين!

هكذا كان يفكر وهكذا ظلّ يفكر طويلاً وهو في وطنه. وها هي رحلته إلى بريطانيا في وقت لاحق تفاجئه بحقيقة أخرى مناقضة لذلك، تقلب أمامه كلّ الموازين. فلأول مرّة في حياته يترأى له بريق لمعان الذهب الكامن المحيط بالوقت. ولأول مرّة يدرك أن للوقت نورا ساطعاً. ولأول مرّة تبرز في الأفق شمس ساطعة، لا تحجبها غيوم الجزر البريطانية الكثيفة القائمة، بعد أن توارت أشعتها عن نظره في سماء بلاده الزرقاء الصافية.

ها هو اليوم يكشف في هذه الديار البعيدة عن وطنه أنّ الوقت من ذهب مثلما قيل له من قبل وأنّ الذهب الكامن في صدقات الوقت، لا يراه إلاّ من آمن به، وقدّر قيمته، وأخلص له، في مجتمع يقدر قيمة الوقت.

فهذا المجتمع البريطاني، الذي يحيا فيه اليوم، يقدّس الوقت، ويراعي المواعيد، ويعدّ كلّ نشاط بالساعة والدقيقة والثانية. وها هو الآن أمام واقع يختلف عن واقع مجتمعه. ففي مجتمعه، كان أصحابه يضربون له مواعيد للقاء، فكان مقياس الزمن لديهم شروق الشمس وغروبها ومنتصف النهار والليل ومواقيت الصلاة كما لو كانوا يعيشون في أزمنة غابرة، مع أنهم كانوا جميعا يحملون في سواعدهم ساعات فاخرة من آخر طراز ينفقون في سبيل اقتنائها أموالا طائلة! فهذه الساعات حلّ ثمينه فاخرة يتباهى بها أفراد المجتمع وليست نظاما يضبطون به مواعيدهم ويسيرون به حياتهم! فالأصدقاء كانوا إن ضربوا له موعدا بعد صلاة الصبح، فإنّه لا يراهم حتى الضحى! وإن قالوا بعد صلاة المغرب، فإنّه لا يراهم حتى ساعة متأخرة من الليل. وقد لا يراهم أبدا! ويعيشون جميعاً بالوقت كما يشاؤون، ويؤخرون المواعيد كيفما يشاؤون، ويحضرونها وقتما يشاؤون، ويتخلفون عنها كما يشاؤون، وإن سألهم عن سبب ذلك أو احتج على ذلك، أمطروه حججا! وما أكثر ذرائعهم! وما أغربها في أوقات! وما أغباها في أوقات أخرى!

ها قد أَلَفَ اليوم نظاماً بريطانياً يقدّس المواعيد تقديس قومه
 للوعود الكاذبة. فأضحى من العسير عليه اليوم التسامح مع أولئك
 الذين يعبثون بمواعيدهم أو يخلفون بوعودهم حتى وإن كانوا من
 أهله وأقرب الناس إليه. وهذا ما يفسر استيائه من صديقتة وفاء
 التي وعدته أكثر من مرة ولم تف.

يغضُّ الطرف عن رسالتها ويمضي في سبيله لقضاء شؤونه. وفي
 وقت لاحق تصله منها رسالة أخرى تنبض رقة ولطفاً، وتفيض
 لهفة وشوقاً:

«متى نلتقي؟!»

أخبرني أرجوك وارحمني من حرق الانتظار!

هيا أبلغني واعفني من العذاب والنار!

سأمضي للمقائك وإن كان خلف البحار،

في أيّ قرية أو مدينة أو قُطْر من الأقطار،

بالسيارة أو الطائرة أو الباخرة أو القطار،

متحدّية كلّ الحواجز والعقبات والأخطار،

فأراك في أي وقت تختار، بالليل أو النهار،

فقط أخبرني، فأنت سيدي، صاحب القرار.»

وماذا عساه أن يقول الآن وقد نفذت كلماتها الرقيقة العذبة إلى نفسه، فأوقدت فيها شعلة الخيرة والدهشة والإعجاب! يستغرق في التأمل برهة ثم يحمل ورقاً وقلماً ويجتهد في الرد على رسالتها بألفاظ تضاهي كلماتها حسناً. فالخواطر الجميلة لا يُردّ عليها إلاّ بخواطر مماثلة، تروق الناظر، وتريح الخاطر:

«نلتقي عندما تُقَطِّع أشجار الهواجس التي ضربت

بجذوزها في أعماق أنفسنا..

نلتقي عندنا تنهار أسوار التردد والتساؤل المحيطة بنا:

«ماذا إذا؟» و«لماذا؟» و«كيف؟» ولست أدري ماذا!..

نلتقي حينما نحرّر أذهاننا من أسئلة لا يعرف الرد عليها إلا الزمان الذي رمانا إلى هذه الدنيا ثم جمعنا..

وهو الذي يجمعنا ويفرقنا ويعبث بمشاعرنا وأرواحنا كما

يشاء..

نلتقي يوم نحرّر أنفسنا من أفكار زرعها فينا المجتمع من
حولنا،

واستعصى فهمها على عقولنا..

تعالى نسابق الزمن فنلتقي ولو للحظة تُسجّل بخطوط من
ذهب على صفحات التاريخ!

تعالى نلتقي الآن قبل أن يقسو علينا الزمان فيفرّقنا ولم ننعلم
بعد بلحظة لقائنا!

تعالى نحيا، من خلال لقائنا، لحظة جميلة من لحظات
عمرنا!«

(٩)

ها قد آن موعد اللقاء أخيرا. يخرج من محطة مترو (سترات فورد) وهو كله ثقة أنّ صديقه اللبنانية لن تخلف وعدها هذه المرة. فهي الآن بلا ريب تدرك أنها إن فعلت فقد حكمت على صداقتها بالموت للأبد. فهو عندئذ لن يرقّ قلبه لحالها، ولن تؤثر فيه خواطرها وأشعارها، ولن يغني عنها اعتذارها. لا، لن يلدغ من جحرها مرّة أخرى مهما كان!

صحيح أنه تنازل عن رأيه في آخر الأمر بعد اعتذارها، فوافق على منحها فرصة أخرى ولقائها، لكن ذلك في واقع الأمر لم يكن من غير مقابل. فهذه المرة هو الذي فرض رأيه وحدد مكان اللقاء في مركز ستراتفورد التجاري الضخم في عقر دارها في الجهة الشمالية لنهر التايمز، بعد أن كانت فيما مضى تتطلع إلى زيارة غريتش وحديقته الشهيرة في الجهة الجنوبية للنهر.

يتوقّف عن السير ويسحب هاتفه المحمول من جيبه ويهمّ بمهاافتها، وإذا به يلمح فتاة سبطة القوام، وضئة الطلعة، وسيمة الحسن، ترتدي حجابا بنيا على الطريقة الشرقية، تقف بالقرب من محل بيع الصحف. تبدو منشغلة بهااتفها، لا تفارقه ببصرها، كأنها مستغرقة في كتابة شيء ما، غير مكترثة كثيرا بما يجري حولها.

يمضي نحوها ويسألها بصوت هادئ:

-الأستاذة وفاء؟

ترفع رأسها وترنو إليه بنظرة تنمّ عن إعجاب وتقدير:

-الأديب خالد! مرحبا، مرحبا! سعدت بحضرتك...

-أنا أيضا لي عظيم الشرف الالتقاء بك والتعرف عليك...

وترنو إليه ثانية وأمارات الإعجاب تلوح في وجهها والابتسامة لا تفارق شفيتها. وتخفض رأسها هنيهة ثم ترفع بصرها نحوه وتفتح شفيتها قليلاً كأنها ترغب في قول شيء ما لكنّها تتردّد ولا تنبس بكلمة. وتخيّم على الأجواء لحظات صمتٍ تُشعره بشيء من

الإحراج، يقطعها سائلاً مبتسماً متجنباً النظر إليها:

- إلى أين سنذهب إذا؟

فتردّ بلطف:

- حيثما تشاء أستاذ! أنا لا أمانع! أنا أسعد بحضورك وأسعد حيثما أذهب معك! المهم أن تكون أنت مسروراً باللقاء والمكان!

- أنا أيضاً لا أمانع على الإطلاق وسأسعد بالجلوس معك في أي مكان. لكن ربما بما أني أحلّ ضيفاً عليك فاليوم أنت تختارين، وسأختار أنا يوم تزورين غرينتش، قريباً بإذن الله!

- حسناً! ما دمت تلح، ما رأيك ربما لو نذهب إلى مقهى كوستا داخل المركز التجاري؟

- فكرة جيدة! لشدّ ما أتوق إلى فنجان قهوة ينشّطني ويبثّ الدفء في أوصالي في هذا اليوم القرمّ...

ويتجهان إلى المقهى الإيطالي الشهير. فيجلسان في ركن هادئ يرتشان كابتشينو ويتحدثان. ويرنّ هاتفها بغتة فيقطع حديثها

معه. فترد على المكاملة باللغة الإسبانية بخفة وطلاقة كما لو كانت من أهلها ومن الناطقين بها.. تبدو له فتاة أخرى غير هذه الفتاة التي تجالسه وكانت قبل قليل تحدّثه بلهجة لبنانية! وما أن تنهي المحادثة حتى تمدّ يدها فترفع فنجان كابتشينو وتقول باسمّة:

-أسفة أستاذ خالد! كنت تقول؟...

-العفو! ما كنت أدري أنك تحسنين اللغة الإسبانية! شيء مذهل! لم تخبريني عن ذلك من قبل!

-أسفة، ربما لأنّي لم أجد الفرصة لأخبرك بذلك من قبل. لقد أمضيت سنوات طويلة من عمري في إسبانيا. سأحدّثك عن ذلك يوماً! اليوم أود أن أركز على موضوع آخر وهو الكتابة. ممكن سؤال أستاذ؟ لكن إياك أن تضحك مني!

-أضحك منك؟! خير إن شاء الله! تفضلي..

-أود أن أكتب رواية ولست متأكدة من الموضوع!

-وهل خلت الدنيا من المواضيع!

-لا، طبعاً! المواضيع والحكايات موجودة! وموجودة بكثرة! لكنني لست أرغب في صرف أشهر طويلة من عمري في كتابة قصة عادية قد لا تثير اهتمام القارئ، ولا تنفعه في شيء! ولست أرغب في تكرار تجارب أدباء آخرين! أريد شيئاً جديداً.. شيئاً مختلفاً، يشعر القارئ أنه لم يقرأ مثله من قبل!

-عظيم! يا لها من مصادفة! هل تصدقين يا وفاء أن هذا الموضوع خطر ببالي أنا أيضاً! لطالما تردد هذا السؤال في ذهني وشغل بالي بعدما فرغت من كتابة روايتي! تساءلت: ماذا أكتب؟ وهل ما أكتبه جديد أم مجرد سرقة وتقليد؟ وكيف لي أن أرقى بما أكتب إلى درجة الإبداع والجودة والكمال إن كنت أقتفي خطى من كان قبلي، أو أن أقلد مؤلفات هؤلاء الأدباء من حولي؟! فإن فعلت، فإن كتابتي ليست إبداعاً وإنما شيء من التقليد والسرقة والخداع! وهذا ما عبرت عنه من خلال أقوال باللغة الإنجليزية تداولتها مواقع انجليزية مختصة في الأمثال والحكم ورددها أشخاص في مدونات ومنشورات في وسائل التواصل الاجتماعي وحتى في تويتر!

-هات أحد هذه الأقوال أرجوك، فقد شوّقتني!

-أكيد! دعيني أترجمه لك إلى اللغة العربية: «دائماً كن نفسك، وتحكّم في مصيرك. فلا شيء في الدنيا أكثر عار من أن تعيش حياة شخص آخر.»

-ما أروع هذا الكلام أستاذي الفاضل! معك حق والله! لم أقلّد نمط حياة شخص آخر فتكون حياتي نسخة من حياته؟! ولم أقلّد تفكيره أو سلوكه؟! فأين الانفراد واستقلال الشخصية في ذلك؟! وفي الأدب، لم أقلّد كاتباً آخر أو أسير في فلكه؟! فأين الاجتهاد والإبداع في ذلك؟! حرام أن يجتهد أديبٌ أو مفكّر فيبدع، ثم يأتي متطفلاً ما من بعده فيختلس ثمار جهده!

ما أكثر قصص السرقات الفكرية في هذا العصر يا أستاذ خالد! وهي في واقع الأمر ليست جديدة، فهي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ولم يسلم منها حتى عمالقة الأدب في العالم. فعلى سبيل المثال، يُعتَقَد أنّ الشاعر الإنجليزي الشهير ويليام شكسبير سرق حكايات مسرحياته التاريخية الشهيرة من (هولنشييد)! هل تصدق ذلك؟!

-لا شيء مستحيل في هذا العالم. حتى الفنان الإنجليزي المعروف جورج هاريسون الذي كان يحظى بشعبية واحترام وإجلال لم يسلم

من مثل ذلك، فقد أدين في المحكمة بانتحال أغنية (مي سويت لورد) الشهيرة... هذه الظاهرة يا صديقتي جرثومة استشرت في كيان الأدب والفن والإبداع منذ قديم الزمان، وستلازم حياة البشر للأبد.

التقليد، يا صديقتي، إن فحصناه فحصا صحيحا دقيقا أدركنا أنه شيء من السرقة. وكيف لا ومواصفات السرقة تنطبق عليه. فقد جاء في تعريف معجم الوسيط «سَرَّاقٌ مِنْهُ مَالًا وَسَرَّاقَةٌ مَالًا أَخَذَ مَالَهُ خُفْيَةً». وقد أجمعت المعاجم العربية الأخرى على مثل هذا التعريف، وهو تعريف شبيه بما جاء في معجم «كامبريدج» الإنجليزي وهو «سرق الشيء: أخذه بغير إذن صاحبه أو بغير علمه». فإن قلدت أفكار أديب أو أسلوبه خفية ومن غير إذنه أكون قد سرقت أفكاره أو أسلوبه بكل ما تحمله كلمة «سرق» من معنى!

والإنسان، يا صديقتي يا وفاء، لا يكتفي بتقليد غيره، فهو في كثير من الأوقات ينزع إلى تقليد نفسه.

وتقليد الذات، في تصوري، لا يختلف اختلافا كبيرا عن تقليد الآخرين، وهو بذلك شيء من السرقة! فالإنسان ربما دون قصد

يكرّر ما أنجزته نفسه من قبل . لا بد لهذه النفس التي تحيا في الحاضر من الاجتهاد والإبداع وليس الخمول والاكتفاء بتكرار أعمال تلك النفس التي كانت تحيا في الماضي واختلاس جهدها!

- لا أظنني فهمتُ فلسفتك في موضوع تقليد النفس . هلاً وضحت لي ما تعنيه أستاذي الكريم .

- أكيد، أكيد..

«أنا الآن»، يا وفاء، مستقل بذاتي وأفكاري وجسدي عن «أنا في الماضي»، «فأنا الماضي» قد مات، أما «أنا الحاضر» فما زال ماضياً في مشوار الحياة، وأما «أنا المستقبل» فإنه لم يوجد بعد، وسيكون بذاته وأفكاره بلا ريب مستقلاً عن «أنا الآن» أو «أنا في الماضي». فإن قلّد «أنا الآن» «أنا في الماضي» يكون قد ارتكب سرقة لأنه فعل ذلك دون إذن «أنا في الماضي» ودون علمه، لأنّ «أنا في الماضي» قد مات ولم يعد موجوداً ليستشير أحد!

نحن، يا وفاء، كثيراً ما ننحرف في بركة التقليد عن غير وعي متنا . وقد يتكرر التقليد في مؤلفاتنا وفي حياتنا مراراً وتكراراً ونحن لا ندري .

إننا نركض ونلهث لنشر أعمال كل سنة نشارك بها في معارض الكتب، ونركض بعد ذلك لتسويقها وبيعها بالتوقيع. وقبل أن نعم ببيع بعضها، نجد أنفسنا نركض ثانية لنشر أعمال مماثلة نشارك بها في معارض الكتب. ونجد أنفسنا نركض بعد ذلك لتسويقها وبيعها بالتوقيع مثلما فعلنا من قبل. وننهمك في الركض ونغرق في دوامة الجري وراء النشر والمشاركة في المعارض وكسب الشهرة والمال، ونحن في غفلة من أمرنا، لا ندرك أن بعض هذه الأعمال المستعجلة مجرد نسخ لمؤلفاتنا السابقة، أعدنا صياغة أحداثها، وغيرنا بعض شخوصها، وأعدنا توزيع بعض أدوارها.. أو ربما هي تكرار لأعمال الآخرين من قدامى ومعاصرين.

التاريخ حافل بقصص أدباء عظماء خرجوا عن صراط غيرهم، وسلكوا مسلكاً جديداً في أدبهم، وحققوا الإبداع بجهودهم. فطراً بعد ذلك متطفلون من حولهم، سعوا لتقليدهم، واختلاس مجدهم. فهذا الأديب العباسي سهل بن هارون يقلد ابن المقفع في كتابه «كليلة ودمنة» بكتاب «ثعلة وعمراء» وكتاب «النمر والثعلب». وها هم مئات الكتاب اليوم يسعون لتقليد أسلوب أحلام مستغانمي الشاعر عري ابتغاء المجد والشهرة. وما أكثر الأمثلة!

لا، لا أحب أن أقتفي خطى هؤلاء. وإن كان ذلك السبيل الوحيد إلى المجد، فإني لعمرى في غنى عنه بعزة نفسي وكرامتي. سأناى عن هؤلاء وأسير في سبيلي، محلّقا في فضاء غير فضاء هؤلاء.. فضاء من خلف الأفق الأزرق، يلوح فيه أمامي وميض الأمل والتفاؤل، أهتدي به في رحلة البحث عن كوكب الإبداع، تتردد من حولي أصوات أطياف هامسة: «إِنْ أَرَدْتَ التَّلَاقَ فِي كِتَابَتِكَ وَالنَّجَاحَ فِي حَيَاتِكَ، انْفَرِدْ بِنَفْسِكَ، وَسِرًّا فِي سَبِيلِكَ، مُدَافِعًا عَنْ أَفْكَارِكَ وَأَسْلُوبِكَ.»

- أفهم أنك تبحث عن الانفراد في كتابتك بعيداً عن آفة التقليد هذه، لكن ما السبيل إلى ذلك يا ترى؟

- سأشرح لك! عادة ما ينتقي الأديب شخوص روايته من نسج خياله أو من الواقع من حوله، فيصوّرها، وينفخ فيها الروح، ويجعل لها السمع والأبصار والأصوات، وينزلها إلى خشبة مسرح الحياة، ويوزّع عليها الأدوار، فيُملي عليها الأفعال والأقوال، ويوجّهها في أي اتجاه يشاء، ويعبث بها كما يشاء ووقتما يشاء. ولو شاء، لمسحها من الوجود وأتى بغيرها...

-لكن في تصوري، أستاذ خالد، مهما كان، تبقى الرواية رواية بكل أسسها وعناصرها وتبقى خاضعة لتقنيات السرد المعروفة.

-لا شيء في الدنيا ثابت يا صديقتي. فكل ما نراه حولنا في هذا الوجود ما انفك يتغير، ما كان حيا منه أو جامدا. والأرض، برواسيها وصحاريها، وسهولها وجبالها، وأنهارها وبحارها في تغير دائم. والحياة، وما فيها من كائنات، في تغير مستمر. فعجلة الحياة، مثل عقارب الساعة، لا تعرف التوقف أو السكون ولو للحظة. ولو توقّف مسارها لتوقّف نبض الحياة فيها وفينا وفي كلّ المخلوقات من حولنا. والكتابة أيضا في تغير مستمر ولا تقبل التوقّف أو السكون. فالجمود، إن ألمّ بها، عدو مبین لها، وخطر بالغ عليها، من شأنه أن يطفئ نبراسها، وأن يقطع أنفاسها. والعمران الروائي، مثل عمران المدينة، ينمو ويتّسع ويزدهر ولا يستقرّ على حال، بأي حال من الأحوال. وإن كان عمران المدينة يتغير على أيدي البشر، فإن العمران الروائي هو أيضا يتغير على أيدي بشر، هم الكتاب من أمثالنا. فإني أود أن أعرض نمطا جديدا.. رواية أبطالها من الواقع وليس من نسج الخيال.. رجال ونساء من لحم ودم، يحيون بيننا، يشاطروننا أفراحنا وأتراحنا وانشغالاتنا،

وإن اختلفت أفكارهم وعواطفهم وميولهم عنا. أبطال لست أنا الذي أصنعهم، وأصوّرهم، وأوزّع عليهم الأدوار، وأملي عليهم الأقوال والأفعال.. أبطال هم في الرواية أحرار، يدخلون مسرح الرواية بملء إرادتهم، فيتصرفون كما يشاؤون، ويخرجون من أبوابها الواسعة وقتما يشاؤون، ولا يمنعهم أو يتحكم في تصرفاتهم أو يتدخل في شؤونهم أحد.

-يا سلام! أبطال رواية يتحركون فيها بمحض إرادتهم، ويصنعون في مسرحها ما يشاؤون، ويتحكمون في مسار الرواية كما يحلو لهم، والروائي صانع هذه الشخصيات يتفرج! كأنها تقول: تصوّري لو أنّ الآلات الموجودة في العالم فجأة تتحرك من تلقاء نفسها، وتستقلّ عن نفوذ الإنسان الذي صمّمها، فتفعل من حوله ما يحلو لها! ما سمعت في حياتي شيء كهذا في الأدب! ما أغرب كلامك، وما أعجب خيالك أستاذ مع كامل احترامي لك!

-أفهم شعورك، لكن هذا ليس خيالاً وإنما واقعاً. والسرّ في ذلك أنّ أبطال الرواية يشتركون في كتابتها وفي تمثيل أدوارها في نفس الوقت...

فتسأله وفاء وهي تبدو حائرة مقطبة ما بين حاجبيها:

-كيف ذلك؟!

ويمسك عن الحديث هنيهة ليرتشف القهوة ثم يتابع باسمًا:

-ما قولك إذا أخبرتك أنّ معالم القصة قد بدأت ترسم على لوح خيالي، يمثل أدوارها بطلان.. رجل وامرأة.. واسمهما: خالد ووفاء؟

-خالد ووفاء؟!

-أجل، خالد ووفاء.. أنا وأنتِ.

-يا سلام! أنا وأنت! ما أعجب مزاحك أستاذ!

- بل إنني جادّ كلّ الجدّ! كلانا يكتب عن صداقتنا هذه من أول يوم من أيامها، فيسرد أحداثها، ويسجل حواراتها، ويعبر عن مشاعره وأفكاره من خلالها.. فكلانا يمثل أدوار القصة ويكتب وقائعها في نفس الوقت! وما هذا بالأمر المستحيل ولا العسير!

- فكرة عجيبة! لكن أتصوّر أني بدأت أشاهد الصورة. لكن قل لي: ما أدراك أننا نستطيع أن نشترك في عمل روائي واحد كهذا إن كنّا نختلف في الأفكار والرؤى والأسلوب؟!

- ها هنا بيت القصيد! اختلافنا هذا سيكون حتماً سرّ نجاحنا!

- اختلافنا سرّ نجاحنا؟! لست أفهم!

- لا شيء أجمل من الاختلاف والتنوّع في هذا الوجود! كلانا يصوّر القصة ويسرد أحداثها بأسلوب يراه الأنسب لكشف أفكاره، والأمثل للتعبير عن أحاسيسه. صحيح أننا نشترك في كتابة قصة واحدة، لكننا سننتج حتماً روايتين مختلفتين، واحدة بقلم رجل وأخرى بقلم امرأة، تعبران عن أفكار ومواقف وتجارب ومشاعر مختلفة. وكيف لا ونحن ننظر إلى الحياة نظرة مختلفة ومن زوايا مختلفة ككل البشر من حولنا؟!

لا أتصوّر، يا صديقتي، أن يكون قد سبقنا إلى مثل هذه التجربة أدباء من قبل!..

- ولا أنا! فكرتك هذه تبدو عجيبة وفريدة من نوعها!

- سننشر معا روايتين مختلفتين ترويان قصة واحدة مشتركة! وبينما يبدأ الروائيون عادة كتابة القصة بعد رسم معالم فصولها، ووضع عقدها وتصميم خاتمته، وتوزيع الأدوار على شخصوها، فإننا سنبحر في عالم قصة لا نعلم عن أحداثها أو خاتمته شيئا، كمن يمضي في رحلة بعيدة مجهولة لا يدري ما يحدث له فيها، أو ما يصادفه في منعطف طريقها، أو ما ينتظره في آخرها. ورب قصة لا نعرف فصولها ولا خاتمته، تذكى حب الاستطلاع في نفوسنا، وتثير فضول القراء والمتابعين من حولنا. وما الكتابة في واقع الأمر إلا رحلة نحو المجهول كما قال الكاتب الأمريكي تشارلي كوفمان.

وبينما يترى الروائيون إلى أن يفرغوا من كتابة القصة قبل نشرها، ولا ينشرونها في واقع الأمر إلا بعد مراجعتها وتنقيحها والتأكد من سلامتها، وتنميق شكلها، وملئها بمساحيق الزينة، فإننا سننشر فصولها في مواقع التواصل بكل عفوية ومن غير تصنع، فيتابعها الأصدقاء، ويتفاعلون مع أحداثها، ويتطلعون إلى بقيتها. قصة تترجم أفكارنا وتصور مشاعرنا، نعيشها فنمثل أدوارها، وننشر تفاصيلها يوما بعد يوم وأسبوعا تلو أسبوع.. وما هذا اللقاء الذي نعيشه وهذا الحديث الذي نتجاذب أطرافه إلا شيء منها.

- لقد فاجأتني بهذا الكلام أستاذ خالد! جئتكَ أستفسر عن موضوع أكتب عنه، وخلتكَ ترشدني إلى كتابة قصة خيالية أو واقعية بمواصفات الرواية المعهودة، وإذا بك تقترح علي قصة مختلفة تماماً!.. قصة أمثل أدوارها وأكتبها في الوقت نفسه!.. قصة أنا في واقع الأمر أشارك في لعب أدوارها منذ أن عرفتكَ وإلى حدّ الساعة ولا أدري! مجرد التفكير في هذا الأمر يملأ نفسي اكتئاباً وحيرة!

- أفهم ما تشعرين به يا صديقتي، لكنّ الإنسان لن يخطو خطوة واحدة نحو الأمام إن ظلّ يقتفي خطى الأولين، ولن يشيّد عمراناً جديداً إن ظلّ يقلّد هندسة الآخرين. والتقليد سلوك آلي بليد وليس مطلقاً شيئاً من الفكر والذكاء. إنّه عين الغباء. والغباء مثلاً جاء في تعريف العلامة (إينشتاين): «هو فعل نفس الشيء مرتين بنفس الأسلوب، وبتابع نفس الخطوات، ثم انتظار نتائج مختلفة». فنحن لن نبتكر أي شيء جديد بالانتحال والتقليد!...

ويمسك عن الحديث هنيهة، فيمرر يده في شعره ويتنهد بعمق ثم يضيف:

- العمر قصير يا صديقتي! وهو لعمرى أقصر مما نتصور! فهل نفقه في استنساخ أعمالنا وأعمال غيرنا؟! أيعقل يا صديقتي أن نفق سنوات عمرنا في سرد تجارب غرامية، وحكايات اجتماعية، وقصص خيالية مستهلكة قراءة ونقداً، باتت تملأ رفوف مكتباتنا، اعتادها القراء حتى بات يخيّل إليهم أنهم شاهدوها من قبل، وما شاهدوها وإنما شاهدوا أعمالاً أخرى شبيهة بها؟!.. روايات تكاد تكون صوراً طبق الأصل لما قرأناه من قبل! روايات يستطيع أن يأتي بمثلها أي أديب في الكون، وما العجيب الغريب في هذه الحكايات حتى لا يستطيع أن يكتب مثلها كاتبٌ يتقن لغة الكتابة وأدوات السرد المعروفة؟!!

ثم، هل الكتابة مجرد انتحال ما كتبه الأولون وراح يكرّره اللاحقون؟! هل الرواية دائماً قصة يصمم الكاتب أفكارها، ويصور أحداثها، ويسير شخوصها، ويقدم فيها ويؤخر، وينسج خيوط عقدتها ثم يفكّها في الأخير؟! هل الرواية دائماً قصة يعرف الكاتب خاتمتها وهو لم يكتب بعد مقدمتها؟! وهل الرواية ثوب يخطه الروائي على مقاسه ووفق ميوله ورغباته قبل عرضه على المجتمع من حوله؟! وهل من الضروري أن يرتّب الكاتب روايته

وينقحها ويصحح كل صغيرة وكبيرة فيها قبل نشرها؟! لشدّ ما أرغب في كتابة شيء طبعي تلقائي من غير زخرف أو تكلف على مرأى من القارئ يتابعه بشكل مباشر وأنا أخط فصوله سطرا بعد سطر، وفقرة تلو فقرة إلى النهاية...

ويرتشف القهوة ثم يرسل نظره نحو الفتاة فيجسّها بعينه ليتبين موقفها. تبدو له في هذه الأثناء مستغرقة في التفكير، تلوح في عينيها البريئتين الساحرتين أمارات الانشغال والحيرة وحتى التعب. فيضيف مستفسرا وهو لا يفارقها ببصره:

-فماذا قلت؟ أفلا أخذتِ برأيي وشاركتني كتابة هذه القصة؟

فتردّ وهي تضع يدها تحت خدها وقد ارتسمت بسمة فاترة على شفيتها:

-لست أدري.. لست أدري، لكنني سأحاول.. سأحاول إكراما لخاطرك أستاذي الكريم، ولأني تائهة، لا أدري ما أكتب.

يلمع البشر في عيني خالد لموافقتهما، فيصيح باسمها:

-ممتاز! أشكرك! أشكرك من صميم فؤادي لثقتك بي! سنشيدُ معاً
صرحاً معمارياً روائياً جديداً باجتهادنا وتعاوننا!.. عمراناً يقوم
على أساس متين، يرصّ حجارته الصدقُ والعفوية.

لكنّ هذا العمران لن يكتمل ولن يرتفع ليكون برجاً عالياً في
السماء، إلا بالثابرة والمواظبة والوفاء. فعِدني يا صديقتي أنك
لن تعرضي عن مشروعٍ وتدعيني وحدي في منتصف الطريق،
فمصير البناء مقترن بك وببقائك. سيعلو إن بقيت، وسيتوقف
وينهار إن رحلت!

-أعدك أنني سأحاول. فقد شوقني الآن لأن أشرع في الكتابة.
سأحاول، وسأحاول الليلة إن شاء الله!

ومن غير تفكير، يمدّ خالد يده ويضعها على يدها ويقول بصوت
وقور وبصره عالق فيها وهو يكاد يطير فرحاً:

-وأنا أيضاً أعاهدك على ذلك وستعرفين صدق عهدي!...

(١٠)

في اليوم الموالي، يفتح خالد لوحه الإلكتروني ويستغرق في كتابة فصل جديد من روايته الجديدة:

«هو ما فتئ يشعر أنّ حياته ليست ملكاً له، إنّما لعبة يمتلكها الزمان، يتسلى بها حيناً...»

ويقطع حبلَ تفكيره فجأة إشعار ينبّهه إلى وصول رسالة جديدة من وفاء في أول اتصال بعد اللقاء:

- أستاذ خالد..

- أهلاً أستاذة وفاء!...

- صباح الخير أستاذ.. صباح الأدب والنثر والقصة القصيرة، صباح توفيق الحكيم وقصصه العجيبة النادرة.

-صباح الأنوار، صباح الكلمات الرقيقة الطيبة.. أجمل التحيات وأطيب الأمنيات.. كيف حالك أستاذتي؟

-مرهقة، مرهقة والله.

-ما بك؟! خير إن شاء الله! أرجو ألا يكون ذلك بسبب اللقاء البارحة!

-اللقاء؟ لا، أبداً! اللقاء كان على بعد أمتار من بيتي ولم يجهدني بأي حال من الأحوال.. بالعكس ملأ نفسي راحة وسعادة. كل ما في الأمر أنني لم أستطع النوم البارحة على غير العادة.

-قلتُ لك لعله لقائي معك وما اقترحته فيه عليك!

-لا، لا! أبداً! فاللقاء كان ممتعا، والاقتراح كان مفيدا، أفعمني إثارة ورغبة في الكتابة، فقد عدت إلى المنزل وأنا أطلع إلى كتابة الأسطر الأولى من القصة التي تحدثنا عنها. لكن قبل الشروع في الكتابة ومن باب الفضول فحسب، ارتأيت تصفح كتاب «مدرسة المغفلين» لتوفيق الحكيم هذا الذي أحضرت لي. وإذا بي أتوه في قصصه المثيرة، وأعلق في شبابه، ولا أعرف الخروج منها.

-صحيح؟! سعدت بسماع ذلك كل السعادة! والله مع أني من المعجبين بتوفيق الحكيم ومع أني لا أشك مطلقاً في سمو منزلته ورقى أدبه، إلا أني خشيت ألا تعجبك هذه الرواية!

-نعم ما اقترحت. لست أقول هذا من باب المجاملة أبداً! إنها حقاً من أروع ما قرأت في حياتي. وكم أبهرتني قصة «ليلة الزفاف»!

-«ليلة الزفاف»؟ ما أروعها! كان لها عميق الأثر في نفسي أنا أيضاً! قصة تفيض بأنبل المشاعر وأصدقها. عروس تفضي إلى عريس في ليلة زفافها بتعلقها بشاب آخر، فينزل عليه النبأ كالصاعقة، ويملاً نفسه مرارة وألماً وغيظاً.

وما عسى أن يصنع بها وقد تمزّق قلبه، وغلي جوفه؟ ما أنبل هذا العريس! يجتهد بما وهبه الخالق من عقل وحكمة وسعة خاطر، فيكظم غيظه، ويصغي إليها، فيفهم أمرها، ويقدر مشاعرها، فيجمع أمره على الوقوف بجانبها، ومساعدتها على حلّ مشكلتها!

ما ألطف هذا الرجل! يشفق عليها وقلبه يقطر دماً، ويتقد ألماً، فيناولها منديله لتمسّخ فيه بدلاً من طرف ثوبها، ويحثها على

الحفاظ على ثوب العرس ليبقى نظيفا، ترتديه في المستقبل، في ليلة قرانها المقبل!

ما أشقى هذا الرجل! يسقيها ما استطاع من حنان، وهو إليه ظمآن، فمن ذا الذي يرأف به، أو ينظر إلى حاله؟!

ملاك هو هذا الرجل! يتقاسم غرفة نوم مع امرأة فاتنة، نائمة في سريريه، مستيقظة في ذاته، تثير نفسه، وتطير نومه، وتطيل ليله، ويحتمل بجوارها من العذاب والألم، ما لا يحتمله ابن آدم من لحم ودم!..

فما أحلى هذه القصة، وما أطيب هذا العريس!

-أجل، ما أحلى هذه القصة! وما ألطف هذا العريس! وما أروع هذه العروس! لشدّ ما أبهرتني هذه المرأة بطيبة خاطرها، وصدق مشاعرهما في هذه القصة التي صورت لنا شعور المرأة تصويرا صادقا، ووصفت حبها وصفا واقعيا. فالمرأة لا تدرك معنى الحب الحقيقي إلا بمعاشرة الرجل حيث تكتشف وجهه الحقيقي، وتبين صفاته المستترة التي حجبها عنها بوعيه وذكائه. فكلُّ امرئٍ بطبعه

فَنَان، بَارِعٌ فِي انْتِقَاءِ الْأَلْوَانِ، وَمَزَجَهَا لِرَسْمِ صُورَةِ شَخْصِيَّتِهِ، لَا تَرَأَى لَكَ أَلْوَانَهَا الْحَقِيقِيَّةَ، الْخَفِيَّةَ إِلَّا بَعْدَ مُعَاشَرَتِهِ.

لطالما سمعنا بحب عظيم طال عليه الأمد، وسلم من أهل الحسد قبل الزواج، لينتهي بعد أشهر قليلة من دخول عشٍّ زوجي تُكشف من خلف أسواره أجسادُ العشاق وطباعهم وتسقط أقنعتهم المزيّفة. وإذا بالمرأة بعد زواجها تتبين ما لم تكن تعرفه عن شريك حياتها في أثناء عزوبتها، مما قد يؤثر في مشاعرهما، ويهزّ أركان حبهما، ويهدّد جسور علاقتها بحبيبها.

-إني يا صديقتي في بعض الأحيان أتساءل في أعماق نفسي: ما جدوى اللقاء إن كان آخر المشوار الفراق؟ وما جدوى فرح يتلوه قرح؟ وأي حب هذا الذي أوله لهفة وعناق، وآخره خصام وفراق؟! وأي حب هذا الذي يمثل الحبيب على خشبة مسرحه أجمل أدوار العاشق المتيّم الذي ذهب الحب بعقله وعبث بحاله، وهو غير ذلك ولا يشعر في قرارة نفسه بمثل ذلك؟!

ثم إننا إذا تأملنا علاقات الحب من حولنا وجدناها في غالب الأوقات قائمة على أساس المصلحة. وقد تكون هذه المصلحة

شخصية أو دينية وما شابه ذلك...

-أتقصد بذلك أن الشخص عندما يجب لا يفكر في حبيبه وإنما في نفسه؟

-هذا ما أقصده بالتمام. الحب في هذا الزمن، وأكثر من أي حقبة مضت، لم يعد طبيعياً طاهراً عفيفاً يقوم على أساس البراءة والعفوية، بل أصبح مصطنعاً لا يُقبل عليه الإنسان إلا وقد هَيَّأ نفسه له، وتهيأت لذلك الظروف. ولا يجب إلا إذا وضع لِحَبِّهِ شروطاً، ولحبيبه مواصفات، يبطل الحب من غيرها. فلا يجب إلا من توفر فيه الجمال أو المال أو المقام أو الحسب أو النسب أو الدين أو ما شابه ذلك. وكل ذلك، إن وضعناه تحت عدسة مجهر العقل والمنطق، شيءٌ من المصلحة، وقد لا يعي المرء ذلك.

لا، ليس هذا بحب حقيقي في تصوري.

الْحُبُّ الْحَقِيقِيُّ هُوَ أَنْ يَهْوَاكَ الْمَرْءُ لِدَاتِكَ،

فَلَا يُبَالِي بِهَيَاتِكَ،

وَلَا بَلَوْنِ بُشْرَتِكَ،

وَلَا بَسْنِكَ، وَلَا بَوْظِيْفَتِكَ،

وَلَا بِمَنْزِلَتِكَ، وَلَا بِثِقَافَتِكَ،

وَلَا بِمُعْتَقَدَاتِكَ، وَلَا بِظُرُوفِكَ،

وَلَا بِمَا يَقُولُهُ النَّاسُ عَنْكَ..

وَالْإِلَّا فَهُوَ حُبٌّ زَائِفٌ تُغْذِيهِ الْأَهْوَاءُ وَالْمَصَالِحُ.

فَالْحُبُّ شُعُورٌ تَلْقَائِيٌّ، بَرِيءٌ، طَاهِرٌ؛

وَلَيْسَ ثَوْبًا يَخْيطُهُ الْإِنْسَانُ عَلَى مَقَاسِهِ،

إِرْضَاءً لِنَفْسِهِ، وَلِلْمُجْتَمَعِ مِنْ حَوْلِهِ..»

-أحسنْتَ قولاً أستاذ! والله كلامك هذا كلام حكيم، وفي الصميم!

الحب العفيف الجليل، قد ضاع بضياغ الزمن الجميل..

زمن المشاعر الصادقة العذبة.. زمن عنترة وعبله..

زمن رسائل الحب الصادقة والمعلقات، والبكاء على الأطلال والآهات.

وأسفاه! فقد انتحرت المشاعر الرقيقة العفيفة في نفوس البشر، فما بقي منها في زمننا هذا إلا قليل.

- قليلة بل نادرة هي مشاعر الحب الصادقة في هذا الوجود، لا نكاد نصادفها إلا بشقّ الأنفس، ليسارع الزمان من بعد ذلك إلى الغدر بنا، وصدّنا عنها، وصرفها عنا، وحرماننا منها حتى قبل أن ننعم بطعمها ودفتها! فما أغرب الزمان!

- ما ذلك إلاّ القدر يا صديقي. صحيح أنّ الإنسان يبدو حرا في تصرفاته، قادرا على تمثيل أفضل الأدوار، ورسم أجمل الصور للناظرين، إلاّ أنه يظل عاجزا إلى حد بعيد عن رسم مسار حياته والتحكم في مصيره.

كثيرا ما نرغب في أشياء ما في الحياة ولا نناها رغم كلّ الجهود التي نبذلها في سبيل ذلك! إنّ القدر.. والقدر يبدو لي أقوى منا ومن

إرادتنا. إرادة البشر تشبه القوارب الصغيرة الهشة التي لا حول لها ولا قوة، تسير في اتجاهاتها، أما القدر فيشبه الأمواج العاتية والعواصف القوية التي تعترض سيرها، فتتلاعب بها وتعبث بمصيرها. وأنت أستاذي الفاضل، ألا تؤمن بتأثير القدر البالغ فينا وفي حياتنا؟

-القدر؟ وكيف لي أن أنكر دوره وتأثيره وهو قبطان سفينة حياتي، يسير بها، كما يشاء، ويحوّل مسارها كما يشاء، ويرسلها في أي اتجاه يشاء؟! ومن ذا الذي يقوى على معارضة مشيئته، أو مخالفة أمره؟!

يخيا الإنسان في هذا الكون، ويخيا بجواره ومن حوله ومن فوقه بل وفي نفسه كائنٌ عظيم يتمثل في الحياة. وإن كان الإنسان يملك سلاح الإرادة، يشق به طريقه لإدراك مآربه، فإنّ الحياة تملك سلاح القدر، تتحكم به في مساره. وسلاح القدر أقوى من سلاح الإرادة، ومقامه أسمى، وكلمته أولى. فالقدر يأذن للبشر بتحقيق أمانهم وتطلعاتهم وأحلامهم تارة، ويمنعهم منها تارة أخرى مثلما يشاء ووقتاً يشاء وتلك سنة الوجود. فالإنسان لا يحقق شيئاً من غير مباركته وإذنه.

والقدر بذلك أشبه بحق النقض في مجلس الأمن الدولي، صوت واحد يكفي لإسكات كل الاصوات، وإجهاض كل القرارات، وصد أمم جمعاء عن تحقيق رغباتها وتطلعاتها. أو لعل ذلك أشبه بولي الأمر الذي لا مناص من طاعته والامتثال لأمره.

فما أقوى الحياة، وما أضعف البشر، وما أصغر إرادة الإنسان أمام عظمة القدر!

حتى لقاءنا هذا، يا صديقتي يا وفاء، صنعته يد القدر. ولا ندرى إلى أي مكان، تسير بنا عربة الزمان هذه. وكل ما نعلمه، يا وفاء، هو أننا نسير معاً في رحلة نحو المجهول، لا تعرف تفاصيلها ولا نهايتها إلاّ الأقدار.

-رافقتنا السلامة بحول الله تعالى. لنكن على خير ظن بالأقدار، ولنتفاءل خيراً لنرى خيراً.

-صدقت. والله لا شيء في الدنيا أفضل من الأمل والتفاؤل، صديقتي العزيزة، وإن كنا إلى حد بعيد مقيدين بحبال المصير المجهول..

لقد سرّني اليوم التحدث معك في موضوع القدر، وهو موضوع معقّد، شائك، مثير للجدل. تصوري أستاذة وفاء أنك عندما اتصلت بي اليوم، كنتُ مستغرقاً في التأمل والتفكير والكتابة في نفس الموضوع.. موضوع القدر! فشاءت الصدفة بعد ذلك أن نتطرق إلى الموضوع ذاته بكل عفوية على ذكر رواية توفيق الحكيم!!

-مصادفة عجيبة وغريبة أستاذي! لكن قلّ لي.. ماذا كتبتَ عن القدر يا ترى؟ هات ما عندك، فقد شوّقتني!

-حاضر! كتبتُ: «هو ما فتى يشعر أنّ حياته ليست ملكاً له، إنّما لعبة يمتلكها الزمان، يتسلّى بها حيناً ويسلو عنها أحياناً.. يتأمل الدنيا من حوله، فيدرك أنه أسير، يسير في سراط محفوظ منذ الأزل، وله أجل.. مشوار صوّرَ الزمانُ معالمه وأركانه، وحدّد أوله وآخره، ورسم اتجاهه وانحرافه.. ثم حمله على السير في ظلمة الأسر نحو المجهول..

وتترأى له في الأفق أمامه لؤلؤة منيرة، تشعّ في الكون من حوله ضياء.. ملاك منزل من السماء.. هي الأخرى لعبة بريئة من لعب الزمان، رماها بجواره في هذا المكان.

وها هما الغريبان اليوم يسيران جنبا إلى جنب في حيرة من أمرهما..
يجلي ببصره إليها، فتلتقي عيناه بعينيها، فيتدفق السرور من وجهه.
وسرعان ما تلوح أمارات الشجن والحيرة والخوف في عينيه مما
تخفيه له الأيام، فيرسل نظره بعيدا عنها في اتجاه ذلك الطريق،
منشغلا، مرتاعا، متسائلاً في أعماق نفسه عما ينتظره في الأمام..
أهو ظلام وآلام، أم نور وسلام؟ ...»

-الله، الله عليك يا أستاذ! كلمات في منتهى الرقة والمتعة والجمال!
هات بقية ما كتبت فإني متشوقة إلى ذلك!

-لا، لا، ليس بعد! هذا كل ما تيسر لي كتابته قبل أن يقطع اتصالك
بي حبل تأملي وتفكيري! ...

-والله آسفة أستاذ. لم أقصد....

-لااااا، العفو صديقتي الكريمة! لا بأس! سأكتب البقية بمجرد
انتهاء الاتصال. فإني الآن أشعر برغبة شديدة في الكتابة! وما الذي
يمنعني من ذلك؟!

-القدر ربا! فمن يدري؟! هههههه

-هههههههه.. ليس إلى هذا الحد، أتصوّر! وماذا عنك؟

-كما قلت لك لم يسعفني الحظ الليلة الماضية، لكن أعدك أنني سأكتب شيئا الآن وسأرسله لك في الساعات القليلة القادمة، تطالعه ويستمتع به الأصدقاء الذين يتابعون قصتنا هذه مباشرة.. قصة نعيش لحظاتها ونكتب تفاصيلها، مثلما اتفقنا. دمت في رعاية الله وحفظه صديقي الأديب.

(١١)

في سكون الليل وضوء المصابيح الخافتة، يخلو بنفسه في غرفته مستلقيا في فراشه الوثير، مبحرا في عالم التأمل والحلم، مستعيدا مسلسل ذكريات آخر اتصال جمعه بأمل قبل أيام وما دار بينهما من حديث شيق عن «مدرسة المغفلين» و«ليلة الزفاف» والقدر. وإذا بطيف الإلهام الغريب، الذي بات يكرّ عليه حيناً ويفرّ منه أحيانا ولا يستقر على حال أو في موضع، يستفيق في وجدانه بغتة بعد أيام من السبات، فيذكي فيه نار الإثارة والرغبة في الكتابة. فيفتح لوحه الإلكتروني ويواصل الكتابة في موضوع القدر وقلبه يطفح فرحاً وارتياحاً، ومشاعره تفيض إكباراً وإجلالاً لهذا العمل، فقد بدأت ترتسم معالمه في الأفق أمامه بكل الألوان. ويرفع رأسه من اللوح مفكراً في هذه القصة بين يديه وومضة الانشغال الممزوج بالأمل والتفاؤل تلوح في عينيه: صحيح أنّ هذه القصة الحوارية تركز على وصف الواقع الذي يعيشه مع هذه الفتاة، وتسجيل ما يجري بينهما

من حديث وجدال وخصام، وتصوير ما يعبرّان عنه من مشاعر وأفكار وقيم، إلّا أنّها لن تُكتمل إلّا إذا روى فيها لوفاء والعالم الذي يتابع قصّتها والأجيال المقبلة، بعض الأحداث الماضية التي ما فتئت تؤثر فيه وفي حياته.

فيُتصل بالفتاة ليخبرها عن حدثٍ لطالما شغل باله وشوّش فكره وأهدر وقته وأسأل الكثير من الخبر وأثار انتباه الكثير من الأدباء والجمهور:

-حضرة الأستاذة الغالية وفاء، أرجو أن تكوني بخير، أما بعد..

أود أن أبلغك بشيء وقع لي قبل سنوات وما زال يلاحقني حتى هذه الساعة التي أحدثك فيها، يا صديقتي يا وفاء. وإنّي ارتأيت الإفصاح عنه في هذا الكتاب حتى يوثق ويحفظ في سجل التاريخ، ولكي تشهد الجمهور والأجيال القادمة المتابعة لقصتنا هذه على ما عانيته وأنا أحاول أن أشتق طريقي في غابٍ مرعب، البقاء فيه للأقوى - غاب الكتابة. وكيف لفرخ ضعيف أن يبقى على قيد الحياة بين النسور الشرسة، أو لخروف صغير أن يعيش وسط الذئاب الجائعة، أو لعبد ضعيف أن يحيا في حديقة الديناصورات المفترسة؟!

ويفاجئه ردّها:

-مرحباً أستاذ خالد! إن شاء الله بخير!.. ماذا حصل لك؟ خير إن شاء الله! أخبرني، فقد شغلت بالي!

-لشدّ ما صبوتُ إلى صفحة تكون مرفأً آمن وسلام وخير، ومشعل نور يشعّ في الأفق فتندثر به غيوم الجهل والباطل وتتناثر منه أسمى صور العلم والمعرفة، وزادا للرجال والأطفال، وذخرا للخلف والأجيال...

-طيب.. فماذا حصل؟!

-ولم يطل انتظاري، فقد عرض عليّ صديق يدعى عبد الله الشقي المشاركة في فتح صفحة أدبية جديدة مشتركة. قال إنّه كان يرغب في خدمة رسالة الأدب وإن الصفحة الأدبية هذه ستعينه على نشر الأدب والمعرفة. ومنحني حرية التصرف فيها كيفما شئت، فأنشر فيها أيّما منشور شئت، وقتما شئت. فأنشر خاطري لاقتراحه، وتطلّعت إلى التعاون معه.

-عظيم! ما ألطف صديقك الشقي هذا وما أكرمه! فماذا حصل إذا؟

-ولما كان لي معرفة وخبرة بشأن الكمبيوتر والانترنت، استلهم رأيي لتصميمها، ورسم شكلها، واختيار ألوانها، وعرض أهدافها...

ورغم ضيق وقتي، فإنني سعت كل مسعى لمساعدته وتخفيف حمل المسؤولية عن كاهله، راجيا من المولى تعالى أن أكون في آخر الأمر عند حسن ظنه...

-وكيف لا تكون عند حسن ظنه إن فعلت لأجله وفي سبيل إرضائه كل ما ذكرته لي الآن! ليس ما فعلته بالأمر الهين. إنَّه بلا شك حمل ثقيل عليك وحدك، يتطلب الكثير من وقتك وجهدك. ووقتك ضيق مثلما قلت لي. فمن باب الفضول فحسب: لم لا يستعين هذا الرجل بأصدقاء آخرين؟ ألم يكن له أصحاب غيرك يساعدونه ولو مساعدة قليلة؟

- كان له منهم ما لا يعد ولا يحصى. كنت أراهم يعلّقون على كل ما ينشره حتى وإن كان المنشور يبدو تافهاً!

تصوّري يا صديقتي أنّه ذات ليلة - وبعيدا عن دنيا الأدب - التمس في أحد المناشير أغنية تطربه وتريح نفسه، فتوالت على

صفحته التعليقات، أمطرته أنغاما بكلّ اللغات ومن كلّ ثقافات..
أنغاماً كثيرة وطويلة لا يسعها وقت فراغه الضيق، ولو استمع إليها
كاملة مرّة واحدة لشغلته عن الدنيا وعن نفسه لأسابيع طويلة.

- لست أفهم إذاً علام يستعين بك أنت وله كلّ هؤلاء الأصدقاء؟!
أعذرني يا صديقي، فإني أسألك من باب الفضول وأيضاً لأنني أدرك
مدى انشغالك وضيق وقتك.

- العفو أستاذتي! لا أشكّ في ذلك مطلقاً، فلا تترددي في السؤال
متى شئت، واطرحي عليّ أيّ سؤال شئت.

إنّي أذكر، يا صديقتي يا وفاء، أنّه استعان يوماً بالأصدقاء من
خلال منشور تحدّث فيه عن مشروعه، وعبرّ فيه عن حاجته إلى
من يساعده على إنجازه، وعرض بعض النماذج الفوتوغرافية يختار
منها الأصدقاء صورة الغلاف لهذه الصفحة، ودعاهم إلى المشاركة
في اقتراح الشكل والمضمون... لكنه لم يتفاعل مع المنشور ولم يعلّق
عليه إلّا قليل منهم لسوء حظه.

- غريب أمر هؤلاء الأصدقاء حقاً!

- لست أدري إن كان يحقّ لنا أن نسمي مثل هؤلاء البشر أصدقاء أساساً يا صديقتي. وأيّ أصدقاء هؤلاء الذين يتجمهرون حولنا ساعة اليسر والفرح، وينأون عنا ساعة العسر والترح!

على كلّ حال، بعدما خذله هؤلاء، اجتهدت معه وتأتّى لنا في آخر الأمر تصميم الصفحة وفتحها. أطلقنا عليها اسم «الرواية».

-عظيم! وكيف تجاوب الناس معها؟

-كانت جديدة في بادئ الأمر، فكان الإقبال عليها ضعيفاً. وما لبث أن انتبه صديقنا إلى الأمر، وأدرك أهمية الدعاية لها، فاستعان بي على دفع تكاليف الإشهار.

-يا سلام! ولم لا يدفع هو التكاليف والصفحة صفحته؟!

-بكل بساطة لأنّ التكاليف بالعملة الصعبة وهو لا يملك بطاقة ائتمان ولا حساباً بالعملة الصعبة مثلي. فدفعتُ التكاليف من حسابي دون مقابل لإرضاء رجل أعدّه من أعزّ الأصدقاء، راجياً من المولى عز وجل أن يساهم مثل هذا المبادرات في تعزيز روابط الصداقة والأخوة بيننا.

وكان للدعاية بالغ الأثر في نشر الصفحة، فقد تضاعف عدد أعضائها، وازداد اهتمام الناس بها، وإعجابهم بمنشوراتها. فكاد صديقي يطير فرحاً بهذا الإنجاز.

ومن جهتي، ابتهجت واستبشرت خيراً، وكيف لا وقد صرْتُ أخيراً أشتراك لي صفحة تصل إلى آلاف الأعضاء المهتمين بالرواية والأدب، أنشر فيها مقالاتي وخواطري ومقتطفات من أعمالي الروائية.

واستمررت الحال كذلك إلى أن شعر باهتمام الجماهير بكتاباتي وزيادة الإعجاب والتعليقات، فاستاء الرجل بغتة وفار فائره، فصير صفحته الأدبية البريئة الوداعة هذه إلى ساحة وغى يصبّ فيها عليّ نار سخطة، ويقصفني فيها براجمات ألفاظه البذيئة واتهاماته الشنيعة.

- يا إلهي! كيف يفعل ذلك بعد كلّ ما فعلته من أجله! خيراً تفعل، شرّاً تلقى!

- حتى أنا استغربت وتعجبت، فقد وقع ما لم يخطر أبداً في خيالي.

-وماذا فعلت إذا؟!

-وماذا بيد الشقي أن يفعل ساعة الصدمة عدا الجمود والانهيار! فقد شلّت حركتي، وتجمّدت أفكاري، وانعقد لساني، فلم أدر ما أفعل أو أقول. وما زاد الطين بلة تحالف أصحابه معه. فتدقّقت على الصفحة حمّ منشوراتهم الساخرة وتعليقاتهم الساخطة وكلماتهم الجارحة في حقي. فقد صرّت الآن شغلهم الشاغل، يعبثون بمنشوراتي ويطعنونني في ظهري وينهشون لحمي ويمتصون دمي على مرأى من كل العالم. وبقيت مشلولاً عاجزاً عن الرد والدفاع عن نفسي، وردّ الاعتبار لي ولاسمي.

-لا، لا، هذا الكلام غير معقول! إذا ظلمك أحد لك الحق في الرد عليه بما تملكه من قوة! السن بالسن والسابق أظلم!

-أفهم ما تقولين يا صديقتي. لست أشكّ في أنّ الرد على المعتدي وإعادته إلى مكانه هو عين الصواب، وقد حشّني نفسي على فعل ذلك. لكنّ عقلي دعاني إلى التريّث والصبر. فأثرتُ سبيل الهدوء والحكمة، مقتنعاً أنّ الردّ على العدوان بمثله هو آخر خيار. فلا شيء أفضل من العقل والحكمة والهدوء وضبط

النفس في المواقف الصعبة في الحياة حتى وإن أثرت فينا وأثارت
استيائنا.

خلته سيغفل عن أمري وينشغل بشؤونه مع مرّ الوقت، وإذا به
يتصرّف وكأنه ليس له شغل آخر غيري...

- يا الله! إلى هذه الدرجة!

- وأكثر! فمع مرّ الزمن، غلظ قلبه غلظاً، وتوغّر صدره حسداً،
فصار لا يرى منشوراً لي في صفحته هذه إلا وحذفه!

- كيف يفعل ذلك إن كان قد قطع على نفسه عهداً أن ينشر لك ما
شئت وقتما شئت مثلما أخبرتني قبل قليل!

- كانت تلك مجرد وعود كاذبة لا تغني ولا تسمن من جوع، وهما
قد كشف القناع عن وجهه، وكشّر عن أنيابه، وكشف عما يخفيه في
باطنه من حقد وحسد.

إنّه الحسد يا صديقتي يا وفاء. إنّه ورم الحسد الذي ضرب بجذوره
في أعماقه ونمت أغصانه وتشابكت في نفسه. وداء الحسد شبيه بداء

السرطان. فكلاهما ينمو بداخل الإنسان. ويضعفه ويهلكه مع مرّ الزمان. وليس بينهما في واقع الأمر إلاّ اختلاف طفيف، فإن كان السرطان يقتل الإنسان بمهاجمة جسده، فإنّ الحسد يهلكه بمهاجمة نفسه.

- صدقت، فالحسد شعور فظيع، وداء قاتل يفتك بالإنسان مثل السرطان تماماً. وعلى ذكر هذا الداء، فإنّي استغرب كيف أنّ هذا الإنسان الذكي الحاذق الذي ابتكر أرقى وسائل تكنولوجيا، وأرسل مركباته بعيداً في أعماق الفضاء فاكشف كواكب جديدة ومجرات بعيدة، وهو اليوم يفكر في إرسال البشر في رحلات فضائية سياحية، وابتكر الطائرة الشبح تحلّق في السماء بغير طيار ولا يكتشفها الرادار، وطوّرتى أصناف أسلحة الدمار يبسط بها نفوذه على الآخرين، وهو اليوم يجتهد في المخابر لبعث حيوانات منقرضة منذ ملايين السنين مثل الماموث، لم يستطع حتى الآن أن يخترع دواء يقتل به داء السرطان وينقذ به أرواح ملايين البشر في العالم، يموتون منه أشنع موت!!

- استغرب ذلك أنا أيضاً! وأشعر أنّ الإنسان لا يعنى بالأمر بقدر الكفاية! وأشعر أنه لا يهتمّ بقتل هذه الأمراض بقدر اهتمامه

بقتل بشر آخرين يعيشون حوله بما طوره من سلاح، حباً لذاته ومصلحته! ولو استثمر الإنسان وقته وماله في محاربة الأمراض والأوبئة بدلاً من استثمارهما في تطوير أسلحة يقتل بها بشراً مثله، لقضى على كل الأمراض! وبدلاً من سعيه لقتل الأمراض، ها هو يشاركها قتل البشر بأسلحته التقليدية والكيماوية والبيولوجية!!

-يكاد موضوع السرطان هذا ينسينا موضوع الحسد وصديقك الشقي الذي راح يتهجم عليك! ههههه! أين توقفنا؟! ذكرني..

-كنتُ أقول إنّ هذا الرجل الذي وثقتُ به وأعنته على فتح الموقع ودعمته بهالي، سرعان ما كشف القناع عن وجهه، وكشّر عن أنيابه...

-وطبعاً إن كنت ضعيفاً واستسلمت، انقضّ عليك وغرز هذه الأنياب فيك ونهش لحمك مثلما تفعل الحيوانات المفترسة في الغاب! فلا بدّ من الدفاع عن النفس!

-هذا صحيح، فبعد صبر طويل على مكروه، ما كان مني في آخر الأمر إلا أن أدود عن نفسي وأن أرد عليه رداً يليق به. فقد بلغ السيل الزبى!

-فماذا فعلت إذا؟!-

-لطالما اعتبرت تلك الصفحة أرضاً لنا جميعاً نكدٌ في حرثها
وزرعها، ومن ثم نشترك في جني غلتها والاستفادة منها. وإذا
به يستولي عليها ويطردي منها كما تطرد الكلاب المسعورة من
بيوت أهلها. يغضب حقّي ويشردني من غير حقّ، وما يؤخذ
عنوة يسترجع عنوة، والسنّ بالسنّ والبادئ أظلم، كما قلت. فقد
اقتنعتُ أخيراً بالمضي في هذا السبيل.. سبيل القتال. فقد صدق
الأديب السوري محمد الماغوط حينما قال:

«لا تكن ودوداً فهذا زمن الحقد، ولا تكن وفيّاً فهذا زمن الغدر!»

وإني قد كتبتُ يوماً ما يشبه ذلك:

«مَنْ الصَّعْبُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ نَزِيهًا فِي زَمَنِ الْغِشِّ وَالْاِفْتِرَاءِ،

أَوْ أَنْ يَكُونَ مُسَالِمًا وَهُوَ يَتَعَرَّضُ لِلتَّهْدِيدِ وَالْعِدَاءِ،

أَوْ أَنْ يَكُونَ لَطِيفًا وَهُوَ لَا يَلْقَى مِنْ غَيْرِهِ غَيْرَ الْجَفَاءِ،

أَوْ أَنْ يَكُونَ ذَكِيًّا وَهُوَ لَا يُبْصِرُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَّا الْغَبَاءَ،

أَوْ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا وَهُوَ يَحْيَا بَيْنَ قَوْمٍ ضُعَفَاءَ،
أَوْ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا وَهُوَ لَا يَسْمَعُ غَيْرَ تَشْكِي الْجُبْنَاءِ.»

- ما أروع هذه الكلمات أستاذي الفاضل!

- أشكرك!

- فماذا فعلت إذا؟ حيرتني!

- حملت عليه على غرة لأسترد منه تلك الأرض المغصوبة. أو
بعبارة أخرى، ولأكون أكثر دقة وصراحة، أقول إنني أقدمت على
ما يشبه الانقلاب العسكري في السياسة، استعدت به حقي.

- الانقلاب العسكري؟! هذا الكلام يتعذر عليّ فهمه، هلا
أوضحت لي ما تعنيه بلغة بسيطة أفهمها.

- سأشرح لك.. فتحت صفحة مماثلة تحمل نفس الاسم وهو
«الرواية»، أردتها أن تكون منافسة لصفحته.

- لكنّ ذلك هدر لوقتك وطاقتك! وإنك بذلك تنجرّ إلى معارك لا
جارة لك فيها ولن تحبني منها غير المتاعب.

-حق تماماً ما تقولين. لكنني عندئذ لم أفكر في شيء عدا استرجاع الأرض المغتصبة مهما كانت التكاليف. في الحرب، كثيراً ما يغيب المنطق، وتموت المشاعر، ويستبيح المتنازعون كل الطرق والوسائل من أجل البقاء ولإدراك الغاية.

-فكيف كان رده إذا؟

-لم يكذب طرق سمعه الخبر حتى توغّر صدره، فأوقف كلّ ما كان ينشره، وأعلن حالة طوارئ وصيّر صفحته ساحة وغى تتقد فيها شرارة غيظه، وتنتقل منها نيران شتائمه وادعاءاته!

قال في غمرة ثورة غضبه مما قاله إنّ ما أكتبه مخربش لا يحمل شكلاً ولا معنى، وراح يردّده وينشره، فتهكّم بي هو وأصحابه!

-ماذا؟! أي هراء هذا الهراء! ما رأيت قط أدبا رفيعا ومعبرا كأدبك في هذا العصر! ويحه! كيف يقول ذلك، وهل قرأ لك ليحكم عليك؟

-لقد ساءني تصرفه! فالرجل أنشأ يصدر أحكاما بلا علم، فهو لم يقرأ لي على الإطلاق! للأسف، نحن اليوم رغم إيماننا بالله انحرفنا

عما أوصانا به الرحمن من حق وأسرفنا في الباطل . صرنا نحكم على
غيرنا بغير علم مع أنّ الله عزّ وجلّ أوصانا باجتنب الظنّ لأنّ
بعضه إثم وعدوان.

على كلّ حال كان عليّ أن أردّ على كلامه وأن أردّه إلى مكانه، فمن
باب التحديّ، نشرت مقولة جديدة في موضوع المبالغة والإطراء
ودعوته هو وأصحابه إلى قراءتها وكشف عيوبها وإثبات أنّ ما كنتُ
أكتبه لا قيمة له شكلاً ومضموناً، كما كان يدعي هذا الرجل .

-ممتاز! أسمعني مقولتك! هيّا، شوّقتني!

-حاضر. جاء فيها:

«إن راقك شيءٌ من الأشياءِ،

فلا تُقرطِ في المدحِ والثناءِ،

فالوردُ يموتُ من كثرةِ الماءِ».

-الله، الله عليك! كلمات في منتهى الدقة، تنبض بالمعاني الجميلة والعبر
المثلى! وهل فيها ما يُعيّب فكرة أو أسلوباً حتى ينقدها هذا الأبله!

-والله دعوته إلى نقدها بكل ثقة وأنا لا أشكّ أبدا في فشله. لكنّ الجبان عَجَلٌ بحذفها من صفحته ولم ينبس ببنت شفة! وما زال يحذف كلّ منشوراتي. ويا ليتة اكتفى بذلك وتركني وشأني. فهو ما برح ينهال عليّ بالسباب والشتائم نهارا وليلا كأنّما ليس له في الحياة شيء آخر يشغله!

وما زال يحمل عليّ بما يجود عليه غباؤه من عبارات الإهانة والشتيمة، فكان من الضروري الردّ عليه، فزرتُ صفحته متجسّساً، فألقيتُ نظرة على ما يكتبه، وإذا بي أرى <حكمة> من تأليفه هي لعمرى من أسخف ما قرأت في حياتي، وأردأ ما خطته أقلام الأدباء فيما قرأته إلى حدّ الساعة!

-إلى هذا الحدّ؟ وماذا كتب يا ترى؟! أخبرني!

-كتب ما جعلني أتقزّز من مستوى الأدب، وأتدمّر من حال الأدباء!.. كتب عبارة لا جمال فيها، ولا معنى، ولا عبرة، ولا هم يحزنون!.. فقد قال:

«وحده الموت سعيد هذا العام.»

- ماذا! «وحده الموت سعيد هذا العام!» أي حكمة هاته وأي أدب هذا! وماذا يقصد بمثل هذا الكلام الركيك؟! ما أغرب هذا الرجل! وما أغباه!

- والله لست أعاتبه بقدر ما أعاتب المجتمع حوله. أنا لست مستاءً لمشاهدة مثل هذا الكلام في عصر الرداءة والانحطاط بقدر ما أنا مساء لصمت المتلقي من حوله وتقبّله مثل هذا الهذيان في هذا الزمان!

على كلّ حال بما أنّه استمرّ في التهجّم والتحدّي، لم أجد بداً من عرض مقولته الساذجة هذه في كلّ الصفحات، يشاهدها عشرات الآلاف من المواطنين، فسخر الناس من كلامه. فانفجر بركان غيظه، تندفّق منه نيران السباب والالتهامات والأحقاد بغير حدود.

- وماذا كان رد فعل المجتمع؟.. أقصد: كيف كان رد أعضاء مجموعته وكلّ هؤلاء البشر الذين يتابعون ما يجري ويشاهدون هذه الشتائم والفوضى؟

-الحق أنّ بعضهم ذاد عنيّ ولم يخذلني. فقد دافعت عني امرأة غريبة تدعى (وئام) دفاع الأبطال فأخرجته بكلامها، فراح لشدة ذلك يحذف تعليقاتها تباعاً، وفي آخر الأمر لما ضاق بها ذرعاً، عجل بحظرها، فاستراح باله منها. واقترح عليه بعض الزهاء الهدنة والصلح، وخاطبه بعضهم الآخر بأطيب الكلمات وأرقّ العبارات لعلّه يتعظ ويتقي شرور نفسه، لكنّه سدّ أذنيه عن سماع الحق وعصى واستكبر وأثر لغة السيف والخصام على لغة الحكمة والسلام.

وفي أحد الأيام، تعالى صوت أحد الأصدقاء الجدد في مجموعتي منتقداً كلّ منشوراتنا، مردّداً: «أهذه هي صفحة <الرواية> التي كثر الحديث عنها هذه الأيام! أهذه هي المجموعة التي شدّت إليها الأنظار فجمعت أكثر من ٥٥٠٠ شخص، وأنا واحد من هؤلاء! واأسفاه! لو كنت أعلم أنّها هكذا، لما التحقت بها!

فسأله أحد الأصدقاء الأوفياء يدعى (عبد الرؤوف): «وما بها هذه الصفحة؟ ما الذي لا يعجبك فيها يا سيدي؟»

فقال الرجل الغريب: «أنا لا أرى فيها شيئاً يسرّني على الإطلاق! إنّي قصدت هذه الصفحة لأطلع فيها على أخبار الأدب وجديد

الأدباء، فما وجدت فيها أدبا ولا أدباء!... وراح يتهجم على الصفحة حيناً وعلى صاحبها وأعضائها أحياناً بغير حق على مرأى من كل الأعضاء...

- لكن ما شأنه! الصفحات الأدبية لا تُعدّ ولا تُحصى، فمن لم تعجبه صفحة ما عليه إلا أن ينسحب منها ويلتحق بغيرها!

- هذا ما خطر ببالي في بادئ الأمر. فأبلغته أنه ليس مرغماً على البقاء فيها إن لم تعجبه. لكن الرجل ظلّ غاضباً مستاءً لا يكفّ عن التذمّر. فاستحضرت ذاكرتي ألفاظاً وعبارات بذيئة ألفت سماعها آنفاً قريباً. وسرعان ما أدركت أنّ هذا الرجل الغريب لم يقصد صفحتي في سبيل الأدب وابتغاء المعرفة والمنفعة كما كان يدعي وإنما سعياً لتشويه سمعتي وسمعة صفحتي. وعلمتُ أنه في واقع الأمر ليس برجل غريب كما كنت أتصور، فأنا أعرفه وهو يعرفني حقّ المعرفة!

- ماذا؟! تعرفه؟!

- أجل، أعرفه يا وفاء! إنه خصمي العنيد عبد الله الشقي متنكر!

-يا إلهي! لا أصدّق! أصحيح ما تقول؟!

-أجل، يا صديقتي! إنّه عبد الله الشقي عينه! خصمي اللدود
الذي حاربني طويلا من أرضه ها هو اليوم يتسلل إلى ترابي كما
يتسلل العساكر إلى أرض الخصوم على غفلة من أهلها لا يبغون
فيها غير سفك الدماء والعداء!

-يا حرام! أ يصل به الأمر إلى هذا الحد! كيف يجرو!

-وما الغريب في ذلك! فمن يجرو على خداعك مرة، يجرو على
خداعك ألف مرة! بالأمس، طردني من صفحته ورماني منها
برماحه القاطعة، وها هو اليوم يرميني بوابل من النار، في عقر
داري، بين أهلي وأحبابي الأبرار!

-يا حول الله! ويحه! أحذفه وأرح بالك منه، فقد أدركت الآن
حقيقته، وكما يقول المثل العربي «النافذة التي يتسرّب منها الريح،
سدّها واسترح»!

-والله حثني خاطري على ذلك، لكنّ ضميري صدني عنه. فهو
الآن عندنا ضيف، والضيف يُضيّف ولا يطرد.

-ماذا تقول؟! ضيف! لا، لا! أي ضيف هذا! الضيف من أتاك يحمل لك بيده وردا، لا من يحمل لك في قلبه حقدا!!

-أفهم ما تقولين، لكنني قلتُ في سرِّي إنه الآن في بيتي ولعلّ هذه أفضل فرصة للتواصل معه والسعي لإقناعه بالمصالحة وإنهاء هذا الخلاف الطويل الذي لا طائل منه. فقلتُ له: «لا تستغرب يا سيدي إن قلت لك أنني أعرف من تكون! مرحبا بك سيدي المحترم عبد الله الشقي في مجموعتي.» فصاح: «وما أدراك أنني هذا الرجل الذي ذكرت اسمه إن كان لي اسم مختلف؟!» فقلتُ: «وهل تخفى عني نبرة صوتك أو طريقة تفكيرك?!» «وأضفت: «لقد عاشرني فكنتُ لك مخلصا، وشاورتني فكنتُ لك نصيحاً، واستعنتني فكنتُ لك خير معين، واجتهدتُ ما استطعتُ لخدمتك وإرضائك، فما لقيت منك في آخر الأمر لسوء حظّي غير الجفاء والعداء! فقال: «أنت الذي بدأت، فقد اختلست مني» (الرواية)! «الرواية» فكرتي ومن تصميمي، فهي لي وليست لك! فاللوم عليك لا على غيرك!» فقلتُ له: «عيبك يا صديقي هو سعيك لتملّك الرواية وتوهّمك إنها شيء لك ولأصحابك، وهي أكبر من أن تكون ملكا لك أو لغيرك! الرواية ليست ملكية خاصة نتصرّف فيها كما تملي علينا

ضمائرننا، أو بضاعة نتاجر فيها كما يحلو لنا. الرواية ملك لكل من يكتبها! الرواية لنا جميعاً! فقال: «لكني أوّل من أنشأ صفحة بهذا الاسم! هذا الاسم لي وليس لك، فكيف تجرؤ على اختلاسه مني؟!» فقلت: «أنظر حولك في هذا العالم الافتراضي وسترى عشرات الصفحات المماثلة التي وإن اشتركت في الاسم، فإنّ لها ما يميّزها من بعضها. فهذا «الأدب الإنجليزي» تشترك فيه عشرات الصفحات، وهذا «الأدب الفرنسي» يشترك فيه ما لا يحصى من الصفحات، ولم يقل قائل منهم هذا الاسم لصفحتي لا يشاركني فيه أحد! أبعد ما يكون عن حب التملك والاحتكار والتعصّب! عيبك أنك لا تفرق بين اسم العلم واسم الجنس، فاسم العلم يدل على معين دون قرينة مثل أسماء البلاد والعباد، أما اسم الجنس فهو الذي لا يختص بواحد دون آخر من أفراد جنسه مثل «رجل» و«شجرة» و«رواية».

ثمّ، ماذا صنعت عندما أشرفت على صفحة «الرواية» لا تنافسها أي صفحة أخرى؟! فتحت أبواب الصفحة لثلة من أصحابك، كنت لهم خادماً وعن مصالحهم مدافعاً، لا نكاد نرى فيها غيرهم ولا تكاد تنشر فيها غير مؤلفاتهم! وأوصدتها في وجه الأقلام الجديدة

وفي وجه منشوراتنا بغير حق! وتركت المسائل الشخصية تغشى بصيرتك، وتطمس عينك، وتحددك من سبيل الصواب والمنطق، فأجريت مسابقة لأفضل رواية أقصيت فيها روايتي من غير حق!

لا تلم غير نفسك يا سيدي، فأنت، بجشعك وطغيانك، دفعتني إلى انتزاع حقي بيدي، وأكثر من ذلك وأخطر منه بكثير، حكمت على الرواية بالانقسام والسير في اتجاهين مختلفين. فها هو شطر منها بين يديك، مكرّس للقديم، محتكر للأدب، منغلق على نفسه، مغرور بمنزلته لا يرى في الدنيا غير ذاته، لا حياة لمن هو جديد بجواره، مستبدّ بأفكاره، كالحزب الواحد في السياسة الذي يحكم الأقطار بالحديد والنار.

وها هو شطرها الآخر اليوم بين يدي أردته أن يكون منفثاً، متسامحاً، عادلاً، لا فرق فيه بين هذا وذاك إلا بالاجتهاد وجودة العمل.

لشدّ ما يحزنني الانفصال ولو أنّ الحياة قد علّمتني أنّه لا مناص لبني آدم منه في بعض الأحيان حينما يستبدّ الإخوان، ويسرفون في الظلم والعدوان.

سعيك لاحتكار الأدب وما تلاه من إقصاء وحقد وظلم أضرم
 سعي حرب ضروس مزقتنا وشغلت بالنا وأهدرت وقتنا وبددت
 طاقتنا وأزعجت أصدقاءنا وهزت أركان الدنيا من حولنا.. معارك
 طاحنة ما زالت مشتعلة امتدّ لهبها إلى صفحات الأصدقاء وشتى
 وسائل التواصل الاجتماعي والصحف والمجلات... وحتى إن
 أرخت الحرب سدولها يوما فإنّ أثارها لن تزول على الإطلاق.
 سترسخ في سجل التاريخ وستذكرها الأجيال الآتية باسم «حرب
 الرواية...»

وإن كنتَ قد أسأت بي فإنّي سأغفل عنك وأعدل عن سبيلك
 هذا، سبيل السوء والغدر والكراهية. سأمضي في سبيلي، في
 درب مرسوم بألوان الخير والمعروف والإحسان الزاهية. ورغم
 ما لقيته من جفاء وسوء منك، فإنّي سأحسن إليك ولن أنتظر
 منك مقابلاً.. أجل، سأمضي في سبيلي. لكن ليس قبل أن أهديك
 هدية لن يهديك مثلها أي اسم من الأسماء العظيمة التي تدافع
 عنها.. سأهديك هدية هي في واقع الأمر أجمل هدية في الوجود..
 هدية يحلم بها الكثير من البشر.. هدية يتصارع من أجلها الأدباء
 والفنانون.. سأهديك هدية الخلود.. فأبشر يا سيدي فإنه

سيكون لاسمك هذا حظ من الشهرة والخلود من فضلي. ستردد الأجيال اسمك لا لكتاب كتبه، ولا لمقال نشرته، وإنما لخطابات الحقيذة والعداوة، وستذكرك لاحتقارك الصغير وهو يسعى للحياة بجوار الكبير. وهل خلق الكبير كبيراً؟! وهل محكوم على الصغير أن يبقى طول العمر صغيراً؟! صدق الجاحظ في كتابه (البخلاء) لما ذكر: «لا تحقروا صغار الأمور، فإن أول كل كبير صغير، ومتى شاء الله أن يعظم صغيراً عظمه، وأن يكثر قليلاً كثره. وهل بيوت الأموال إلاّ درهم على درهم؟ وهل الدرهم إلاّ قيراط إلى جنب قيراط؟»

أجل، سأمضي في طريقي ولن ألتفت خلفي، لكنني سأكتب بألم عن صراعنا المريع هذا، وسأكتب عنك، وعما حصل مني ومنك، وسأمنحك دور البطولة في فصل من فصول روايتي»

- شرّ تعمل خيراً تلقى أستاذ خالد! لقد أساء الرجل معاملتك، ودخل بيتك دون إذنك، وتهجم عليك في عقر دارك وأمام أصدقائك، ومع ذلك أشفقت عليه وجازيته بدور البطولة في روايتك القادمة! والله أعجز عن فهمك وفهم منطقك أحياناً!

لقد قَسَتْ قلوب هؤلاء البشر فهي كالحجارة، فجزاء هؤلاء حتماً
العقاب وليس حسن المعاملة!

-والله قلوب بعض هؤلاء البشر كالصخور أو أكثر قسوة. ويجزني
أن أقول إنّ الصخور الصماء التي نصادفها في الطبيعة وإن كانت
تبدو صلبة غليظة فإنّها في كثير من الأحيان ألطف من بني آدم.
فهي إن اعترضت سبيلنا وتمهلنا وتخطيناها ولم نتعثّر ونسقط، فإنّها
ستظلّ في مكانها ثابتة، ولا تلتفت خلفها وتلاحقها لتعبث بنا
وتنكّد عيشنا وتدمرنا.

أما البشر الذين ترعت قلوبهم الحقيذة فهم خلاف ذلك تماماً.
تتقد نفوسهم رغبة في الانتقام، فينجرفون في سبيل الشر والمكر،
ويطاردوننا بلا كلل حتى نخزّ أمامهم فتدوسنا أقدامهم أو تحزّ
قواهم، فيخزّونهم أمامنا!

-أفهم من كلامك هذا أنه لم يدعك وشأنك رغم ما قلته له؟

-وهل ينفع الكلامُ فيمن هو أصمّ! لم يتركني وشأني أبداً، لكنّ
ذلك لم يفاجئني البتة! فقد علمتني الحياة - وهي خير معلّم -

أَنَّ من أعتاد شيئاً في الحياة، لزمه مدى الحياة، فمن استاء منك
وخاصمك مرّة استاء منك وخاصمك ألف مرة، ومن خانك أو
جفاك مرّة خانك أو جفاك ألف مرة، فاحترسي منه!

فقد بقي الرجل مستاءً لا يمرّ يوماً إلا وذكرني فيه بسوء. ولشدّ ما
تلطّى غيظاً يوم سمع بمشاركتي في إحدى مسابقات الرواية بفصل
من روايتي الجديدة. لم يهدأ حتى عثر عنه، فعرضه في صفحته من
باب السخرية.

قال عندئذ لأفراد مجموعته: «إليكم أصدقاائي فصل من رواية
الكاتب السخيف الذي توهم أنّه من أدباء المهجر، وظنّ بعض
المغفلين أنّ أسلوبه يماثل أسلوب جبران خليل جبران وميخائيل
نعيمة! بالله عليكم، أي أسلوب هذا! لا تبخلوا علينا بآرائكم
وتعليقاتكم، فهاتوا ما عندكم، واجتهدوا ما استطعتم حتى نردّه
إلى وعيه ورشده، فيرمي القلم من يده، فالكتابة لا تليق به!

وما لبث أن علّق عليه أصدقاؤه. كانت المفاجأة عظيمة وعكس
ما كان يتطلّع إليه صاحبنا! قال قائل منهم: «هذا الفصل يبدو
مثيراً، وفيه من ظلال الأدب الكثير.» وقال آخر: «النصّ مكتوب

بأسلوب سهل ممتنع خال من الأخطاء التي كثيرا ما تتردد في روايات هذا العصر التي يغلب عليها اللفظ الغريب وطابع اللف والدوران والأفكار الفلسفية التي يعجز عن فهمها القارئ.» وقال آخر: «والله يذكرني هذا النص برواد الأدب العربي في القرن الماضي رحمهم الله كافة.»...

-والله يستحق هذا الرجل اللئيم هذه الفضيحة وأكثر!

-أجل كانت تلك فضيحة! وأي فضيحة! انزعج الرجل من ذلك انزعاجا، فعجل بحذف تلك التعليقات الواحد تلو الآخر على مرأى من الجميع إخفاء للحقيقة وخيبة الأمل والمهزلة! وما زالت تلك التعليقات تهطل غزيرة كالمطر حتى ضاق منها ذرعا فحذف المنشور برمته! وهذا دليل آخر على فشله في مناوراته وهجماته في حرب ضروس هدفه منها تحطيمي وإبعادي عن عالم الكتابة. فهو من ردد طويلاً عبارة «من المهم التأكد أنه لا وجود لهذا الاسم (ويقصد به اسمي) في عالم الكتابة...»!!

لكني رغم ضيق وقتي وقلة إمكانياتي، قاومته، فكلما حاول التقدم خطوة في ساحة الحرب، دفعته إلى التقهقر خطوتين أو أكثر. وكل

ما أفعله من جهتي في واقع الأمر هو مجرد دفاع عن النفس ورد الاعتداء والسعي للبقاء في هذا الغاب الموحش.

وما برح إلى حدّ الساعة يكرّ ويفرّ في معاركه الفاشلة في هذه الحرب الطويلة.. «حرب الداحس والغبراء» كما أسماها بعض الأصدقاء، و«حرب الرواية..» مثلما ستذكرها الأجيال الآتية.

(١٢)

وتتوالى الأيام والليالي، وينهمك خالد في تصنيف معجمه. لقد صار لهذا العمل اليوم مقام عظيم في حياته. صار يشعر أنه باتت تربطه بهذا المعجم أكثر من مجرد عمل روتيني أو واجب يومي لا بد له من المواظبة عليه. فما يجمعه به في واقع الأمر علاقة روحية وثيقة تزداد متانة كل يوم. ولعلّ هذه العلاقة أشبه بعلاقة الأم بالجنين في أثناء الحمل. وكيف لا وهو يحيا في روحه ويستقي من دمه وسيخرج يوماً من رحم نفسه التي ما انفكت تسهر وتتعب في سبيله. لقد صار اليوم مرتبطاً بهذا العمل أكثر من ارتباطه بوظيفته التي يقتات منها ويعيل بها أفراد أسرته، وأكثر من ارتباطه بالأصدقاء والأحباب وكل العالم، بل وحتى أفراد عائلته! وكيف لا وهو اليوم يصرف فيه جلّ ساعات يومه وليله، وينفق فيه كلّ طاقته. وحتى أوقات فراغه، لم يعد يمضيها كما تعود من قبل. فقد صار ينفقها بجواره أكثر من أقرب الناس إليه، أسرته!

وحتى هذه المراجع الكثيرة التي بات يعتمد عليها اليوم لتجسيد هذا العمل الكبير، ومنها معاجم عربية رائدة مثل (معجم لسان العرب) و(المحيط في اللغة) و(المعجم الوسيط) و(تاج العروس) و(ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه) و (نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد)، فقد صارت اليوم جزءاً من ديكور غرفته، تراها على سطح مكتبه وتحتة وفوق فراشه وعلى الكرسي بجانبه وفي كل مكان في غرفته. وهي أيضاً جزء لا يتجزأ من حياته اليومية، لا يمر يوماً إلا ولمسها وقلب صفحاتها وفحص كلماتها.

يرسل نظره إلى مجموعة منها متراكمة فوق مكتبه مفكراً. هذه المعاجم الجلييلة تشهد بلا ريب على عظمة الأجداد وقدرتهم اللغوية الفائقة، ومعرفتهم العالية، وما بلغوه من علم ومعرفة وحضارة ومجد. وتشهد هذه الأعمال العظيمة أيضاً على مقدار الجهد الذي بذله اللغوي العربي في سبيل تصنيفها.

ويمدّ يده ويسحب المعجم الوسيط نحوه، ويقلب صفحاته متأملاً ثراء اللغوي. ما أصعب تصنيف مثل هذا المؤلف أمامه! لا يشعر بالنار إلا من لدعته. ولا يشعر بعبء مثل هذا العمل ومشقة إنجازهِ

إلّا من سار على درب هؤلاء الأجداد الرواد وسعى لتصنيف عمل في مثل هذه السعة والوزن مثلها هو الآن يحاول.

ويحاول تقويم هذه المعاجم، فيرى أنها رغم حجمها العظيم وثرائها الواسع فإنها تبقى ناقصة إلى حدّ ما. ولن يرى ما بها من نقص وشوائب وعيوب إلّا من كان ضليعاً في اللغة، وأمعن في فحصها، واجتهد لتبيّن معاني كلماتها وعباراتها، ونظر إلى تعريفاتها بعين ناقدة، وسعى لمقارنتها بأعمال عالمية حديثة مثل (معجم أكسفورد) الإنجليزي الضخم. وإتقانه اللغة الإنجليزية يمكنه من إجراء مثل هذه المقارنة.

مما أثار انتباهه وهو يفحص المعاجم العربية القديمة التي تناولت الترادف هو أنّها ربّبت الألفاظ والتعابير وفق مجموعات ومحاور يتوه فيها الباحث ولا يعرف الخروج منها بما يبحث عنه من مترادفات.

فلا بد له الآن من اجتناب مثل ذلك. فهو اليوم يجتهد ما استطاع في سبيل تصنيف معجم مترادفات يخضع لترتيب أبجدي متكامل على منوال المعاجم الإنجليزية التي تناولت هذه المادة والتي أعجب

بها. معجم حديث يسمح للباحث بإيجاد الألفاظ والتعابير بسهولة حسب ترتيبها الأبجدي بدلاً من نظام المجموعات والمحاور المعقد.

والمعاجم العربية - القديمة مثل (لسان العرب) والحديثة مثل (معجم الغني)، مثلما يراها الآن أمامه، تحتوي على تعريفات قديمة، أكل على بعضها الدهر وشرب. فهي حتماً تحتاج إلى مراجعة وتصحيح. فبعض تعريفاتها، في الشكل الحالي، لم يعد صالحاً في هذا العصر ولا يطابق تعريفات المعاجم العالمية الحديثة ولا يعكس المعنى الحقيقي للكلمات ولا يمتّ للواقع بصلة.

يقلّب صفحات المعجم الوسيط فيتوقف عند كلمة «لغة». فاللغة في هذا المعجم «أصوات يعبرُ بها كل قوم عن أغراضهم».

وتعريف معجم الغني يكاد يكون نسخة طبق الأصل لذلك: «اللُّغَةُ مَا يَتَكَلَّمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَصْوَاتٍ يُعَبِّرُ بِهَا عَنْ أَغْرَاضِهِ» أبعد ما يكون عن الاجتهاد والانفراد والخروج عن التقليد لما نشأ قبله! وفي الحقيقة، اللغة أوسع وأعظم من أن تُحصَر في مجرد أصوات

يردّدها الإنسان! صحيح أنّ اللغة كانت شفوية في بداية الأمر، لكنّ الأمر تطوّر، والإنسان اكتشف الكتابة منذ عهد طويل. ففي بلاد الرافدين سبق السوماريون غيرهم من الشعوب باستخدام رموز ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد!

لا يفهم خالد لماذا اتفقت المعاجم العربية القديمة والحديثة على حصر اللغة في أصوات مع أنّها صُنِّفَتْ جميعاً بعد اختراع الكتابة، مثل معجم لسان العرب الذي رأى النور في القرن الثالث عشر الميلادي؟!!!

لابد من تصحيح هذا التعريف ليكون أوسع وأشمل وأدق وأنسب لعصر تعدّد فيه الكتابة بكلّ أشكالها من وسائل التواصل بين البشر، على منوال: «اللغة وسيلة تواصل تتألف من أصوات وحروف أو رموز يستخدمها الإنسان في الحديث والكتابة.»

ويضيق صدره بالتفكير في هذه المعاجم العربية وتعريفاتها المتشابهة الناقصة. ولعلّ التفكير في ذلك يشعره بالتعب والضجر أكثر من التفكير في معجمه الجديد وبحثه المتواصل عن المترادفات وجمعها فيه. فيصرف باله عن تلك الأجواء الملبّدة بغيوم الكآبة، ويرحل

بخياله إلى صديقه وفاء التي لم تصله أخبارها منذ فترة، متسائلاً عما تكون تفعل في هذه الساعة. ولمَ ربما لا يفاجئها برسالة مختلفة عن بقية الرسائل، تحمل لها كلمات شاعرية طيبة يفاجئها بها؟! فينتقي لها في آخر الأمر العبارات التالية:

- «تظل صورتها الوسيمة الساحرة تسبح بين أمواج خيالي،

ونغمات ألفاظها تتراقص على أوتار مسامعي في الليالي،

وروحها البريئة الطاهرة اللطيفة تسكن نفسي وتشغل بالي...»

ويفاجئه ردّها السريع عليه:

- الله، الله عليك! يا ترى من هذه الفتاة التي تيمك هواها؟ من تكون حبيبتيك هذه؟! محظوظة هي بحبك لها!

فيردّ على سؤالها موضحاً:

- حبيبتي هذه ليست من البشر مثلما تتصورين، وإن كانت لسوء حظّها تعرّض لسوء المعاملة والمهانة والأذى على أيدي بشر مثلنا.

- أعترف لك أيّ، لسوء حظي، لا أحسن حلّ مثل هذه الألباز.
فإن لم تكن حببتك من الإنس فهل هي من الجنّ؟! مَنْ تكون
حببتك هذه إذا؟! هيا أخبرني! ومن غير ألباز أرجوك!

- حاضر! إنها حببتي الغالية، اللغة العربية.

- هههههه لا ألومك على الإطلاق وإنما ألوم الجنون الأدبي هذا
الذي يظلّ يلاحق الأديب حتى لا يبقى بينه وبين المبدع أحياناً إلا
شعرة! ها قد ذهب الخيال الأدبي بعقلك، فبتّ تنظر إلى اللغة كما لو
كانت امرأة، لا تقوى على مقاومة سحرها فتقع في حبها وتستغرق
في مدحها ومغازلتها!

- إن كانت امرأة فهي أعظم نساء الكون.. أحبها حباً قوياً.. أحبها
حباً سرمدياً..

أفرح لفرحها وأترح لترحها.

- واليوم أيها الكاتب المجنون، كيف تنظر إلى حالها وكيف هو
شعورك نحوك؟ هل هو فرح أم ترح، يا ترى؟!

-إني اليوم أشعر بالأسف عليها، والحزن لما حلّ بها!

-وما الذي أصابها فملاً نفسك أسفاً وغماً وتشاؤماً هكذا؟ أبعد الله الشر عنها وعنك وعننا جميعاً!

-يلعج الحزن فؤادي ويؤرق جفني وأنا أبصر قوماً عقلاء يتنكرون للغتهم العربية فيستبدلونها بلغة أجنبية ليست منهم ولا هم منها في شيء. ينصرفون عنها مستهينين بقيمتها، مستخفين بتعابيرها، ويتهافتون على غيرها مشيدين بها، متشدقين بألفاظها. ويا ليتهم أتعنوا لغة من اللغات الأجنبية تقيهم شرّ فوضى اللسان! فقد ضلوا السبيل، فامتزجت ألسنتهم واختلفت عن بعضها، فلم يعد يفهمهم أحد، ولا هم يفهمون أحداً، ولا يتفاهمون فيما بينهم أبداً!

-غريب أمركم هذا! أيعقل أن يكون هذا حالكم اليوم وقد مضى أكثر من نصف قرن على استقلالكم!

-وأي استقلال هذا الذي يُطرد فيه الاستعمار من الباب الأمامي، ليعود بعد ذلك متسللاً من الباب الخلفي أو من النافذة. ويلازمنا الاحتلال المحتال لأجيال؟!!

-ذلك بلا ريب نابع من الاحتلال الفرنسي الطويل لبلادكم وآثاره العميقة في نفوسكم. لكن لستُ أفهم شيئا! ...

-ماذا؟

-الجارتان تونس والمغرب خضعتا أيضا للاحتلال الفرنسي، ومع ذلك سلمتا من مثل هذا التأثير المدمر! أذكر أنّي التقيت مغاربة في أثناء عطلتي في مراكش قبل سنوات، فما لقيتُ مشكلة في التواصل معهم باللغة العربية. لكنّ الأمر كان مختلفا يوم حاولت محادثة جزائريين عند مروري بجنوب فرنسا، فقد التبس علينا الأمر جميعا، فلم نجد بدا من اللجوء إلى اللغة الفرنسية التي أعترف أنّي لم أكن أتقنها!

-لقد اختارت هاتان الجارتان سبيلا غير سبيلنا في حقل اللغة. اختارتا طريق الود والإخاء، واخترنا نحن سبيل الخصام والعداء. واختارتا سبيل الرشد والحق، واخترنا نحن سبيل الطيش والحمق.

-أفهم من كلامك هذا أنك لا توافق على بقاء اللغة الفرنسية في بلادكم مع أنها تبدو متجذّرة في أعماق مجتمعتكم؟

-ليس هذا ما أعنيه، إذ لا شيء في الدنيا أجهل من التنوع، ومن امتلك ناصية لغة امتلك كنوز ثقافة وحضارة.

اللغة، يا صديقتي يا وفاء، نافذة نطل من خلالها على شعوب الدنيا وتبين ثقافات وأمجادها. فالمشكلة، يا عزيزتي، هي أننا ازدرينا لغتنا، فدفعنا لذلك ثمنًا باهظًا، إذ أننا اليوم الشعب العربي الوحيد الذي لا يتقن لغته العربية ولا لغة أجنبية، ولا يدرك حتى هويته اللغوية!

ليتنا حرصنا على تعلّم العربية واللغات الأجنبية معا..

ليتنا كنا مثل شعوب أخرى في العالم لم تمتزج ألسنتهم ولم تختلط الأمور عليهم.. سويسرا، يا صديقتي، يتقن أبنائها الفرنسية والألمانية والإيطالية وهم في مجتمع صغير موحد رغم اختلاف لغاته. إذ ليس العيب في وجود عدة لغات في البلد، وإنما في عدم إتقان أي لغة للأبد! وتلك هي حال هذه البلاد لسوء الحظ.

وما أضيق خيال قوم اختلطت المفاهيم اللغوية في أذهانهم حتى صاروا لا يميّزون اللغة من الدين مع أنّ مفهوم اللغة موضح

في كلِّ معاجم الدنيا، جليَّ جلاء الشمس الساطعة في السماء، لا اختلاف فيه ولا جدل ولا هم يحزنون. فهذا هو معجم (كوينز) الإنجليزي يقول في تعريف اللغة: «هي وسيلة اتصال مكونة من أصوات ورموز مكتوبة يستعملها البشر في بلد من البلدان أو منطقة من المناطق للتحدث والكتابة.» معاجم الدنيا على أشكالها أجمعت على وصف اللغة بوسيلة تواصل لأنها كذلك، وأمم الدنيا بأسرها نظرت إليها على أنها كذلك إلا نحن فقد اخترنا الخروج عن هذه القاعدة، فقرنا اللغة بالدين والدين باللغة ورميناها في خندق واحد ولم نعد نميِّز بينهما! فكلما ارتكبت الذنوب باسم الدين، وُجِّهت أصابع الاتهام إلى الدين واللغة معاً، واللغة بريئة من كلِّ إثم!

-لعل ذلك نابع من العلاقة الوثيقة بين الدين واللغة. فالإنسان يحتاج إلى اللغة لممارسة الأديان. فهو يستخدم اللغة لأداء الصلاة وإلقاء الخطبة والقيام بالدعوة وغير ذلك. بلا ريب ما أثار هذه المسألة هو خطابات الكراهية التي يُضْرَمُ لهيبُ نيرانها في بيوت الله بلغة العبادة ولغة القرآن وهي اللغة العربية.

-أشاطر ك الرأي إلى حدّ ما. فالكراهية شعور يغزو نفوس السفهاء والضعفاء من البشر، فيتعاظم أمره، ويتفاقم دأؤه، فيطبع على قلوبهم وأبصارهم غشاوة، فتسوّد الدنيا في وجوههم، فلا يرون فيها غير الظلام والباطل والشرّ والعدوان. ما أقصر أنظار هؤلاء، فهم لا يرون بشرا في الدنيا بجوارهم، ولا يقبلون أفكارا مختلفة عن أفكارهم، ولا يؤمنون بمبادئ غير مبادئهم. تمتلئ قلوبهم قساوة وجفاء، وتفيض حقيدة وعداء، فتساقط من أفواههم، وتتناثر من حبر أقلامهم حمم الثلب والسبّ والإهانة والوعيد، وتتلاطم في نفوسهم أمواج الهواجس العاتية، فتحملهم وتحمل تلاميذهم وأتباعهم ومن يتأثر بهم على اقتراف أبشع الجرائم في حق البشرية.

-صدقت، وغالبا ما يحارب هؤلاء الحضارة والإنسانية باللغة العربية بخطاباتهم ومنشوراتهم، وبالتالي، فاللغة وسيلتهم وسلاحهم، فلا سبيل إلى تجاهل أثرها! فأنت الآن بلا ريب تقدر موقف هؤلاء الذين يؤاخذون اللغة؟

-ليس تماما يا صديقتي. فهؤلاء المتشددون الذين تحدثنا عنهم لا يحاربون القيم الإنسانية والحضارية بلغتهم وإنما بأفكارهم. ومن

يتغافل عن الأفكار وينشغل باللغة، فهو كمن يتغافل عن الصفوة وينشغل بالرغوة، أو كمن ينظر إلى ظاهر الشيء بدلا من باطنه، وكثيرا ما تكون المظاهر كاذبة خادعة!

انظري إلى الطبيعة من حولك يا صديقتي وستأكدين حتماً مما أقول. فالأفعى لا تحتاج إلى لغة لتلدغ ضحيتها في الطبيعة! فهي تربص بفريستها وما أن تنهياً لها الفرصة حتى تنقض عليها، وتغرز نابيها فيها، وتقتلها في صمت رهيب.

عجبت لمن قرن اللغة العربية بالجريمة والأصولية، لو نطقت العربية لتبرأت من كل ذنب في حق البشرية، ولقالت الذنب ذنب البشر وأفكارهم ومواقفهم الشخصية، ولدافعت دفاعاً مستميتاً عن الحضارة والإنسانية.

عجبت لمن لامها ورماها بالتعصب والإرهاب، وهي بريئة من كل اتهام أو عتاب! ما ذنب اللغة العربية في كل ما يُقترف من جرائم وذنوب في أنحاء الدنيا؟! ليست الجرائم، يا صديقتي، من تدبير اللغة وإنما عقل الإنسان. فاللغة لا تملك عقلاً مدبراً حتى تتهم وتهان! اللغة مثل اللوحة الزيتية، والألفاظ التي نتفوه بها ونكتبها،

نحن الذين نختارها ونجمعها للتعبير عن مشاعرنا وأفكارنا، تماماً مثل الألوان التي يرسم بها الفنان لوحته الزيتية، فهو الذي يختارها ويمزجها ببعضها ويصنع منها ما يشاء من المناظر والأشكال. فتبدو قائمة متشائمة تارة وزاهية متفائلة تارة أخرى انعكاساً لما يختلج في صدره من أحاسيس.. ليس كما تشتتهي هذه الألوان، لأنّه ليس لها أرواح ولا أذهان، وإنما كما يشتهي صاحبها الفنان.

إنّ هذا الإنسان الذي يقرن اللغة العربية بالتعصب قصير النظر، بليد الفكر، سقيم البرهان. فهل نسي هذا الإنسان أنّ اللغة العربية لا تقتصر على ديانة واحدة؟! فالعربي المسيحي البريء المؤمن بالمحبة والإنسانية والتسامح هو أيضاً يصلي في كنيسته وبيته، وفي جهره وسره، ويتواصل مع غيره باللغة العربية!

وهل نسي هذا الإنسان فضل العرب المسيحيين على اللغة العربية ودورهم في حفظها وإثرائها؟!

وهل نسي هذا الإنسان أنّ الأب بطرس البستاني أسس أول مدرسة عربية حديثة وصنّف أول معجم عربي مطول بعنوان «محيط المحيط»!

وهل نسي أنّ الأب لويس معلوف صنّف أول معجم عربي مختصر بعنوان «المنجد»؟! وهل نسي هذا الإنسان فضل جرجي زيدان مصنف «الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية» و «تاريخ آداب اللغة العربية» و «اللغة العربية كائن حي» وغير ذلك من المؤلفات الرائدة في اللغة العربية؟!

وهل نسي هذا الإنسان أنّ شعراء المهجر المسيحيين من أمثال ميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران وآخرين كتبوا باللغة العربية وبهذه اللغة استماتوا في الدفاع عن الحرية والإنسانية؟!

-أعتقد أنّي الآن مقتنعة بكلامك إلى حدّ ما.. فاللغة تبقى مجرد لغة ومجرد وسيلة تواصل ومجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار. وتبقى العلاقة بين اللغة والأفكار مماثلة للعلاقة بين السيارة وسائق السيارة، فإن صدمت السيارة صبيّا بريئاً كان يحاول اجتياز الطريق، فاللوم لا يقع أبداً على السيارة وإنما على السائق الذي اختار قيادة السيارة بسرعة جنونية! فعند الحديث عن التشدد الديني، فاللوم يقع أساساً على الأفكار المتشددة والأفكار المتخلفة والأفكار الجنونية وصاحب هذه الأفكار وليس اللغة، وسيلة

التعبير والتواصل. ولو أنّ استخدام هذه اللغة في المساجد وأماكن أخرى لنشر الكراهية والتحريض على التفرقة والعنف وإطلاق النار على الأمم المتحضرة قد يعرضها للقصف والأذى، تماماً مثل المسلحين الذين يحتمون بالدروع البشرية ويطلقون قذائفهم من أماكن آهلة، يعرضونها كافة للقصف والأذى ولا مفر من ذلك أحياناً. فالإنسان يردّ على القصف من حيث أتى وبكل الوسائل أحياناً لردع الخطر والبقاء.

لكن في تصوري بعض العرب يستهين بلغته العربية لأنه يعتقد أنها ليست في منزلة لغات الأمم المتحضرة مثل الإنجليزية والفرنسية. فقد رماها بعض المفكرين والأدباء بالعقم والعجز. وبعض الأدباء العرب تخلّى عنها وراح يكتب بلغات أجنبية معتقداً أنها لا تسمح له بالتعبير عن مواضيع مثل الجنس. فهل هي حقاً عاجزة عن التعبير عن الجنس؟ وهل هي عاجزة عن ذلك إلى حدّ الانصراف عنها إلى غيرها؟! فما رأيك في ذلك يا أستاذ وأنت من أهل اللغة - دراستها وتنشر أبحاثاً فيها؟

-أغرب من هذا الكلام في حق اللغة ما سمعت في حياتي. العجز الجنسي من أمراض البشر وليس اللغة! هلاً أرسل لي هؤلاء بعض

النصوص الجنسية التي شغفوا بكتابتها باللغات الأجنبية وعجزوا عن التعبير عنها باللغة العربية؟ فأنا لا أشكّ مطلقاً في قدرتي على ترجمتها أفضل ترجمة إلى العربية، وبلسان فصيح صحيح، يمنعهم من تكرار مثل هذا الكلام البليد! أيعقل أن تعجز اللغة العربية عن وصف ما يخطر ببال الأديب وابن خالويه من قبل اجتهد فوجد في بحرهما أكثر من ستمئة كلمة في وصف حيوان واحد هو الأسد! وما هو كتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر» للشيخ أبي عبد الله محمد النفزاوي يعرض أوصاف المرأة التي كانت تداعب خيال الرجل العربي، فهي: «كاملة القد، عريضة، خصيبة، كحيلة الشعر، واسعة الجبين، زجة الحواجب، واسعة العينين في كحولة حالكة وبياض ناصع، مفخمة الوجه، أسيلة ظريفة الأنف، ضيقة الفم، محمرة الشفائف واللسان، طيبة رائحة الفم والأنف، طويلة الرقبة، غليظة العنق، عريضة الصدر، واقفة النهود ممتلى صدرها، معقدة البطن وسرتها واسعة، عريضة العانة، ممتلئة لحمًا من العانة إلى الأليتين، ضيقة الفرج، ليس فيه ندوة، رطب سخون تكاد النار تخرج منه، غليظة الأفخاذ والأوراك ذات أرداف ثقال، وأعكان وخصر جيد، ظريفة اليدين والرجلين، عريضة الزندين، بعيدة المنكبين، عريضة الأكتاف، واسعة المخرم، كبيرة الردف»..

كتاب الروض العاطر الذي نكاد لا نرى له أثرا في مكتبتنا العربية يعدّ من أكثر المؤلفات الكلاسيكية العالمية جرأة وإثارة وتشويقا، لا يضاهيه في ذلك إلا كتاب (كاما سوترا)، وفيه من الأوصاف الجنسية ما لا يخطر ببال خصوم اللغة العربية! دون أن ننسى كتاب ألف ليلة وليلة ومؤلفات حديثة كثيرة. ودون أن ننسى الروايات الرومانسية الغربية المترجمة إلى اللغة العربية. فإن كانت قصص الجنس تُترجم من اللغات الغربية إلى اللغة العربية من غير صعوبة، ووجدنا نحن صعوبة في التعبير عن الجنس ووصفه، فهل العيب في لغتنا أم فينا؟!!

لا، لا، فأغرب من هذا الكلام والالتهام في حق هذه اللغة ما سمعت ولن أسمع في حياتي!

(١٣)

يلجُ البيت في ساعة متأخرة بعد يوم طويل وشاقّ في العمل. ولا يكاد يفتح الحاسوب حتى يترأى له وابل من الرسائل المستعجلة من وفاء تحثّه فيها على الاتصال بها في أسرع وقت ممكن، بعد أيام طويلة من الفراق. فيعجل بالردّ عليها وهو يبدو حائراً، منشغلاً بالبال:

-مرحبا أستاذة وفاء! شغلّتنني! هل أنت بخير؟!

-لا بأس، لا بأس، فلا تقلق! كلّ ما في الأمر أن الأحداث الأخيرة التي هزّت أوربا والعالم راعتني وهزّت مشاعري وشغلت فكري، فشعرت بالحاجة إلى التحدث مع أحد، ففكرت في الاتصال بك. فأنت الآن لعمري أقرب الناس إليّ، وأعزهم على نفسي. حال الدنيا هذه الأيام لا تبعث على الاطمئنان! والوضع ما برح يقلقني ويؤرقني!

-صديقتي الغالية، أرجو لك السلامة والعافية. أما عن الدنيا ومتاعها التي لا تنتهي، فكيت وكيت منها! والله قلقت عليك بعدما بلغتني منك كل هذه الرسائل على غير العادة تحثني على الاتصال بك على عجل. خشيت أن تكون قد نزلت بك نازلة، أبعد الله الشر عنك. وإذا بك لا تشتكين من حالك وإنما من حال الدنيا من حولك! وهل هذه المتاعب جديدة عليك يا وفاء! هي لا تنفك تثقل كاهل الدنيا والإنسان معها منذ الأزل حتى أنها باتت سمة من سمات الحياة فيها، ولونا من ألوانها، وشكلا من أشكالها، وشيئا من ذاتها، لا نميزها منه ولا نميزه منها..

المتاعب، يا عزيزتي، نبضة من نبضات الحياة تراقص على مسرح الدنيا مع نبضات العسر واليسر، والخوف والأمان، والكذب والصدق، والقبح والجمال، والشر والخير، والتي لا معنى للحياة من غيرها ولا غنى لها عنها ولا بقاء لها ولنا جميعاً من دونها..

الدنيا بحر، والبشر صخور منتشرة في أرجائه وعلى شواطئه، ومتاعب الحياة أمواج عاتية، تراقص في عرضه كالأشباح، تداعب الصخور حيناً وترطم بها أحياناً، فتعذب بها كما يلحوا لها. وما أكثر

هذه المتاعب يا وفاء.. فلكثرتها وسعة انتشارها، لا يكاد يخلو منها مكان في العالم، ولا يسلم من شرها أحد من بني آدم!

فَلَمْ أَشْغَلْ بِأَلِيٍّ بِمَتَاعِبِ الدُّنْيَا هَذِهِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي! وَمَاذَا بَوَسَّعِي أَنْ أَفْعَلَ أَنَا إِنْ كُنْتُ نَفْسِي مُثْقَلًا بِالمُشَاغِلِ وَالْمُشَاكِلِ، عَاجِزًا عَنْ إِصْلَاحِ حَالِي! لَا، لَا، آسَفُ، لَسْتُ أَبَالِي! فَمَتَاعِبِ الدُّنْيَا آخِرُ مَا يَشْغَلُ بِأَلِيٍّ!

- ما هذا الذي أسمع! الدنيا دنيانا! إنها لنا ونحن لها! فهي حتماً تهمّنا جميعاً! وإن تبراُنا كافة من مسؤوليتنا نحوها، فبالله عليك من هذا الذي سيسفق عليها وبعثني بها، ويهرع لإنقاذها وإصلاح أوضاعها بدلاً منّا! لا، لا يمكننا الانشغال بأنفسنا وأغراضنا ومصالحنا والتخلي عنها! الدنيا سفينة كبيرة نبحر جميعاً على متنها، وسلامتها تعني سلامتنا. وإن لم نحسن صيانتها والحفاظ عليها غرقت وهلك كلّ من عليها!

- حقّ ما تقولين، لكنّ علام كلّ هذا الاهتمام بها وبمتاعبها فجأة؟ ما سمعتك قطّ تتحدّثين عن الدنيا وحالها ومتاعبها بمثل هذه الإثارة والتأثير معاً! ما الذي غيّرَكَ فجأة وصرف بالك إلى هموم الدنيا التي لا أوّل لها ولا آخر؟!!

-عجيب أمرك أنت اليوم يا أديب! أنت يا صديقي كاتب عملاق، طبق صيته الآفاق، ولك ما لا يحصى من العشاق! فإن خاطبتهم نصتوا، وإن دعوتهم لأمر انصاتوا. فلم لا تساهم في خدمة البشرية بقلمك؟! فالقلم أنجع من السلاح الناري، وأنفع لكل فئات البشر! ما تنشره من مواضيع في منابر التواصل يصل إلى عشرات الآلاف خلال ساعات قليلة! فاكتب شيئاً أرجوك!

-أفهم ما تقولين، لكن لا أفهم لماذا تقولين لي هذا الكلام الآن! ما الذي طرأ في الدنيا فجعلك تتحدثين وتُلحّين هكذا؟ ثم، ماذا تريدني أن أكتب؟!

-وا أسفاه! ألا تدري ماذا حصل؟! العالم اليوم في صدمة وحزن وأنين، ولا يبدو لذلك أثر فيك أو في صفحتك ومنشوراتك مثلما أرى! وكأنّ الأمر لا يعينك على الإطلاق!

لا، لا سبيل إلى الصمت ودماء الأبرياء من أنصار الحرية تجري في أحياء العاصمة الفرنسية، على أيادي أعداء الحق والحرية والديمقراطية!

-أظنني فهمتُ الآن ما تقصدين! لشدّ ما تألّمتُ لأرواح سقطت في سبيل أفكارها ومواقفها ودفاعها المستميت عن مبادئ الحرية والديمقراطية والحضارة في أنحاء المعمورة. وكيف لنفس أن تقتل نفساً لأنها اختلفت عنها في العقيدة والتفكير؟! لقد شاء المولى القدير أن نكون شعوبا وقبائل مختلفة في العرق واللون، والذوق والنظرة إلى الكون. ولو شاء باري الكون غير ذلك، لخلقنا أمة واحدة وفي صورة واحدة، بل وجمعنا في جسد واحد وفي نفس واحدة! وبأي حق، وبأي منطق تُقتل النفسُ التي عظمها عزّ وجلّ ورفع مقامها إلى مستوى البشرية برمتها في قوله تعالى: «مَنْ أَجَلْ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ.» (المائدة: ٣٢)

لا أفهم لماذا يسفك الناس دماء بشرٍ مثلهم في سبيل الله. فالله، مثلما أراه، أعظم من أن يحتاج إلى جنود يقاتلون في سبيله، ويسفكون دماء الأبرياء إعلاءً لكلمته. أليس الله على كل شيء قدير! وهو أرحم من أن يعاقب بشرا خرجوا من أرحام غير مسلمة، لها دينها ومنطقها وحريتها.

فإنّي حتّمّا أتألّم لسقوط تلك الأرواح البريئة، مثلما أتألّم لانتهاك حرمة المساجد والكنائس والمعابد، وإهانة المقدسات، والاستخفاف بالمعتقدات.

- أفهم ما تقول، لكن هذا لا يردّ على سؤالِي!

- وما سؤالك إذا؟

- إذا كنت من أنصار الحرية والحضارة كما قلت، فأين الدليل على ذلك في كتابتك؟ فأنا لا أرى شيئاً من ذلك في صفحتك! لا أرى فيها اسم «شارلي»، ولا أثراً للحزن والألم وخيبة الأمل! لكنك إن نظرتَ إلى صفحتي وجدتها مرآة تعكس مشاعري وأفكاري التي غشيتها غيوم الشجن وخيمت فيها أشباح الحداد!

- لا، لم يُخفَ عليّ ذلك. فقد رأيت ظلال الحزن تحيّم على صفحتك وصفحات أخرى في شرق الدنيا وغربها، تكتسيها حلّة سوداء قائمة تبثّ في نفوس الناظرين الشجن والهّم والتشاؤم، وترفرف في أجوائها شعارات <أنا شارلي> بكلّ لغات الدنيا. تقابلها من هنا وهناك صفحات أخرى معارضة مناقضة لها، لم أعد أقوى على

تميزها من بعضها لشدة تشابهها بعد أن ملأها أصحابها بصور
سوداء كُتِبَ فيها باللون الأبيض أو الأخضر عبارة «أنا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم» وما شابه ذلك...

ما أشاهده الآن باختصار، يا صديقتي، هو انقسام العالم إلى فريقين
متناحرين: فريقكم المتحرّر المدافع عن حرية التعبير، وفريقهم
المحافظ المدافع عن الدين. وإن اختلفتم عنهم في العقيدة والتفكير،
فإنكم في الواقع تشتركون معهم في أمور كثيرة.

- كلامك هذا ليس منطقياً! فتفكير هؤلاء البشر يختلف عن
تفكيرنا اختلاف الليل والنهار، واختلاف فصل الشتاء القار
وفصل الصيف الحار! هم التخلف والدمار، ونحن الحضارة
والازدهار! فستان، شتان!

- بل تشتركون معهم في أشياء كثيرة وأنتم لا تدرون! تشتركون
معهم في تعصبكم جميعاً لآرائكم، وتشبّكم بمواقفكم، واعتقادكم
المفرط أنكم على حقّ وخصومكم على خطأ، وأنكم الأحق
والأعدل والأفضل، وأنّه لا سبيل إلى الحق والفلاح في الحياة غير
سبيلكم، ولا هدي غير هديكم، ولا مرشد في الكون غيركم، ولا

كلمة أعلى من كلمتكم، وأنه لا مجال للتعايش مع مَنْ كان في تفكيره أو عقيدته مختلفاً عنكم، ولا حياة بجواركم لمن حاد عن سبيلكم أو انصرف عن ملتكم أو خرج عن طاعتكم! فتعصّبكم لأفكاركم، لعمرى، لا يقلّ سوءاً عن تعصّبهم لمواقفهم. إنّه صراع مرير حامي الوطيس تندلع من براكينه هم الحقد والعدوان والعنف، يخوضه من هو متعصّب للدين من أمثالهم ومن هو متعصّب للحرية مثلكم.. وبئس التعصّب! فالتعصّب تعصّب سواء كان للدين أو لغيره، ومهما كان شكله أو مصدره أو الغرض منه.

- يا صديقي هؤلاء البشر لا يؤمنون حتى بأبسط حقوق الإنسان.. حرية التعبير! فبالله عليك كيف يمكننا التعايش معهم!

- تقولين لا يؤمنون بحرية التعبير، وماذا تعني لك «حرية التعبير» يا ترى؟ أرجو ألا تنزعجي من السؤال، فهو من باب الفضول ولوضع النقاط على الأحرف.

- لا، لن أنزعج طبعاً! لعلّ أبسط تعريف لكلمة «حرية» هو قدرة الفرد على التصرف دون قيود، وحقه في التعبير عن أفكاره.. والحرية، كما أراها، عنصر حيوي لا غنى لنا عنه في الحياة، فهي

مثل الهواء الذي تتنفسه، أو الماء الذي نشربه، إذ لا حياة لنا من غير ذلك.

- ما قلته شيء عظيم لا جدال فيه! لكن هل معنى ذلك الاستخفاف بخلق الله، والاستهانة بالمعتقدات وإهانة المقدسات؟! لا، لا يمكن أن يكون ذلك مفهومها الصحيح! فالإنسان لا يعيش وحده في الخلاء، يصرخ فيه كما يشاء، ولا يبالي بأحد! الإنسان، يا وفاء، يعيش في المجتمع! فلا بد له أن يحسن التعايش مع البشر من حوله، وأن يراعي مشاعر غيره حتى وإن اختلف عنهم في الأفكار والمعتقدات والرغبات وغير ذلك.

لو نطقت الحرية لعابت على هؤلاء البشر عبثهم بها وبمفهومها لأجل مقاصدهم ومصالحهم. إن تحدث بعضهم عن الحرية فهو يتحدث عن نفسه، وإن دافع عنها فهو لا يدافع إلا عن مصالحه، وهو في الواقع لا يحفل بالحرية ولا بشيء من حوله!

لقد حان الأوان ليطهر الإنسان مبدأ الحرية من رجس الأنانية.. أجل، يا صديقتي يا وفاء، لا بد أن يعيد الإنسان النظر في مفهومها، فالمفاهيم والحقائق ليست ثابتة، فهي كلها أحكام من صنع الإنسان، قابلة للمراجعة والتغيير في أي لحظة.

الحرية لا توزن بميزان الشهوات والرغبات والمكاسب وإنما بميزان المنطق والعدل والإنسانية. وإنّ سلامة المجتمع واستقراره وتآلف قلوب أفرادهِ اعتباراتٌ لها وزن يفوق وزن حرية فرد واحد في هذا المجتمع. فإن كان القانون يحمي الإنسان من مضايقة الرفقاء وإزعاج الجيران، فكيف لا يصون مشاعره ومقدساته من الاستفزاز والعدوان؟!

-أنا صراحة لا أرى ضرورة للتعدي على المقدسات أو السخرية منها، لكن لم يأخذ هؤلاء الأمور بجديّة وحساسية أكثر من اللازم! ثم، الحرية ليست فستاناً يخاط حسب مقاس هذه الطائفة من البشر، حتى نقيّد الحريات التي لا تليق بمعتقداتهم وأفكارهم! لا، لا جدوى من الخوض في موضوع الحرية مع بشر لا يؤمنون أساساً بمثل هذه المبادئ ولا ينصاعون إلّا لما تمليه عليهم الأحكام الدينية القديمة والأصولية المجرمة! ألا تشاطرنى الرأي أستاذ؟! ...

ويمسك خالد عن الحديث كأنّها يفكّر، فتتابع الفتاة حديثها:

-فماذا قلت أستاذ؟! لم سكت؟! يبدو أنّي نجحت في إقناعك إلى حدّ ما!

فيردّ عليها بامتعاض:

- إقناعي؟! بماذا؟! بكلام طائش؟! لا، لا أعتقد ذلك! الظاهر أنّ العيب فيّ أنا لأنّي وثقت بك وصادقتك وصرفتُ وقتي الضيق الثمين في الاستماع إليك، وإذا بك ترددين ما لا معنى له! لا أدري لماذا وافقتُ على الخوض في موضوع كهذا معك! يؤسفني أن أقول إنّك غيبنة الرأي، ضيقة الخيال. حسبتك ذكية وإذا بك أبله من الحُبّارى، وخلتك مثقفة وإذا بك أجهل من عقرب! تبّاً لك وتبّاً للوطن الحقير الذي أنجبك!....

- ماذا؟! أنا ضيقة الخيال؟! وأجهل من عقرب!!! أنا بلهاء وجاهلة؟! كيف تجرؤ على شتمني وتشتم بلدي؟! وأنت من تكون؟! قل لي من تكون!! أعتقد أنك ملاك من الملوك؟! كلا!! لست شيئاً!! أنت رجل مغرور وجبان ومعقد ومتخلف ولا تساوي شيئاً!! لو كنت أمامي الآن لصفعتك لأؤدبك!! سأقطع صلتي بك!! لا أريدك ولا أرغب في شيء منك!!

- هوّني عليك! أغضبتِ إلى هذا الحدّ؟!

-والله لا أفهم هذه الوقاحة!!! كيف تجرؤ على شتمي وإهانتني
وبعد ذلك تسألني سؤالك السخيف هذا ما إذا كنت قد غضبتُ
إلى هذا الحد! وداعاً!!!...

-لا، لا! هوني عليك ولا ترحلي أرجوك أستاذة وفاء! فأنا كنتُ
أمزح! أجل كنت أمزح معك لا غير!

-تمزح معي!!! أنا آسفة، لن أسمح لك بأن تهينني على هذا النحو،
ثم تقول كنت تمزح معي!!

-لم أكن أقصد كلمة مما قلته! تكلفت ذلك لاختبرك وأتبيّن ردّك!
-ماذا؟! تمتحنني أنا؟! ولماذا؟!!

-أجل، أمتحنك أنتِ لأرى ردّك لأنك ألححتِ في الدفاع عن حرية
التعبير! فعبرتُ عن نفسي من غير قيود، وهاجمتك بغير تحفّظ،
ورميتك بالغباء. ففار فائرك فأقمتِ الدنيا وأقعدتها، فرميتني
بالغرور والجن والتخلّف ولست أدري ماذا! وكنتِ ستنهالين
عليّ ضرباً لولا أنّي لحسن حظّي بعيد عنك! هههههه...

-الآن فهمتك. وإني أعتذر إليك مما قلته لك في لحظة غضب.

-العفو، العفو! أنا الذي اخترت أن أمتحنك، فلا بد لي من تحمّل النتائج وتقبّل ما تقولين بصدر رحب! ثم، إني كنت أتوقّع منك مثل هذا الرد بعد أن استفزتك! فلم يفاجئني ما سمعته منك! أحببت أن أشعرك بشيء مما يشعر به البشر من حولنا إن تعرضوا للإهانة والسخرية، سواء تعلّق الأمر بدين أو بأي شيء آخر في حياة البشر. إذ أنّ ما نشعر به عندما يهيننا أحد أو ينتهك عرضنا شبيه بما يشعر به المؤمنون في شتى الديانات عندما ينتهك أحد رموزهم الدينية. إنها طبيعة بني آدم، فالمرء لا يرضى الإهانة لنفسه ولا لأقرب الناس إليه، ولا يرضى بالتعدّي عليه ولا على ممتلكاته، وإن تعرّض لذلك أقام الدنيا وأقعدها، فكيف يناقض نفسه بنفسه، ويرضى بذلك لغيره؟! فإن فعل فهو لا يحب إلا نفسه، ومن يحب نفسه ولا يحب أخاه وصديقه وجاره وعابر السبيل والقريب والغريب، ولا يراعي مشاعر بشر مثله، فهو أبعد ما يكون عن القيم الإنسانية النبيلة. وإن اعتقد أنّه يؤمن بالإنسانية أو حاول إقناعنا بذلك، فهو بكل تأكيد يخادع نفسه والعالم من حوله، وقد لا يدري!

الإنسانية والأنانية خطان لا يلتقيان أبداً يا وفاء! فمن رغب في دخول فردوس الإنسانية، عليه أولاً أن يطهر نفسه من دنس الأنانية.

- لا أعتقد أننا نختلف في الرأي كثيراً، أستاذ خالد. فالإنسانية هي الإحساس بالآخر والتعاطف معه في لحظات الضيق والألم. وهذا ما نحن نفعله الآن بعد نكبة «شارلي». فنحن كنّا اليوم «شارلي» من باب الإنسانية فحسب. وإنّا لا نرجو من وراء ذلك منفعة ولا شيئاً آخر.

وهل تمنعك إنسانيتك هذه التي تحدثت عنها من أن تكون «شارلي» مثلنا ولو ليوم واحد أو حتى لساعة واحدة؟! أليس التعاطف مع الضحايا من الإنسانية؟!

- بلى، لكن للإنسانية شروط وقيم ومبادئ، إن فقدتها فقدت صفوتها ولم يبق منها إلا رغوتها التي لا جدوى منها، ومن جملة ذلك المساواة والعدل. فمن آمن بالإنسانية إيماناً قوياً صادقاً لا يفضل هذا على ذاك، ولا يدنو من هذا وينفر من ذاك، ولا يحب هذا ويمقت ذاك، ولا يصادق هذا ويخاصم ذاك، ولا يتعاطف

مع هذا على حساب ذاك، كما يحلو له ويخدم أغراضه ومصالحه!
 الإنسانية أنبل من ذلك، فهي قبل كل شيء مساواة وعدل. والعدل
 يقتضي أن أتعاطف مع كل ضحية من الضحايا وليس ضحية
 معيّنة دون ضحية أخرى.. إما أن أتعاطف مع كل البشر وإما لا
 أتعاطف مع أحد.. الإنسانية لا تقبل التسوّق واختيار سلعة على
 سلعة أخرى وتميز بشر من بشر آخرين! الإنسانية أظهر وأنبل من
 ذلك يا وفاء!

إنّي في أعماق نفسي أتحسّر على كل قطرة دم تهرورق، وكل روح
 تسقط، مهما كان أصلها وانتمائها ومعتقداتها وتوجهها.

نيران العنف الجشعة، يا صديقتي، ملتبهة في أرجاء الدنيا منذ
 الأزل، أوقدها بشرٌ ووقودها بشرٌ. أيادي الخمير الحمر في كمبوديا
 بآسيا، اقترفت مجازر عنيفة في حق ملايين البشر بين سنة ١٩٧٥
 و١٩٧٩! وفي جمهورية بورندي بإفريقيا، ارتكب الجيش الوطني
 - وكان جلّ عناصره من قبائل التوتسي - جرائم رهيبة في حق
 قبائل الهوتو سنة ١٩٧٢، وبعدها بنحو عشرين سنة، ثارت قبائل

الهُوتو قتلها في مجازر وحشية في حق الأهالي التوتسي! وقبل ذلك، أهلك الحرب العالمية الثانية أكثر من ٦٠ مليون شخص أو ما يعادل ثلث سكان العالم! وقبل الحرب العالمية الثانية الحرب العالمية الأولى، وقبلهما حروب ومآس أخرى لا تعدّ ولا تُحصى، تُسقى بدماء بني آدم، ولا يجني منها الإنسان غير الموت والدمار والألم. وما برح طيف العنف يتتاب بني آدم في كلّ مكان. فإن حَدَدْتُ اليوم لـ «شارلي» فمتى أَحَدٌ لأطفال من مختلف الأعراق والألوان والمعتقدات في كلّ القارات يموتون أشنع الميئات بالعشرات والمئات.

إن كنتُ اليوم «شارلي» الفرنسي، فأنا أيضا «خان» الكمبودي، و«جون كلود» البورندي من أصل توتسي، و«كريستيان» البورندي من أصل هوتو، وديفيد وسام من ضحايا تفجيرات لندن يوم ٧ من شهر ٧ سنة ٢٠٠٥ والقائمة طويلة لا أول لها ولا آخر.

ولكثرة مآسي البشر، فإنّي لو لبست الحداد لكل ضحية من ضحايا العنف في الدنيا لما ارتديتُ في حياتي غير ثياب الحداد، ولا رأيتُ في الدنيا غير السواد، ولا احتفلت يوما بعيد من الأعياد.

- أفهم ما تقول، لكن لا أخفي عليك أنني أشعر بخيبة الأمل وأنا أرى كاتباً بحجمك وشعبيتك، ومثقفًا بسعة علمك ومعرفتك، لا يُجِدُّ اليوم مثلاً، ولا يسلك سبيلنا!

- ليس كل من يرتدي سواداً حزيناً، وليس كل من يلبس ثياباً باليةً مسكيناً، وليس كل من يطيل شعر ذقنه مؤمناً أميناً، وليس كل من يحفظ درساً من الدروس عليماً. وكم من امرئ نشاهده ينحُبُّ ويتنفَّس شعره، وهو لا يشعر بذرة حزن أو ألم. وكم من امرئ نراه يمرح ويتسمم، وقلبه يحترق من شدة الحزن والغم.

لشدَّ ما تألمتُ وحزنتُ لمصائبهم غير أنني كتمتُ شجني في صدري، يمتزج بأمواج حزني وحسرتي المتلاطمة في نفسي على كل هذه الأرواح الشقية التي ما فتئت تتساقط في أرجاء الدنيا، كأوراق الشجر في الخريف، بنيران الجشع والحقد والظلم والطغيان. غير أنني، في ديجور حسرتي وحزني وألمي، فقد اخترتُ سبيلاً غير سبيلكم وسبيل خصومكم...

- وهل ثمة سبيل آخر غير هذا وذاك؟!

-أجل، وهذا السبيل أظهر وأسلم لكل البشر. إنه سبيل الإنسانية العفيفة المجردة من ثوب الذات والرغبات وذنس الأنانية والمصلحة. وهذه الإنسانية، يا وفاء، ليست ثياباً يقطعها البشر على مقاسهم وحسب أذواقهم وأهوائهم خدمة لأغراضهم وحماية لمصالحهم. الإنسانية رداء وثير يكفي لأن ينعم بدفته كل البشر، فلا يعاني أحد من صقيع الظلم والعدوان في أي مكان. وهذه الإنسانية لا تفضل أحداً على الآخر، ولا تميز بين البشر لاختلاف الأصل أو العرق أو اللون أو الدين أو الجنس أو اللسان أو المقام الاجتماعي. وهي بذلك مثل الأم الحنون التي لا تستطيع أن تميز بين أبنائها، فكل واحد منهم قريب إليها وجزء من ذاتها. ولن يدرك هذه الإنسانية، يا وفاء، إلا من تخلّص من جاذبية هذه الدنيا وأمواج التوجهات المتلاطمة وهيمنة الذات وأهوائها ورغباتها وشهواتها، والسمو بالنفس عالياً إلى دنيا ما وراء الأفق الأزرق الطاهر النبيل حيث الأمن والسلام، والوئام والانسجام، والأمان والاطمئنان. إنه السبيل الذي لن يزلّ من يتشبّث به، ولن يضلّ من يسير في دربه ويمضي في اتجاهه ويسلكه إلى آخره.

إنَّه السبيل الذي سار فيه من قبلي العظماء من البشر في مختلف الحضارات والثقافات ومن هؤلاء أدباء المهجر في القارتين الأمريكيتين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأخصّ بالذكر أستاذي الرائع ميخائيل نعيمة.

وإنِّي سأمضي في هذه الطريق بلا تردد ولا حيرة ولا خوف، ولن ألتفت إلى الخلف، وسأفني حياتي في خدمة الإنسانية وزرع بذور المحبة بين البشر إلى آخر لحظة من عمري.

(١٤)

ينزوي في غرفته كعادته، وينشغل هذه المرة في كتابة فصل جديد من روايته الجديدة مع وفاء، يخصصه هذه المرة للحديث عن «تشارلي»، مسجلاً فيه تفاصيل آخر اتصال جمعها وما دار بينهما من حديث ونقاش في موضوع تشارلي والإنسانية والحداد. ويختتم الفصل بما قاله لها في نهاية تلك المحادثة: «لن يدرك هذه الإنسانية، يا وفاء، إلا من تخلص من جاذبية هذه الدنيا وأمواج التوجهات المتلاطمة وهيمنة الذات وأهوائها ورغباتها وشهواتها، والسمو بالنفس عالياً إلى دنيا ما وراء الأفق الأزرق الطاهر النبيل حيث الأمن والسلام، والوئام والانسجام، والأمان والاطمئنان.

إنه السبيل الذي لن يزل من يتشبث به، ولن يضل من يسير في دربه ويمضي في اتجاهه ويسلكه إلى آخره.

إنَّه السبيل الذي سار فيه من قبلي العظماء من البشر في مختلف الحضارات والثقافات ومن هؤلاء أدباء المهجر في القارتين الأمريكيتين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأخصّ بالذكر أستاذي الرائع ميخائيل نعيمة.

وإنِّي سأمضي في هذه الطريق بلا تردد ولا حيرة ولا خوف، ولن ألتفت إلى الخلف، وسأفني حياتي في خدمة الإنسانية وزرع بذور المحبة بين البشر إلى آخر لحظة من عمري.»

وما أن يفرغ من كتابة هذه الكلمات حتى يصرف باله عن روايته الجديدة ويدع لوحه الإلكتروني ويتمدد على سريريه ويعود بخياله إلى الماضي، وبالتحديد إلى حقبة كان يتأهب فيها لنشر روايته الأولى ونفسه تطفح همّة وإثارة وأملاً. كانت له عندئذ تجربة مع فتاة غربية اتصلت به عبر وسائل التواصل بعد أن شاهدت فصولاً من روايته الجديدة كان قد نشرها في صفحته ليشير بها شهية القراء.

فیرتني إبلاغ وفاء بوقائع هذه التجربة وتسجيل تفاصيلها في روايته الجديدة، يطالعها القراء والأجيال من بعده. فيبعث لها برسالة جديدة:

«أستاذتي الفاضلة وفاء \

بينما كنتُ أستاذت لنشر روايتي الأولى، اتصلت بي صديقة جديدة التحقت بقائمة أصدقائي بالفيسبوك.

قالت لي: لا أدري لماذا أشعر بكل جوارحي أنّي أعرفك منذ عهد طويل! ولست أدري لماذا يخيّل إليّ أننا التقينا في مكان ما، في وقت ما في الماضي. وكلما عدتُ بخيالي إلى الوراء، لعلني أستعيد ذكرى ذلك اللقاء، اكتنف الضباب أفكارني، ومنعني من التذكّار!

قلتُ ضاحكاً: لا، لا أتصوّر أننا التقينا في الماضي! يخلق من الشبه أربعين!

قالت مفكّرة: لست أدري.. لكنك لا تبدو غريباً عليّ على الإطلاق... ويبقى هذا الاحساس بالنسبة لي لغزاً محيراً!!

وفي اليوم الموالي، اتصلت فقالت: مررتُ قبل قليل بصفحتك فانبهرت بكتاباتك. فما أروع ما تخطه أناملك! والله لم أر في حياتي لغة أسلم من لغتك، ولا أسلوباً أروع من

أسلوبك، ولا تفكيرا أرقى من تفكيرك، ولا تحليلا أعمق من تحليلك، ولا كلاما أصدق من كلامك، ولا مشاعر أرق من مشاعرك. ولست أردّد هذا الكلام لمجاملتك!

على بساط إبداعك رحلت إلى الماضي فنزلت على طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد والمازني والمنفلوطي ومي زيادة. فاستمتعتُ بأحاديثهم الشيّقة، واستفدت من أفكارهم النيرة. فتمنيت لو بقيت في ذلك العصر طول العمر. ثم عرّجتُ بأمريكا فجالستُ ميخائيل نعيمة وسامرّت جبران خليل جبران. فتمنيت لو بقيت في دنيا المهجر طول العمر...

فقلتُ لها: مهلا، مهلا! الطففي بي وبحالي! فأنا لست متعودا مثل هذا الحديث الحلو كالعسل. فنفسي واهنة عاجزة لا تقوى على احتمال كلّ هذا الكلام الجميل.

أشعر كما لو كنتُ عشبةً صغيرة خرجت إلى الحياة في صحراء قاحلة حيث لفحتني حرارة الشمس وهدّني الظمأ، وإذا بكلماتك المنعشة الساحرة تنهال عليّ كقطرات الماء

من السماء فتحيني من بعد مماتي، كما تحيي قطرات الغيث
الأرضَ المُجْدِبَةَ. وإني الآن أخشى أن يستمر سيل الثناء في
التدفق فينقلب مع مر الوقت طوفانا، يجرفني ويغرقني!
لطالما رددت في كتابتي: «إن راقك شيء من الأشياء، لا
تسرف في الشكر والثناء، فالورد يموت من كثرة الماء.»

في اليوم التالي، بلغني منها خطاب قالت فيه:

«حضرة الأديب!»

صباح الورد والعنبر لأجمل البشر.. ما زرتُ صفحةً غير
صفحتك، منذ حظيتُ بمعرفتك. صفحتك هذه منتهى
طريقٍ ساقطني إليه الأقدار. هي روضة أطيّر إليها ببصري
ووجداني في الليل والنهار. هي نبراس معرفة تشعّ منه
الأنوار. هي نجم وهّاج في ليل حالك تلوح إليه الأنظار.»

واختتمت خطابها:

«إني أحمد الله الذي جمعنا على حب الأدب والمعرفة. وأدعو
الله تعالى أن ييسّر لنا سبل الاجتماع بإذنه لاستكمال أدب

التعارف. وحتى تتعارف بي أكثر روحاً وجسداً سأرسل
لك صورة لي غدا.

تفضل بقبول خالص تحياتي والله يحفظك ويسدد خطاك»

وفي صباح اليوم التالي، بلغتني رسالتها. ما أن فتحتها حتى لاحظت أمامي صورتها. كانت تبدو واقفة في حديقة، ترتدي معطفا طويلا أسود وقبعة صوف رمادية وثيرة. وكانت تنتشر حول قدميها، الملفوفتين في حذاء طويل أسود، أوراق خريف تساقطت من أغصان أشجار شبه عارية منتصبة حولها. بدا وجهها بشوشا، متألئا، أضفى على جو تلك الحديقة الكئيب إشراقا وابتهاجا ودفئا.

بادرتُ إلى الرد عليها أتشكر لها حسن ظنّها وثقتها ووفائها. وإذا بها تردّ بإرسال صورة أخرى لها شدهتُ بها وتحيرتُ.

بدت متمددة في فراش وثير، ترتدي قميص نوم أسود شفافا مشقوقا على جانبيه، ينكشف من أسفله وجانبه ساقاها وقسم من فخذيها الممتلئين.

بدأت في تلك الصورة فاتنة، مثيرة، كأنها عروس تترقب عريسها بتلهّف في ليلة دخلتها. ولو أنّي أعجبت بصورتها الساحرة إلّا أنّي عَجِبْتُ من تصرّفها، واحترتُ في أمرها، ولم أعرف الردّ عليها.

وانقطعت الفتاة الغربية عن مكاتبتني حتى خلتها استاءت مني لتأخري في الردّ عليها. وإذا بها تبادر إلى الاتصال.

وبعد التحية، قالت متعجّبة: أصحيح أنّ الفصل المنشور في صفحتك مقتبس من روايتك؟ قلتُ: نعم. قالت: ويحك! لم تخبرني بذلك من قبل! إنه من أروع ما قرأت في حياتي!

وتابعت: قل لي أرجوك متى تنتهي من كتابة روايتك؟ يبدو أنها أحدثت ضجّة قبل صدورها، فكل العالم يتحدث عنها بعدما نشرت مقتطفات منها، فتحتَ بها شهيتنا لقراءتها!

قلتُ: بعثت بها إلى الناشر وستصدر مع افتتاح معرض الكتاب الدولي في الجزائر في آخر الشهر.

قالت: ممتاز! أكاد أطيّر فرحا لسماعي الخبر! لعمرى سأكون أوّل فتاة تقتنيها في هذا القطر! سأكون هناك في أوّل يوم وفي أوّل ساعة

تعرض فيها! بل سأكون هناك قبل أن تُفتح الأبواب! لا، لن أدع مخلوقاً يسبقني إليها!

انشرح صدري لحديثها، وفاض فؤادي عزة وفخراً لمدحها، وشعرت أن التعارف بشخص واحد يحمل لي فؤاده كل هذا القدر من الإعجاب والاحترام والتقدير خير من ألف شخص.. وما فائدة ألف صديق إن كنت أفتح موضوعاً للنقاش فلا ألقى منهم تفاعلاً، وأنشر مقالاً ولا ألقى منهم إعجاباً، وأدعوهم لإبداء الآراء في منشور ولا ألقى منهم إقبالاً، وأراسلهم فما أستلم منهم جواباً، وأناقشهم في مسألة وما ألقى منهم إلا عناداً وعذاباً!

وانقطع الكلام يوماً، وتوالت الأيام ولم يبلغني منها شيء. غابت عني فكأن الأرض انشقت وابتلعته، أو كأنها لم تكن!

وشُغِلْتُ عنها مع بداية معرض الكتاب، وانهمكت في الرد على رسائل القراء يسألونني عن روايتي الجديدة وعن مكانها في المعرض. وما زلت أفحص رسائلهم وأردّ على استفساراتهم حتى وقع بصري على رسالة جديدة منها. قالت: ما أحلى روايتك أيها

الأديب! يا لأسلوبها ما أجمله! ويا لمضمونها ما أصدقه! ويا لحسك فيها ما أرففه!

فقلتُ لها متعجّبا: هل اقتنيت الرواية من المعرض؟!

قالت: بالتأكيد! ولم أكتف بنسخة واحدة، فأنا من شدّة ولعي بها اشتريت منها نسختين. يشهد الله أنّي ترقّبتها على أحرّ من الجمر! قصدتُ المعرض في ساعة مبكرة يوم افتتاحه رفقة زميلاتي. هن شُغلن بالبحث عن كتب الطبخ وتفسير الأحلام والسيرة النبوية، أما أنا فقد كان شغلي الشاغل روايتك. كدتُ أطير فرحا وأنا أخيراً أمسك روايتك بين يدي! ولو أنّي بعد ذلك شعرت بشيء من الحزن لأنّي لم أحظ بلقائك في المعرض ولا بتوقيعك نسختي!!

قلتُ لها: أعتذر لك من صميم فؤادي، فغيابي عن المعرض لم يكن بيدي. لكن، لا تحزني فنحن لم نخسر شيئاً بعد. سأوقّع لك النسختين بمجرد عودتي إلى الوطن عن قريب إن شاء الله. وسأعتنم الفرصة لأردّ لك ثمنهما حتى تكونا هدية بسيطة مني لك تقديراً لصدافتك ووفائك وحرصك على اقتناء روايتي وقراءتها.

قالت: لا، لا... إياك أن تقول لي شيئاً كهذا ثانية وإلا غضبت منك وخاصمتك! لا يهمني المال، ولا الجاه، ولا السلطة. ما يهمني، هو قراءة رواياتك، والاستفادة من علمك ومعرفتك وتجاربك في الحياة.

فقلت: أدعو الله أن يوفقني لأن أقدم دائماً ما هو أفضل وأنفع، ولأسهر على خدمتكم، ولأن أكون عند حسن ظنكم.

وتريتُ قليلاً ثم أضفتُ: لكن، قولي لي: هل شرعت في قراءة الرواية؟

قالت: ماذا تقول؟! شرعتُ في قراءة صفحاتها الأولى قبل أن أغادر معرض الكتاب بعد! وفرغت من قراءة فصلها الأول المشوّق وأنا في الأتوبيس في طريق العودة إلى البيت! وبعد العشاء، خلوت بنفسي في غرفتي واستغرقت في القراءة إلى ساعة متأخرة رغم ما كنت أشعر به من عناء.

ساحرة روايتك هذه يا أستاذ! كلما قرأتُ منها فصلاً من الفصول، ثار فضولي، وتاقت نفسي إلى قراءة ما يلي! وكلما قرأت صفحة

منها زاد شغفي بها، وتعلقي بقصّتها، وانبهاري بأبطالها، وإعجابي
بكاتبها! لستُ أغالي إن قلت لك ما رأيت عيني بعد أروع منها،
ولا سمعت أذني أجمل من رنة عنوانها. وإني من خلال صفحاتها
اكتشفتُ شخصيتك الراقية وأخلاقك السامية. فيا لعلمك ما
أوسعه، ويا لوجدانك ما أرففه، ويا لكلامك ما أصدقّه!

قلتُ: من ذوقك صديقتي الوفية. إذاً، أي صفحة بلغتِ في قراءتها
الآن إن لم تكوني قد أنهيتها؟

قالت: قرأتها من أولها إلى آخرها مرتين، ولم أشفِ غليلي بعد! فأنا
أرغب في قراءتها للمرة الثالثة.

قلتُ: ما أروعك! ما التقيت في حياتي شخصاً أحرص منك على
قراءة مؤلفاتي! دعيني أسألك سؤالاً من باب الفضول...

-أكيد حضرة الأديب! أكيد! تفضل!

-وأنت تقرئين القصة، من بين شخوص الرواية، من يا ترى
أعجبك أكثر؟...

وانقطع جبل الاتصال بغتة. انتظرت ردّها لكن هذه المرة على غير العادة لم تردّ مع أنّها، حسب تطبيق الماسنجر، شاهدت رسالتي!

فسألتها ثانية: هل أنت هناك؟

وبعد تردد قالت: أجل...

قلت: لماذا إذاً لا تردّين؟ هل أزعجتك بسؤالي؟

قالت: لا، لا، أبداً! لا شيء!...

قلت: إذا ما ردّك إن لم أكن قد أزعجتك؟

قالت: لست أدري.. لست أدري ماذا أقول لك...

فأدهشني سلوكها وأثار فضولي وارتياحي، فكان من الضروري أن استمر في السؤال.

قلت لها: هلاً ذكرت لي أسماء بعض شخوص الرواية؟

وانتظرت ثانية وما لقيت منها رداً.

فسألتها مرّة أخرى: في أي بلدان تقع أحداث روايتي؟

ولم تجبني، فسألتها مرّة أخرى وقد زاد ارتياحي: ما دمتِ قد قرأتِ روايتي كما قلتِ، هلاًّ قدمتِ لي ملخصاً وجيزاً عنها؟ أو ربما إن كان سؤالي صعباً، هلاًّ ذكرتِ لي فقط اسم بطل الرواية أو ربما البطلة، ما دمتِ قد قرأتِ روايتي مرتين، كما قلتِ؟

وانتظرتُ طويلاً ولم ألقَ منها رداً أبداً على أي سؤال!

بعدها قامت بحذفٍ من قائمة الأصدقاء. وفي وقت لاحق، بحثتُ عنها من باب الفضول في كلّ مواقع التواصل الاجتماعي، وما عثرتُ لها على أثر. فقد ألغت المعجبة حسابها ورحلت، فكأنها لم تكن.

كانت هذه يا صديقتي يا وفاء قصة «المعجبة» وفيها عبرة لي ولك وللكل القراء الذين يتابعون قصتنا هذه. نلتقي قريباً في رسالة أو دردشة جديدة.

حماك الله صديقتي العزيزة.

خالد»

(١٥)

يترقب ردها على رسالته. وتمضي الأيام ويطول انتظاره دون طائل. فيشغل ذلك باله، ويشير حيرته وفضوله. فيتساءل في نفسه: لم يأتى متأخر في الاتصال به إن كانت تحيا في مدينة لندن مثله، ومباشرة في الضفة المقابلة لنهر التايمز، على بعد كيلومترات قليلة منه؟! ولم تتردد في ذلك إن كان أحدث الوسائل التكنولوجية متوفراً بين يديها، ولا يأخذ الرد إلا لحظات من وقتها؟! وفي الأخير وبعد صبر طويل، يصله خطابها فيبث الراحة والطمأنينة في نفسه:

«بيروت..»

أستاذي الفاضل خالد،

أعطر التحيات وأجمل الأمنيات أبعثها لك من بلد الأرز والطبيعة الساحرة والطقس الجميل، لؤلؤة الشرق الأوسط لبنان، راجية من المولى عز وجل أن تبلغك وأنت في صحة

وعافية وأمان. أما بعد،

أنا في بيروت منذ فترة لظروف طارئة لأطمئن على صحّة شقيقي الأصغر الذي أجريت له عملية جراحية. وقد بدأ يتعافى من علته والحمد لله. وإني أنوي الرجوع إلى لندن نهاية الأسبوع المقبل بحول الله.

حضرة الأديب خالد.. سعدت كل السعادة بقراءة رسالتك التي حملت لي مفاجأة سارة تمثّلت في فصل شيق ممتع معبر من روايتك المجيدة. سلمت أناملك الرقيقة ولا عدمننا جميل إبداعك أستاذي الرائع. وإني أستعطفك لتبعث لي بفصول واقعية مماثلة قريباً. فلا تتأخر عليّ أرجوك.

أتمنى لك من صميم القلب، مزيداً من التفوّق والتألّق والتميّز في سماء الأدب. ودمت في أمان الله وحفظه.

وفاء»

ها هي رسالة وفاء المفاجئة تطير إليه من الشرق محمّلة بكلمات رقيقة مشجّعة، تبعث في نفسه روح الإثارة والطموح وتغنم نفسه

شغفا ورغبة في مواصلة كتابة قصته الجديدة. فيفتح ملف روايته على لوحه الإلكتروني، وعيناه تشعان بهجة وتفاؤلا، ويشرع في كتابة فصل جديد تدور أحداث قصته في حديقة (ريتشموند) الشهيرة في غرب لندن، يرسله إلى وفاء التي عبرت له عن شغفها بقراءة المزيد مما يكتب:

«حضرة الأستاذة الكريمة وفاء |

أبعث لك بأطيب التحيات وأرقها وأسمى عبارات المودة والاحترام والتقدير.. أما بعد،

لا أخفي عليك، صديقتي العزيزة وفاء، أنني تفاجأت بنبأ سفرك إلى وطنك وإن كان ذلك في واقع الأمر أمراً طبيعياً له ما يبرره في مثل هذه الظروف التي ذكرت. أدعو الله أن يشفي شقيقك من علته، وأن يبعث سيول الراحة والطمأنينة والأمان إلى نفسه، تتدفق في أعماقه، وتسري في أورده، فتطهرها وتنعشها.

كم أنا اليوم سعيد لأجلك يا وفاء! أجل، كم أنا سعيد بمعرفة أنك الآن في أرض الوطن المجيد، تستمتعين بمناظره الخلابة، وطقسه

المعتدل، وهوائه العليل، والجو العائلي الجميل! لست أدري لم لا
أتمالك نفسي من الفرح وأنا أفكر في ذلك، يا وفاء! أشعر كما لو
كنت أنا المسافر إلى الأوطان بدلاً منك، أو ربما كما لو كنت مسافراً
معك، جالساً بالقرب منك، في كنف الأوطان المجيدة وتحت أشعة
شمسها البنفسجية، في أحلى حلم وأجمل أمنية! وسرعان ما أستفيق
من غفلتي، فأجد نفسي حبيساً في قفص الغربة هذا الذي زجني فيه
القدر، تحت الغيوم الكثيفة والمطر!

ما أصعب العيش في هذا القفص بعيداً عن أرض الآباء والأجداد!
وهل ترضى الطيور بالعيش في أقفاص بعيدة عن أوكارها ويبيئتها
وإن كانت أقفاصاً من ذهب؟!!

ما كنت أعلم أنه بعد طول البعاد في المهجر،

سيظلّ الحنين إلى الوطن يمزّق خاطري،

ويعبث بروحي ويهزّ كياني ومشاعري!

حنينٌ طاهرٌ نبيلٌ راسخٌ في أغوار نفسي،

يسري في شراييني ويلامس إحساسي،

ويراقص نبضات قلبي ويداعب أنفاسي.

ها قد أصغيت إلى نصيحتك، يا صديقتي يا وفاء، فكتبتُ هذا
الفصل الجديد من روايتي، وقد وقعت أحداثه في إحدى أكبر
الحدائق في مدينة لندن:

«سرتُ في حديقة ريتشموند في لندن أستمتع بمناظرها الخلابة
وبهدوئها الذي لم تكن تقطعه إلاّ أصوات الطيور المعشّشة في الأشجار
الباسقة المنتشرة في أرجائها، أو تلك المحلّقة عاليا في سمائها.

كانت السماء في ذلك اليوم من أيام فصل الربيع صافية، تتناثر منها
أشعة الشمس البنفسجية، فتمتزج خيوطها الذهبية بألوان الحديقة
الزاهية، فترسم في فضائها الرحب أروع لوحة زيتية.

مشاهد من أجمل ما رأت عيني، لم يعكّر صفوها إلا مشهد فتاة،
بدت من أصول عربية، في أواخر العشرينات من عمرها، رأيته
جالسة على كرسي خشبي مطأطئة الرأس، كاسفة البال، قلقة
الخاطر، كمن تحمل في نفسها هموم الدنيا بأسرها.

دنوتُ منها وألقيتُ عليها التحية، فرحبت بي ودعتني إلى مجالستها. فرحنا نتجاذب أطراف الحديث. وفي أثناء ذلك، حدّثتها عن نفسي وعملي وشغفي بالكتابة. فأبدت إعجابها بمجالسة أديب لأول مرّة في حياتها. كانت تحدّثني بصوت ينمُّ عن شجا عميق في صدرها، مما لفت انتباهي وأثار فضولي.

ترددتُ قليلاً ثمّ سألتها ما إذا كان قد أصابها شيء أزعجها وعكّر مزاجها. وإذا بها تفضي إليّ بأسرار حياتها.

قالت مطأطئة الرأس: إنّه قدرني الذي رمى بي إلى هذه الدنيا، لا أرى فيها غير الظلم والظلام، ولا ألقى فيها غير الشقاء والآلام.

قلتُ: آسف، آسف! آسف لسماع ذلك! وما الذي جرى فألحق بك هذا الألم والتشاؤم، لعلّي أعينك ولو بالنصح؟

رفعت بصرها قليلاً فنظرت إليّ نظرة حزينة ثم أطرقت ولم تنبس. فقلتُ لها باسمّاً محاولاً التخفيف من تلك الأجواء الكئيبة التي ألمّت بمحادثتنا: قد أكتب عن تجربتك هذه فتستفيد منها الجماهير والأجيال القادمة! ألا ترغبين في لعب دور البطلة في إحدى

القصص؟ وإن شئت كتبتُ عنك دون الإشارة إلى اسمك...

ولم تنس الفتاة الحزينة بينت شفة، فسألتها باسمًا: أنا بالمناسبة لم أتشرف بمعرفة اسمك الكريم. فما اسمك أستاذتي الكريمة؟

قالت: أي واحد منهما تريد أن تعرف؟

فقلتُ مستغربًا: وهل لديك أكثر من اسم؟!

فهزّت رأسها: أجل. اسم دعاني به والديّ بعد ولادتي، واسم دعاني به المجتمع فيما بعد...

قلتُ: أخبريني بما شئت.

قالت: الأول هو «رزيقة» اختارته لي والديّ تخليدًا لاسم والدتها رحمها الله. أما الثاني فهو «مزعوقة»...

قلت متعجبًا: مزعوقة؟! أي صنف من الألقاب هذا!

قالت: إنّه اسم على مسمى اختاره لي البشر لأنّي قبيحة المنظر مثلما ترى.

والتفتت نحوي، وإذا بفضولي يحثني على النظر إليها لأتبيّن ما كانت تقول. ففحصت ملاحظتها أكثر من أي لحظة أمضيتُ رفقتها. وإذا بها شعشاء، مبدانة، مبطانة، غليظة الكتفين، جاحظة العينين، يكسو شعر خفيف ذقنها وخديها. فقلتُ في سرّي إنّ المسكينة لم تكن مخطئة عندما قالت إنّ اسم على مسمى.

بدت حقاً قبيحة الصورة، تغصّ عن مرآتها الجفون. لكنني ارتأيتُ مراوغة نفسي، ومخادعة حواسي مراعاة لشعورها ورأفة بحالها.

فقلتُ لها: «لا عيب في شكلك، فلا تهتمّي بما يقوله الناس، فالسنة بعضهم طويلة حادة، تتناول على كلّ البشر ولا ترحم أحداً.

قالت بامتعاض: لو سخر مني بعض الناس لاحتملتُ، وما اكرثتُ. لكنّ الأمر أعظم من ذلك. لم أكد أعني ما حولي في هذه الدنيا حتى سمعتُ لفظ مزعوقة وألفاظاً مهينة أخرى تتردّد على ألسنة أفراد أسرتي. كلما غضب مني إخوتي وأخواتي، أو استاءت والدتي من تصرفاتي، صرخوا في: «أخرجي من الغرفة يا مزعوقة؟!» و«لماذا تركتِ الحنفية مفتوحة يا مزعوقة!» و«لماذا لمستِ أدواتي يا مزعوقة?!» و«لم كسرتِ الأواني يا أبشع خلق الله!» وغير ذلك...

ويا ليتهم ضربوني ضرباً مبرحاً بدلاً من جرح شعوري بمثل هذا الكلام القاتل! وبعد الأهل والأقرباء، أخذت هذه الأسماء تتردد على ألسنة الجيران والأصدقاء والزملاء وكل العالم من حولي. فقد ألفْتُ اسم «مزعوقة» أكثر من اسمي. إذاً، لا! لن أخادع نفسي، فاسمي ليس رزيقة وإنما مزعوقة! ليس الاسم ما يختاره لنا أولياء أمرنا، وإنما ما ينادينا به البشر من حولنا.

قلت: إنَّه لأمر محزن! لكن ما بيدك أن تفعل في مثل هذه الأحوال غير غصّ البصر عن الشر والمنكر والتحلي بالصبر...

فقلت بامتعاض: ولماذا أصبر؟! وإلى غاية متى أصبر؟! لم لا أعيش معرّزة مكرّمة كبقية الخلق؟! لم لا استمتع بحياتي كبقية البنات من حولي؟! لم أصبر على الإهانة والمنكر، والعمر أقصر مما نتصور؟!!

وأطرقت هنيهة ثم رفعت صوتها قائلة وهي تبدو في غاية الانزعاج والأسى: منذ أن فتحت عيني على هذه الدنيا وأنا أسمع المجتمع من حولي يهزأ بي وبشكلي، وبعد ذلك يردد عبارات «إنّ الصبر جميل» و«من صبر نال». فاحتملتُ الاحتقار والمهانة بطول أناتي، طيلة حياتي، وما نلتُ في آخر الأمر إلا مزيداً من الإهانة والمذلة!

وهزّت رأسها وقالت وأمارات الأسى والحسرة مرتسمة على
 محيّاها: الحياة ليست عادلة على الإطلاق! فهذا بديع المحاسن،
 صبيح الوجه، تستحسنه الأنظار، وذاك - مثلي أنا - فظيع المنظر،
 جهم الوجه تستقبحه الأبصار! وهذا سليم البدن يمشي ويجري،
 وذاك معوّق حبيس في كرسي! وهذا بصير يستمتع بمشاهدة مناظر
 الدنيا وألوانها، وذاك أعمى لا يبصر من حوله غير الظلام! وهذا
 ثريّ ينعم بثّتي أصناف المأكولات والمشروبات، وذاك فقير لا يجد
 ما يقتات! وهذه امرأة أكرمها القدر بالبنين والبنات، وتلك عاقر
 تبكي حظّها مدى الحياة! وهذا صبي يحيا حتى يهرم، وذاك صبي
 يفارق الدنيا ولم ير منها شيئاً بعد!!!...

وأمسكت عن الكلام وراحت تفرك يديها قلقاً ثم تابعت بصوت
 حزين: قبل أسابيع شاهدنا جميعاً صور طفل غريق رمت به الأمواج
 على شاطئ (بودروم) بتركيا. طفل منذ أن فتح عينيه على الدنيا لم
 تسمع أذناه إلا دويّ القصف والانفجار والصراخ والعويل. ولم
 تر عيناه غير الدم والدموع والدمار. طفل حرّمته الحياة من فرصة
 الدراسة بعدما هدّ القصف العشوائي مدرسته، وهُدّ معها المسجد
 والكنيسة والمتاجر والبيوت المحيطة ببيته. طفل لا حول له ولا

قوة، حملته ويلات الحرب على مغادرة داره ووطنه. فمضى في سبيله
بحثا عن برّ الأمان والحياة وهو لا يدري أن الموت، الذي تركه في
البرّ خلفه، يتربّص به في عرض البحر أمامه!

ورفعت صوتها متنهّدة: واحسرتاه عليه المسكين! تتلاعب الأمواج
العاتية بجثته الصغيرة البريئة على مرأى من العالم، على بعد أمتار
من مرافق سياحية فخمة تتعالى فيها أصوات صبية يلعبون
ويمرحون!

أطفال يسرّ لهم الزمان ظروف الحياة، فإذا بهم يسكنون في أرقى
المساكن ويدرسون في أفضل المدارس ويجوبون بحار الدنيا
على متن مراكب سياحية مجهزة بأحدث وسائل الأمن والراحة
والترفيه. ليس كهؤلاء الأشقياء المشرّدين الذين حكمت عليهم
الحياة بركوب قوارب الموت هربا من نيران الحرب، ومخالب
الرّهب، وخناجر الطوى!

أطفال أغدقت عليهم الحياة من الأمن ورغد العيش الشيء الكثير،
وابتلّت غيرهم بالصراع والعنف، والفقر والخوف!...

أمسكت المرأة الغريبة عن الحديث وراحت تفحص ساعتها ثم قامت من مجلسها متنهدة وقالت بصوت خافت كأنها تحدّث نفسها: يطول الحديث عن هذه الحياة البشعة المليئة بالتناقضات يا سيدي الكريم، لكن لا بد أن أذهب الآن فقد تأخّرت.

وأضافت وهي تتأهّب للرحيل: ما أكثر الحياة ظلماً وغدراً! فهي لا تعامل البشر معاملة سوية! تراها تحسن إلى بعضهم، وتسيء إلى بعضهم الآخر، وهم جميعاً من طينة واحدة! فأبيّ عدل إذاً في هذا الوجود؟!

سأرحل الآن لكن لا شكّ أننا سنلتقي ثانية وسنواصل حديثنا الطويل هذا، وسأروي لك بقية قصة حياتي المليئة بالأحداث والمفاجآت. فانشر قصتي ليتبيّن العالم مدى معاناتي، ويستفيد الناس من تجربتي.

وفي لحظة الرحيل، التفتت خلفها وردّدت باسمه: طاب يومك سيدي الأديب...

ولأول مرّة ترسم على شفّتها ابتسامة مشرقة من روحها الطاهرة الجميلة التي حبستها الأقدار في هذا الجسد الذي أثار سخرية أقرب الناس إليها والمجتمع من حولها.

مضت المسكينة في سبيلها وتركتني جالساً أتتبع بنظري خطاها
 مشدوهاً، متألماً لحالها، حائراً في أمرها. وإن غابت عن نظري،
 فإنّ كلماتها لم تغب قط عن بالي. فأجمعتُ أمري على العودة إلى
 الحديقة والبحث عنها والإصغاء باهتمام وشغف إليها، ومعرفة
 بقية قصتها.

كانت لهذه القصة، يا وفاء، بالغ الأثر في نفسي. فحتى اللحظة
 ما زلت مضطرباً، مستاءً، لا أدري كيف أكظم غيظي وأضبط
 نفسي. فصورتها الكثيرة، مذكراًيتها، لم تبرح خيالي، وكلماتها المؤثرة
 ما برحت تتردد في أذني، وتسري في أعماق ذاتي فتحرك مشاعري
 وتنكد حياتي!

ما ذنب المسكينة يا وفاء؟! ما ذنبها إن كانت قبيحة المنظر حتى
 تتعرض للمهانة والتحقير وتخضع لمثل هذا المصير؟! فهل خلقُ
 الأجسادِ ونفخُ الأرواح في هذه الأجسام الضعيفة الزائلة بأيدي
 البشر؟! هؤلاء البشر الذين يسخرون منها، يا وفاء، سيملؤون
 بعد ذلك أماكن العبادة في أكبر نفاق طمعاً في الثواب والخلود في
 الجنة!!

إني لعمري مستاء من ظلم الزمان!.. فأني عدل في هذا الوجود إن كانت الأرواح الجميلة الطاهرة تُحبس في أقفاص بشعة لا تفارقها حتى الممات، وقد تنعم الأرواح الشريرة بمناظر جميلة ساحرة مدى الحياة!!

وإني لمستاء من ظلم البشر!.. فهل نسي الإنسان أنه إنسان حتى يسيء معاملة شقيقه الإنسان ويهزأ به لأنه مختلف عنه في الأصل أو اللون أو الهيئة أو القامة أو الثقافة أو أي شيء آخر؟! وهل نسي الإنسان أنه خرج من الطين وأنه سيعود إلى هذه الطين يوماً، وسيدوق طعم الموت حتماً، أجلاً أو عاجلاً، سواء كان جميلاً أو قبيحاً، غنياً أو فقيراً، قوياً أو ضعيفاً، وافر الحظ في الحياة وممتع الحياة أو ميسور الحظ فيها؟!

أسئلة كثيرة ما فتئت تتلاطم كالأمواج العاتية في ذهني، فتعذبني وتطير النوم عني! سأكتفي بهذا القدر، صديقتي العزيزة وفاء، وإني أتطلع إلى محادثتك قريباً، فقد طال الغياب. سعدت كل السعادة بصداقتك التي أتاحت لي فرصة التعبير عما يختلج في نفسي، بمثل هذه الرسائل. تقبلي خالص التحيات.

صديقك خالد»

(١٦)

تقول الكاتبة الأمريكية (أيمي أوفو) «فقط لأنك لا تتحدث كثيراً لا يعني أنّ الناس لا يلاحظونك. ففي واقع الأمر، الأشخاص الهادئون هم الذين يثيرون أكبر قدر من الاهتمام في غالب الأحيان.»

فها هي وفاء، بقوة ذكائها ودقة ملاحظتها، تنتبه إلى غياب خالد عن منابر التواصل الاجتماعي منذ فترة على غير عادته، وهو الذي لم يكن يمرّ عليه يوم إلاّ ونشر شيئاً أو تفاعل مع منشور بشكل أو بآخر. فتسأله عن ذلك في أثناء الحديث معه بالمانسجر في إحدى الليالي:

-لم أعد أراك تنشر شيئاً! أين هي خواطرُك وأشعارُك؟ أين أقوالُك وأمثالُك؟ قل لي عزيزي ماذا جرى لك؟

-لا شيء.

-ماذا تقصد لا شيء! فما جديدك في الكتابة إذّا؟

- لا شيء.

- تقول لا شيء! ماذا أصابك يا عزيزي؟! ليس هذا من عادتك! لم يكن يمر عليك يوم إلا وكتبت فيه شيئاً!

- ما أنا بكاتب. ولم أكتب؟ ولمن؟! من الأفضل لي ألا أكتب.

- الله، الله! ماذا أسمع؟! ما هذا التشاؤم؟! تكتب طبعاً للتعبير عن أفكارك ومشاعرك، وتكتب لقرائك والمعجبين بقلمك وفكرك.

- أيّ قراء هؤلاء الذين تتحدثين عنهم في مجتمعات عربية معروفة بعزوفها عن القراءة! وهل شاهدت الناس يوماً يطالعون كتاباً في أثناء إقامتك في لبنان؟! هل رأيت يوماً أحداً جالساً في أحد الأحياء يطالع كتاباً؟! هل قصدت يوماً محطة أوتوبيسات أو قطارات ورأيت أحداً يقرأ مؤلفاً؟! لم، يا صديقتي يا وفاء، نرى الناس في المجتمع البريطاني يقرأون في الحديقة وفي موقف الأتوبيس وفي محطة القطار وعلى متن الحافلة والقطار وفي كل مكان، ولا نرى مثل ذلك في مجتمعاتنا العربية؟! تصوّري يا صديقتي أيّ قبل أيام قليلة كنت في طريق العودة إلى البيت وكانت حركة النقل في وسط

المدينة بطيئة. وفجأة شاهدت سائقاً يخرج كتاباً وينشغل بالقراءة ماسكاً مقود السيارة بيد والكتاب بيده الأخرى! البريطاني، يا وفاء، لم يكتف بالقراءة وهو مسافر في الحافلة أو القطار فراح يقرأ وهو يقود سيارته رغم ما في ذلك من أخطار! إنه الولع بالقراءة في هذه المجتمعات، ويقابله داء الاستخفاف بالكتاب والعزوف عن القراءة في مجتمعاتنا العربية!

يتمزق فؤادي حزناً وأنا أسير في أحياء مدننا في أوقات العطلة فلا أرى مثل هذا الاهتمام بالكتاب!

- والله فاجأتني بهذا الموضوع أستاذ خالد، فأنا بكل صراحة لم أفكر في ذلك من قبل.. لكن أتصور أنّ ما قلته صحيح، فأنا أيضاً أرى الناس هنا يواظبون على القراءة في كل مكان.. أراهم - مثلما ذكرت - يقرؤون في الحدائق ووسائل النقل العمومي وفي الشوارع... وعلى العكس من ذلك تماماً، لا أذكر أنّي رأيت أحداً يحمل كتاباً في أحياء مدننا!.. عدا ربها جرائم يومية لمتابعة الأخبار وقتل الوقت!

- فالفرق بين مجتمعاتنا وهذه المجتمعات عظيم ونحن لا ندرى! تصوّر يا صديقتي أنّ الكتب الأكثر مبيعاً في بريطانيا هذه السنة

كتبٌ أدبية بينما في بلادنا العربية كتب الدين والطبخ وتفسير الأحلام هي الأكثر رواجاً!

- لا أظنني أوافقك في هذه النقطة. أنا صراحة لا أرى عيباً في ذلك! وإني، على العكس منك، أنظر إلى ذلك نظرة إيجابية، فذلك يعني، على أقل تقدير، أن بعض أفراد مجتمعاتنا يهتم بالكتاب ويشتريه في المعارض! ثم ألا يعني ذلك أيضاً أن المواطن العربي حريص على الاطلاع على الدين وتعلم فنون الطبخ، وفهم ما يزعجه من الأحلام والكوابيس! ذلك شأنهم ولهم الحق في اختيار ما يشاؤون حتى وإن كنا نختلف معهم في الرأي!

- لا عيب في الدين ومعرفة أركانه وإتقان تعاليمه. لكن الكتب الدينية لا تعدّ ولا تحصى، وبعضها لا يخضع لرقابة. الكتب الدينية، يا صديقتي، كثيرة ومعقدة، تتجاوزها مذاهب مختلفة، وتكتنفها تأويلات متعددة وأفكار متناقضة. بعض هذه الكتب منفتح وبعضها متشدد. فهي بذلك كالبحر الفسيح بعضه ساكن، وبعضه مضطرب. فمن غامر فيه وهو لا يحسن السباحة عرض نفسه وربما من معه للغرق.

-هذا صحيح، وصحيح أيضاً أنّ المجتمع معروف بعزوفه عن القراءة.. لكن هل التخلي عن الكتابة يحل المشكلة؟! كلا، كلا! عزوفك عن الكتابة يزيد الطين بلّة، والمجتمع علّة! فإن عزف البشر عن القراءة، وعزفت الأقلام عن الكتابة، فكيف يكون حال المجتمع؟! سيغرق لا محالة في انحطاطٍ ليس قبله ولا بعده انحطاط!

-وما ذنبي أنا في كلّ ذلك وماذا بيدي أن أفعل وأنا أحيّا على بعد ما يناهز ألفين كم من الأوطان وكل سبل التقرب من القراء سدّت في وجهي!

-يا إلهي! ماذا جرى لك؟! لم كلّ هذا التشاؤم؟! كأني أتحدث مع رجل غريب وليس خالد الذي أعرفه! أين خالد المعروف بعزمه وحزمه؟!!

-خالد الذي تتحدثين عنه صار طويلاً إلى أن انهارت قواه. المسكين لم يستطع أن يثبت. كلما تعدّى حاجزاً اصطدم بآخر حتى نفدت طاقته، وخرّت قواه. أتّي تعثّرت وفقدت الرغبة في الكتابة يا وفاء. مجتمعاتنا لا تقرأ ولا تشجّع من يكتب! لم أكتب وأنا لا أجد دور نشر نزيهة تطبع لي أعمالي وتوزعها في كلّ مكان في الأوطان؟!!

-ماذا تقول؟! وهل خلا الوطن العربي من دور النشر؟!

-موجودة لكنّها قليلة ويصعب الوصول إليها. هي يا صديقتي قطرة ماء في النهر إن قارنا مجتمعاتنا بالمجتمعات المتحضّرة. والتقارير الدولية شاهدة على ذلك. فقد شاهدتُ أنفأ أرقاماً مذهلة في إحدى الصحف البريطانية. تصوري يا صديقتي أنّه في عام ٢٠١٣، نشرت بريطانيا ١٨٤٠٠٠ عنواناً. ولم تنشر تونس في تلك السنة إلا مائة كتاب! وقبل ذلك بسنوات قليلة وبالتحديد في سنة ١٩٩٦، حسب إحصائيات اليونيسكو، أصدرت كندا ١٩٩٠٠ عنواناً بينما نشرت الجزائر ٦٧٠ عنواناً، وسلطنة عمان ٧ عناوين! فستان، شتان!

-لكنّ هذه الأوضاع لم تمنعك من نشر أعمالك من قبل، فأين المشكلة!

-كم كانت تجربتي مع دور النشر قاسية، يا وفاء! التقيتُ أحد الناشرين في أثناء عطلتي وكان صديقاً لأحد أقربائي. كان رجلاً أصلع، ضخماً الجثّة، حابي الشراسيف. بدا من أول وهلة هادئ الطبع، قليل الكلام. قال بثقة إنّه لا يتعامل إلّا مع أكبر المكتبات،

وإنّه يشارك في كلّ المعارض في الوطن العربي. وقال إنه يقدّس الوقت والمواعيد تقديسا. ووعده بنشر العمل خلال أسابيع قليلة من إبرام العقد.

-عظيم!

-ومرّت الأسابيع والأشهر ولم يبلغني منه خبر. فلما سألتها، اعتذر قائلاً إنه شُغل في الأسابيع الماضية بنشر مؤلفات إحدى الوزارات، شعر أنها تستحق الأولوية وإنها وصلته متأخرة، فلم يجد بداً من تأخير عملي!

-لا، لا، لا! لا عذر له! لا يمكنه أن يفعل ذلك! هذا الرجل يبدو انتهازياً إذاً! فلا شك أنه وجد في أعمال الوزارة فوائد أعظم، فارتأى نشرها قبل عملك! بصراحة لو كنت مكانك لاسترجعت منه عملي دون تردد!

-هذا ما فكرتُ فيه بالتمام آنذاك! كنتُ سأفعل ذلك حقاً، لكن الرجل قال إنه الآن فرغ من نشر أعمال الوزارة وشرع في إعداد عملي، وإنّ موظفيه يبذلون ما أمكنهم من جهد لإنهاء العمل في

أقرب أجل. فلم أجد بدا من كظم غيظي والصبر. ومضت بعد ذلك الأسابيع والأشهر ولم ير النور بعد!

-لا، لا، لا! هذا غير معقول! والله لو كنت مكانك لاتصلت به وتشاجرت معه! للصبر حدود!

-بقينا على اتصال، وكان كلّ مرّة يخلّق عذرا ما يبرّر به تأخّره. فتعدّدت الذرائع، وتردّدت على لسانه عبارة «امهلني أسبوعين أو ثلاثة أسابيع وسيكون الكتاب بين يديك»... وطال انتظاري دون طائل. وكاد ينقطع رجائي عندما فاجأني ملس الظلام في يوم من الأيام بمكالمة بثّت شيئا من الراحة والمسرّة في نفسي. أخبرني أنّه قد فرغ من إعداد الكتاب فسلمه للمطبعة، وأنّ النسخ ستكون بين يديّ خلال أيام معدودة. وتنفّستُ الصعداء وأنا أشعر أنّ عملي، ثمرة جهدي وسهدي، سيخرج الآن إلى النور بعد أن تاه طويلا في أنفاق الشر المظلمة الطويلة التي لا آخر لها. ومضت أيام وأسابيع أخرى ولم يصدر بعد لسوء حظي! فسألته رقم هاتف المطبعة وقد عيل صبري. وإذا بصاحبها يجزم اليمين أنّ الناشر لم يسلمه العمل إلا قبل يومين!!

-يا إلهي! معنى هذا أنه كان يكذب عليك ويخادعك! فكتابك لم يصل إلى المطبعة قبل أسابيع كما كان يدعي الأبله!

-هذا صحيح...

-وماذا فعلت إذاً؟!

-وماذا بوسعي أن أفعل عدا الصبر والتريث. وبعد انتظار طويل، صدر العمل أخيراً. كان لي كالأبن الذي تحمله أمه في رحمها، وتسقيه بدمها، ولا تنجبه إلى الدنيا إلا بعد انتظار مديد وألم شديد. فكان شيئاً من ذاتي وأعزّ ما في حياتي.

وبعد ليل طويل، ها هي شمس الأمل تشرق في السماء مع افتتاح معرض الكتاب الدولي. فقد كان الإقبال على الكتاب باهراً بشهادة الناشر عينه. وانهار عليّ وأبل من رسائل الأصدقاء يستفسر عن مكان دار النشر في المعرض. وما زالت الرسائل تتهاطل مستفسرة عن المكتبات التي يتوفر فيها الكتاب في كلّ أرجاء الوطن. سألتني عنه يوماً إحدى الصديقات وكانت أستاذة كبيرة في جامعة الجزائر، فدلّني الناشر على إحدى المكتبات الشهيرة في وسط المدينة،

فأخبرتها. وفي اليوم التالي أبلغتني عن خيبة أملها بعدما كلّفت نفسها مشقة السفر إلى المكتبة ولم تجده فيها! ومن بعدها، استفسر عنه أصدقاء آخرون، فدلّني على مكتبات أخرى لم يكن متوفراً فيها هي الأخرى! فأخرجني أمام أصدقائي! حينئذ، أدركتُ، بكثير من الخيبة والأسى، أن هذا الناشر يسلم الكتب للموزّع ولا يسأل عنها، فلا يدري في أي مكتبات توجد، ولا مقدار ما يبيع منها وما تبقى!

-يا حرام! كيف يدير دار نشر وتوزيع رجل يقبض أموال الزبائن ولا يدري أين توزع أعمالهم؟!

-يحدث ذلك بلا ريب إن اجتمع في بني آدم عدم الاكتراث والكسل! إنّه لأمر محزن! فهذا الرجل لا يحيا في القرون الماضية وإنما في عصرنا هذا، عصر التكنولوجيا والأقمار الصناعية ووسائل الاتصال المتطورة، ويحمل هاتفاً ذكياً باهض الثمن لا أحلم بمثله أنا المقيم في بريطانيا، ويملك جهاز إيباد آخر طراز، ويجوب ربوع الوطن بأفخم سيارة في الدنيا. فلو شاء لاستفسر وعلم علم اليقين، وما ذلك بالشيء العسير!

-والله شيء مقرف ومؤسف! لكن بالله عليك، ماذا عن روايتك الأخيرة؟ لا تقل لي كانت تجربة مماثلة!

-وماذا لو قلت لك كانت أسوأ؟

-لا! لن أصدقك طبعاً! وهل ثمة أسوأ من هذا الرجل الكاذب الذي طاولك في النشر، فأخّر عملك، وضيع وقتك!

-لكنّه وإن ماطلني بوعده إلاّ أنه أتمّه في آخر الأمر. أقول هذا حتى لا أظلم الرجل. فبعد صبر كبير، وعذاب مرير، وُزّع العمل في شرق البلاد وغربها وبلغ أقصى جنوبها وراج فيها رواجاً لا حد له. شرّ الناس في نظري هو من يطيب نفسك بوعده لا ينوي به وفاء أو يعلّلك بوعده لا قدرة له على قضائه. كانت هذه لسوء حظي محطتي الموالية، في رحلة النشر القاسية، مع دار نشر أخرى.

-آسفة لسماع ذلك! آسفة حقاً! لكن قل لي.. كيف اهتديت إلى دار النشر هذه من المهجر؟

-أرشدني بعض الأصدقاء. قالوا وإن كانت صغيرة إلاّ أنها من أحدث دور النشر في البلاد، وتحظى بمنزلة رفيعة، واحترافية

عالية، وتوزّع منشوراتها في كلّ شبر من التراب الوطني. وأهم من كلّ ذلك الثقة، فمديرة المؤسسة امرأة صالحة، تقية، تُدعى «الحاجة فطومة»، تحشى الله وتؤدي عملها بكلّ أمانة وإخلاص.

قصدتُ مكتبها الصغير الواقع في إحدى البنايات في أحد الأحياء الشعبية في ضواحي العاصمة لتوقيع العقد. كانت تزيّن الجدران لوحاتٍ بها آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة مزخرفة بخطوط ذهبية، تشير إلى طابعها المتدين، الملتزم. ولم يطل انتظاري، فقد وصلت الحاجة فطومة. كانت ترتدي حجاباً ملتزماً، تلوح في وجهها أمارات الإيمان والتقوى والعفة.

بدت وديعة، متواضعة، حلّيمة، حكيمة، يشع وجهها براءة ونورا. فارتحتُ لها وفتحت لها قلبي وأبلغتها بما لقيته في طريقي من عقبات ومتاعب وما شعرت به من خيبة أمل وإحباط وألم من دور نشر لا تحترم الوقت ولا تفني بالوعود ولا تهتم بالأدب، همها الوحيد تحقيق أرباح على حساب الكتّاب. فعبرت لي عن أسفها لمصابي. وقالت بصوت وقور أفعم نفسي ثقة وأملا: «ثق يا بني أنّ روايتك ستوزّع في ٤٨ ولاية من البحر المتوسط إلى أقصى الجنوب ومن

شرق البلاد إلى غربها، وسنشرع في ذلك بحول الله تعالى بمجرد انتهاء المعرض الدولي للكتاب! فاطمئن وثق أن عملك بين أيدي أمينة!»

فانشرح صدري لكلامها، وعظمت ثقتي بها، فقلتُ لها >على بركة الله<. ولم تكد تمضي أسابيع قليلة حتى صدرت الرواية، فكدتُ أخرج من جلدي فرحاً. فشاركت في معرض الكتاب الدولي، فكان الإقبال عليها عظيماً بشهادة الحاجة فطومة نفسها والسكرتيرة والأصدقاء. فبعد ليل الحيرة والألم الطويل، ها قد لاح في الأفق أمامي نور تفاؤلٍ وأملٍ ونجاحٍ أثلج صدري.

لكنّ ذلك الشعور الدافئ الجميل لم يدم طويلاً. فبعد المعرض، مضت أسابيع وأشهر والرواية مقيدة لا تبرح مستودع دار النشر. وكلما اتصلتُ بالمديرة زعمت أنها ستوزّع في مطلع الأسبوع أو في آخره أو ربما في بداية الأسبوع الموالي أو ما بعده، دون جدوى! وتدفقت عليّ سيول الذرائع، فجرفتني في سكتها، وأغرقتني في بركتها. فهي هو شهر رمضان يثقل كاهلها ويبعدها عن عملها. وبعد الصيام، ها هي الأعياد والأفراح تصرفها عن مكتبها. وها

هي اليوم تُشغل عيادة زوجها في المستشفى. وها هي الليلة تنهمك في مساعدة إحدى بناتها التي أنجبت صبيا في المستشفى...

وفي وقت لاحق، انقطعت عن الردّ وكأنها لم تعد تجد حججاً تطيّب بها خاطري. أهايتها فتطرق سمعي نغمات قرآنية وأدعية طويلة ولا ألقى منها رداً. ويا ليتها ردت ولو بكلمة طيبة وذريعة ما.. أيّ ذريعة كانت.. حتى وإن كانت ذريعة من الذرائع السابقة الكثيرة التي ألفتُ سماعها، أريح بها نفسي الجائشة وأوهم بها عقلي أن الأمل حيّ ولم يمت. ومع مرّ الزمن، خبا نور الأمل، واكفهرت الدنيا من حولي، وغرقت نفسي في بحر الخيبة واليأس. فلم أجد بداً، في آخر الأمر، من سحب نسخ الرواية من المكتب والسعي لتوزيعها بأي شكل من الأشكال. لكن، أنى يتيسّر لي ذلك وأنا في ديار الغربة، بعيد كلّ البعد عن الأوطان؟! وفي آخر الأمر وبشقّ الأنفس تمكنت من توزيعها في بعض المدن بمساعدة الأهل والأصدقاء.

ومن بعد هذه التجارب الفاشلة والمعاناة الطويلة، تساءلت في أعماق نفسي وما زلتُ أتساءل من صميم فؤادي: لم أكتب؟! لم أجهد نفسي وأكتب؟!!

- آسفة! آسفة لسماع ذلك! ما كنتُ أتصوّر على الإطلاق أن يسلك الأديب سبيل المعاناة مرتين. يتألم وهو يكتب الرواية مع كلّ ما يتطلبه ذلك من وقت وجهد وسهر. ويتألم بعد ذلك وهو يحاول نشرها وتوزيعها وإيصالها إلى الجماهير! وهذه الجماهير قد تفضّل في آخر الأمر الحديث واللعب والطبخ وكرة القدم والمسلسلات المدبلجة على القراءة!

- أجل، يا صديقتي! هذا هو واقع مجتمعاتنا! وما أتعس الكاتب المبتدئ الذي يحيا هذا الواقع المرّ يا وفاء! فهذا الكاتب قد يعاني وهو يخطّ صفحات روايته. وقد يعاني بعد ذلك وهو يسعى لنشرها. وقد يعاني وهو يسعى لتوزيعها وإيصالها إلى القارئ. وقد يجرفه سيل المعاناة أبعد من ذلك بكثير.. وإلى أبعد حد...

- وهل ثمة معاناة أخرى بعد مشقّة الكتابة والنشر والتوزيع؟!

- كثيراً ما نتذوّق أشياء جميلة في الحياة فتثير شهيتنا وتبث في نفوسنا دعة وممتعة وإدماناً، وإذا بنا نتمسك بها ولا نرغب في غيرها. كانت هذه حال روايتي بعد أن وقعت بين أيدي القراء. فقد ولع بها طلبة كليات الأدب العربي، فصرفوا أنظارهم عن غيرها وراحوا

يتسابقون لاعتمادها في مذكرات التخرّج. فانها لتعليّ رسائلهم
تستشيرني في مواضيع البحوث وعناوينها. اختار بعضهم دراسة
سمات أدب المهجر في هذه الرواية وفضّل آخرون دراسة مظاهر
الواقعية في الرواية وما شابه ذلك...

- هذا شيء رائع! سعدت بسماع الخبر! مثل هذه الدراسات النقدية
يخدم روايتك وينشر اسمك! فلا العيب في ذلك يا صديقي!

- لا عيب في ذلك وإنما العيب في مواقف بعض الإدارات الجامعية..
إدارات في شرق البلاد وغربها وفي شمالها وجنوبها فضّلت روايات
قديمة على روايتي، وأسماء معروفة على اسمي! ومرة أخرى تفوز
أعمال قديمة مستهلكة من حيث الدراسات النقدية، لا تحتاج
إلى مزيد من الأضواء! ومرة أخرى تفوز أسماء معروفة ألفتها
الجماهير، ليست في حاجة إلى مزيد من الشهرة! وإذا بروايتي التي
كتبتها بقلب متأمّل جريح، تذهب في مهبّ الريح!

- غير ممكن! أيعقل أن يحدث مثل هذا الأمر في الجامعة في مثل هذا
العصر! وما شأن الجامعة واختيار الطلبة؟! ثم لماذا الجيل القديم؟!
أين نصيب الأقلام المبتدئة والجيل الجديد؟!

- لا شك أنهم تعودوا أسماء معروفة، فلم يعد باستطاعتهم مشاهدة مواهب غيرها في دنيا الأدب! أعمال أدبية يعاد دراستها سنة بعد سنة، فتتال من الدراسات النقدية أضعافا مضاعفة، وينال أصحابها من الشهرة والمنزلة والمجد أضعافا مضاعفة. وتوصد الأبواب في وجوهنا، ولا تنال أعمالنا من النقد إلا القليل النادر! فأبي عدل هذا يا صديقتي يا وفاء؟!

- لا، لا! بطبيعة الحال لا عدل في ذلك على الإطلاق! أشاطرك الرأي في ذلك من غير تردد! يا حرام! وماذا فعلت إذا؟!

- وما عسى أن يفعل الطائر الجريح، عدا البحث عن عش آمن يتعافى فيه ويستريح. ويا ليتني تعافيت من دائي واسترحت من عذابي! نزل عليّ النبأ كالصاعقة فهزّ نفسي، وقطع أنفاسي. وما زلت حتى الآن مصدوم الخاطر، خائر القوى، مشلول الحركة، يقشعر جلدي فزعا، ويدمى قلبي ألما، وتتمزّق نفسي حسرة وأسى على حظي المشؤوم. وفي هذه اللحظة، التي أخطّ لك فيها هذه الكلمات، يا وفاء، ترتعش يدي، وتغورق عيني بالدمع وأنا أرى عملي، ثمرة جهدي وسهدي والذي صرفت فيه أيام حياتي، يرمى في سلة المهملات!!!

بالأمس تخرجت من الجامعة قبل أن تعصف بي رياح القدر بعيدا
عن أرض الأوطان لترمي بي في ديار الغربة واهنا، منهارا، تمزق
نفسي خناجر الشوق والحنين. وها أنا اليوم أعود إليها، تحترق
نفسي شوقا لرؤيتها، أحمل لأبنائها ثمر اجتهادي، وإذا بها تصفعني
وتوصد أبوابها في وجهي، وأنا منها وهي مني!!!

وها هي فئة قليلة من الأدباء تحتمي مني خلف قلعة منيعة هي
المشهد الأدبي. يُرْشَق بأرماع العجرفة والأنانية والبغضاء كل من
دنا من أسوارها. ويُرْجَم بِتُهَمِ البحثِ عن الشهرة والخلود، كل من
نادى بحقه في الوجود.. فكأن الشهرة خُلِقَتْ لتكون من نصيب
فئة قليلة فحسب، لا يشاركها في ذلك أحد ولا وجود لغيرها في
دنيا الأدب!

- وضع مؤسف غريب!...

- صدقت! وقد شغل هذا الوضع الغريب فكري وكان له عميق
الأثر في نفسي. فرغم ضيق الوقت، ثرتُ عليه وحاربته من خلال
الصحف العربية. قلتُ في إحدى المقالات منتقدا صراع الأجيال
وانحياز النقد الأكاديمي للأقلام القديمة: «لا شك أن الشرح

«قديم - جديد» في المشهد الأدبي العربي سيستمر لأجيال، يتخندق من خلفه الكاتب القديم حفاظاً على منزلته ومكتسباته، مستفيداً من نقدٍ غير عادل يلزمه كالظل، ويحرسه ويخدم مصالحه بالفعل والقول.

ويشقّ من حوله الأديبُ المبتدئ طريقه من أجل الحياة، فيسلك مشواراً شاقاً طويلاً شبيهاً بسباق الماراثون، البقاء فيه للأقوى إرادة، والأطول نفساً، والأشدّ تحملاً، والأكثر ثباتاً في وجه العواصف الهوجاء والأمواج العاتية. وحتى إن سارت الرياح بما لا تشتهي سفنُ المبتدئين فإنَّ بعضَهم سيصل حتماً إلى بر الأمان وبرز الكبار. فلا شيء في الدنيا مستحيل حتى إن كان عسيراً، ومن كان غير معروف من شأنه أن يصير شهيراً، ومن كان صغيراً يصبح كبيراً. فعندما ننظر إلى الأشجار الباسقة لا بد أن نتذكر أنها كانت في يوم من الأيام شجيرات لا حول لها ولا قوة، بل كانت قبل ذلك مجرد بذور وجذور تحت التراب لا يراها أحد. كثيراً ما نستخفُّ بما هُوَ صَغِيرٌ، وننْبَهُرُ بما هُوَ كَبِيرٌ، مَعَ أَنَّ كُلَّ مَا هُوَ كَبِيرٌ، فِي الْوُجُودِ أَوَّلُهُ صَغِيرٌ.

ينفجر بركان نفسي الثائرة يتقاذف كلمات بريئة تعبّر عن جزعي
وغيظي:

«يَا مَنْ أَهْمَلْتَنِي وَأَنْكَرْتَ وُجُودِي،

وَرَمَيْتَنِي بِطَلَبِ الشُّهْرَةِ وَالْخُلُودِ،

مِنْ بَعْدِ سُهَادِي وَعَنَائِي وَجُهِودِي،

لِخِدْمَةِ اللَّعَةِ وَالْأَدَبِ بِغَيْرِ حُدُودِ.

اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ تَهْمِيشٍ أَوْ جُحُودِ،

لَا يَعْني مُطْلَقًا أَنِّي غَيْرُ مُوجُودِ.

اعْلَمْ أَنَّ إِرَادَتِي صَمَاءً كَالْجُلُودِ،

وَأَنَّ إِبْدَاعِي فَضَاءٌ لَا يُقَيَّدُ بِقُيُودِ.»

لكن، وإن كانت تسكنني إرادة صماء، فإنّي لا أجد بداً في هذه
الساعة من التعبير عن خيبة أمني وحسرتي. فتتعالى من أعماقي
زفرات الأنين: واحسرتاه عليك يا أعمالي! واحسرتاه عليك يا
جهدي وسهدي! وأسفاه على ما ضاع من سنوات عمري!

فكيف لا يضيق صدري بعد كل هذا الأمر؟! وكيف لا أتساءل
بعد كل هذا العذاب المرّ: لم أكتب؟! لم أجهد نفسي وأكتب؟!

-ما أشد ما مرّ عليك يا صديقي! إنّي الآن أفهم وأقدّر ولو أنّي لا
أحثّك على اليأس والاستسلام رغم ما قد تشعر به من إحباط وآلام.
إنّي واثقة أنك ستبلغ مرادك يوماً حتى وإن كان السبيل إلى ذلك
طويلاً وشاقاً. وأنت تكتب، لا تفكّر أبداً في أنك تكتب لهذه الجماهير،
فهي لا تقرأ كما تؤكد التقارير! ولا تفكّر في أنك تكتب لهؤلاء النقاد
الأكاديميين، فأنت لست في قائمة كتّابهم المفضلين! فقد حاد هؤلاء
عن سبيل العدل والأمانة والفضيلة، وأعرضوا عن رسالة النقد
النبيلة، التي كانت سترفع مقامهم في أنظار الأجيال المقبلة، واتبعوا
سبيل المحاباة والمجاملة، والخداع والحيلة، والمصالح الزائلة!

ولا تفكّر في هؤلاء الكتاب الذين خالوا الأدب بضاعة فراحوا
يغرقون السوق بمؤلفات، نراها اليوم مكدسة على رفوف
المكتبات!

وأنت تكتب، فكّر دائماً أنك تكتب للتعبير عن مشاعرك وأفكارك!
وكتاباتك - مثلما أرى - تفيض بهذه العواطف الرقيقة الصادقة

المتدفقة من ينابيع نفسك الصافية البريئة المتأثرة. إني أرى هذه العواطف وأنا أقرأ كتابك ومقالك ويراها كل من يقرأ لك. ومقالاتك العميقة تشهد لك على أفكارك الموضوعية الناضجة. وهل ثمة موضوعية أصدق وأرقى من موضوعيتك وأنت الذي دعوت إلى التحرر من كل التوجهات والترفع عن كل الرغبات والملذات والمصالح عند الكتابة! وهل ثمة عقل أنضج من عقلك وروح أطهر من روحك وأنت الذي دعوت إلى تخليص الذات من جاذبية المغريات والمؤثرات على سطح الأرض وما يرثه الفرد عن آبائه وأجداده وما يكسبه في الوسط الاجتماعي من حوله والسمو بروحه إلى ما وراء الأفق الأزرق عند تعاملنا مع البشر من مختلف الخلفيات والأجناس والألوان والمعتقدات، فلا نظلم أحدا ولا نكره أحدا ولا نحسد أحدا ولا نحاسب أحدا حسب رغباتنا وأهوائنا وتوجهاتنا وأفكارنا المسبقة!

وأنت تكتب، أستاذي العظيم، فكر أيضاً أنك تكتب للأجيال المقبلة، فهي حتماً ستُصنّفك وستقرأ لك بشغف وستقدّر أعمالك! ثِقْ، يا صديقي، أنّ الأجيال القادمة تتابعك وتقرأ كتاباتك وتدرك ما أصابك وتعرف من أساء إليك ومن أحسن إليك. وثِقْ أنّ الأجيال

القادمة تتابع حديثنا هذا ومن أوله إلى آخره! أجل، يا عزيزي، فالأجيال القادمة تتابعك وتتابع كتاباتك وصراعتك من أجل البقاء في غاب الأدب حيث البقاء للأقوى والأكثر تحملاً والأطول نفساً وليس بالضرورة لمن هو أفضل وأجدر. والأجيال القادمة تتابع كل صغيرة وكبيرة وتتابعنا جميعاً، لكن من بعيد.. من على بعد زمني.. من زمن آخر غير زماننا.. وبأعين غير عيون هؤلاء البشر من حولنا.

وثق أن اختبار الزمن هو الذي سيحدد بقاءنا في الذاكرة أو موتنا وفناءنا.. وأعلم أن امتحان الزمن هذا أصعب من أي امتحان اجتزناه في حياتنا.. وهو أصعب من امتحان الجوائز الكثيرة التي يفوز بها بعضنا، ويفشل فيها بعضنا الآخر حتى وإن كان لا يقل مستوى عن الفائز، وقد لا يجد بعضنا السبيل إلى المشاركة في هذه الجوائز أصلاً لسوء الحظ وعدم تكافؤ الفرص بين الأدباء والأجيال. وأعلم أنه لن ترقى إلى منصة الخلود غير الأعمال المفيدة الراقية. وثق أن ما تبذله من جهد وما تصرفه من وقت في تصنيف كتبك ومعاجمك لن يذهب هباءً منثوراً. فإن أنكر هذا الجيل وجودك، فإن الأجيال القادمة ستذكرك وتقدر جهودك. فلا تحزن وابشر، فاسمك منقوش في سجل التاريخ بأحرف من ذهب، رغم كل هذا الألم والكرب.

(١٧)

ها قد بدأ الليل يرخي سدوله على عاصمة الضباب في يوم ممطر
كئيب من أيام فصل الخريف.

يغادر خالد شوارع المدينة المزدحمة الصاخبة ويسير على مهل باتجاه
الحديقة تحت زخات المطر المتساقطة بغير انقطاع منذ الصباح. في
هذه الساعة، يخيم السكون في أجواء الحديقة لا يقطعه إلا صوت
قطرات المطر وهي تلامس أغصان الأشجار العارية والأرض
المغطاة ببساط من العشب الأخضر، مزخرف بألوان أوراق
الخريف الزاهية المبتوثة في أرجائه. ها قد ضاق صدره بحمل المدينة
وما فيها من حياة سريعة ومتطلبة. فقد حان الآن موعد التملّص
من مخالب هذه المدينة والارتقاء في أحضان الطبيعة بعيداً عن هذه
الشوارع الضيقة وهذه المباني الشاهقة وهذه القصور العملاقة
وهؤلاء البشر الذين لا يعرفون التوقف عن العمل والحركة

والحديث والجدل والشجار والصخب.

ها هو مرةً أخرى يفرّ من صخب المدينة وزحمتها وقسوتها إلى هدوء الطبيعة ووحشتها ورأفتها. لقد صار اليوم يؤمن أكثر من أي وقت مضى أن الطبيعة الموحشة أحياناً أرحم من المدينة الآهلة. فالطبيعة، بهدوئها وبهائها وصفائها وسحرها، كثيراً ما تبثُّ في نفوسنا مشاعر الاطمئنان وراحة البال والهناء. أما المدينة، بنمط حياتها الصخب المضطرب المتعجّل، فكثيراً ما تشعرنا بالضيق والضجر والشقاء.

يرفع بصره قليلاً متأملاً هذا المطر المتساقط من السماء بغير انقطاع متعجباً من أمره. فهذا المطر الغزير الذي يحيي الأرض بعد موتها وينفخ الحياة في نباتها، وهذا المطر الغزير الذي يبّل الآن شعره ووجهه وثيابه ويظهر أجواء الحديقة من حوله ويغسل شوارع المدينة من خلفه، لا يستطيع أن يغسل نفسه من هذا الإحباط الذي ألمّ به فصده عن الكتابة وصرفه عن الشر في وسائل التواصل ومنعه حتى من التواصل مع أقرب الناس إليه، وفاء.

يتذكّر وفاء ويتذكّر نصائحها الساحرة وكلماتها المواسية، فهي بكل تأكيد أحسن وصفة لمعالجة داء الإحباط، وأجمل هدية. صدقت

هذه الفتاة حينما قالت له إِنَّهُ ليس مرغماً على الكتابة لهذا المجتمع الذي لا يقرأ لأحد، ولا لهذه الهيئات التي لا تقدر ما يبذله من جهد، ولا لهؤلاء النقاد الأكاديميين الذين أسأؤوا إلى رسالة النقد. فإن لم يكن يكتب لهذه الأجيال فهو حتماً يكتب للأجيال المقبلة فهي بلا ريب أكثر حباً للكتاب، وأكثر شغفاً بالقراءة، وأكثر اهتماماً بالأدب، وأكثر تقديرًا لجهود الكتّاب. والأجيال القادمة هذه، وإن كانت منفصلة عنا من حيث الزمان، فإنها قريبة منا قرب أصابع اليد الواحدة، فهي تتابع كتاباتنا وأعمالنا وتصرفاتنا بعيون ناقدة، فتستحسن بعضها وتستقبح بعضها الآخر، وتتعلق ببعضنا وتنفر من بعضنا الآخر. وهو، إضافة إلى كل ذلك، يكتب للتعبير عن أفكاره وعواطفه المشبعة بقيم المحبة والإنسانية، تنساب مياهاها في أرجاء الدنيا، فتروي القلوب وتنير العقول وتهدي مَنْ ضلَّ السبيلَ، وتدعو إلى الخير وتنهى عن الشر وتصبّ في خدمة البشر.

وبينا هو يفكر في كلماتها، يتوقف بغتة عن السير في منتصف الحديقة ويغمض عينيه ويرفع رأسه وذراعيه إلى السماء متأملاً خاشعاً، فيتدفّق سيلُ المطرِ على وجهه ممتزجاً بدموع حزينة فاضت بها عينه، لم يقو على حبسها، فيغسل المطر عَبراته ولا يغسل حسرتَه وألمه.

وتحت هذا المطر الهاطل، يخلّص وجدانه من أغلال مجتمعات البشر المقيدة للإرادة والفكر والخيال ويرقى بروحه المثقلة باليأس والهم والغم عالياً في الفضاء، فيسبح بها بعيداً إلى ما وراء الأفق الأزرق، خلف هذه الغيوم الداكنة وهذا المطر المتدفق، فتغمر نفسه سيول الثقة بالنفس وراحة البال، وتوجّج في نفسه من جديد نارُ الطاقة والإثارة والالهام التي خبا لهيها في كنف المجتمع البارد.

ما أروع رحلته البعيدة هذه إلى ما وراء الأفق الأزرق وما أعظم تأثير وصفتها العلاجية وحقتها السحرية في نفسه!

يعود من بعد ذلك إلى البيت مبتهجا حافلا حاشدا مقبلا على الكتابة إقبال الجائع على الطعام، مصمما على المضي نحو الأمام في مشواره الأدبي، معتذرا إلى أصدقائه وإلى كلّ العالم من حوله من غيابه وكل ما أتى منه في لحظات الخيبة والحسرة والاستياء. وها هو يبادر إلى مكاتبة صديقه وفاء بعد فترة من الانقطاع، معاتباً نفسه على تأخّره في الاتصال بها. وكيف له ألاّ يلوم نفسه وهو الذي وعد الفتاة بكتابة قصة معها ليست كبقية القصص.. قصة حية مختلفة من حيث العمران الروائي، يرويان معا أحداثها لحظة وقوعها

ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، بكل ما يصدر منهما من هفوات وأخطاء، وبكل التفاصيل، على مرأى من كل الجماهير.. قصة هي في واقع الأمر رحلة معنا نحو المستقبل وباتجاه المجهول، لا يعرفان مراحلها، ولا خاتمتها، ولا ما ينتظرهما فيها، ولا مصيرهما في نهايتها.

وسرعان ما تردّ وفاء على رسالته اللطيفة متعجّبة:

- ما هذا الذي شاهدته في صفحتك اليوم أستاذ خالد؟!

- وما الذي شاهدته؟! خير إن شاء الله!

- رسالة الاعتذار للجامعة!

- وما بها؟ نسمع ونرى عشرات الاعتذارات كلّ يوم يا صديقتي العزيزة، تتردد على ألسنة الناس من حولنا وفي وسائل الإعلام على اختلافها!

- ما أغرب ما فعلت يا صديقتي!

- وما الغريب في ذلك؟!

-ألم تبلغني من قبل أنَّ إدارة الجامعة رفضت روايتك رغم إلحاح الطلبة عليها، فحملتهم على دراسة روايات أخرى قديمة مستهلكة من الناحية النقدية؟!

-بلى...

-ومن ثمَّ، ألم تُقِم الدنيا وتقعدها، فحملت على الجامعة وإدارتها، وانتقدتها انتقاداً لاذعاً في وسائل الإعلام ومنابر التواصل الاجتماعي، وما تبع ذلك من هرج ومرج، والعالم يتفرج؟!

-بلى...

-إذا!!

-صدقت في كلِّ ما قلته. لكنِّي فعلتُ ذلك مرغماً بعدما تبيَّنتُ أنه شيء من التهميش والإقصاء، فأضرم ذلك فتيل الحرب بيننا. فدوّت طبول الوغى في الأجواء وأعلّنت حالة الطوارئ. لعمرى يحزنني ضرب الجامعة التي تخرّجتُ منها يوماً واكتسبت منها معرفة وعلماً، لكنّه كان أمراً لا سبيل عنه بعد أن تعرّضتُ للعدوان، فصدّني كبريائي عن التفهقر والاستسلام والركون إلى

الانهزام. فأبحر أسطولي الرابض في المحيط الأطلسي إلى المتوسط،
 فحلّقت منه المقاتلات أسراباً وانطلقت منه الصواريخ تباعاً،
 فأصابت أهدافها إصابات دقيقة بالغة. وإني لقادر على ضرب
 مواقع خصومي جواً وبحراً، واجتياحها براً، وقهر أيّ جيش،
 وتدمير كلّ معقل من معاقل الإقصاء والتهميش!

-طيب، طيب! أفلا قلت لي إذاً لماذا تعتذر وأنت لست مذنباً؟!

-تماماً! وإن لم أكن مذنباً إلّا أنّي لا أرضى بالعزلة والأذى للطلبة.
 كنتُ سأشرب من كأس الذنب والحسرة لا محالة إن تعرّض طلبة
 أبرياء للتأنيب والإساءة والأذى بسببي في حرب لا شأن لهم بها ولا
 طائل لهم منها، ذنبهم الوحيد فيها إعجابهم بكتابتي، واختيارهم
 مؤلفاتي في مذكرات التخرج!

وإني أيضاً لا أرضى بالعزلة والأذى لنفسي. فستمزق فؤادي
 خناجر الشعور بالذنب والكرب إن انهارت علاقتي بمؤسسات
 تعليمية وثقافية من كليات وجامعات... وهل ثمة شيء في الحياة
 خير من الملاينة والمودعة في سبيل التعايش والبقاء؟! بل وهل ثمة
 سبيل إلى الحياة من غير ذلك أحياناً؟! ما أحوجنا يا صديقتي يا

وفاء إلى سلام مع البشر من حولنا وإلى صلح مع أنفسنا نتقي به شرهم وشرور أنفسنا، نسعى له عن طيبة خاطر حيناً وعلى كره أحياناً أخرى في سبيل البقاء، وتستمر الحياة...

ويمسك عن الكتابة لحظة ثم يتابع: إنها يا صديقتي «حكاية التاجر» ما فتئنا نعيش أحداثها وأحداثاً مماثلة لها في حياتنا. إنها «دنيا المغفلين» نحيا فيها وتحيا فينا، فلا نقوى على مفارقتها ولا تقوى هي على الرحيل عنا!

- حكاية التاجر؟! أي تاجر؟! والله دوّختني بأمثلتك!

- ألم تقرئي «حكاية التاجر» لرائد الأدب الإنجليزي «جيو فري تشوسر»؟

- لا لم أحظ بذلك! لكنني سمعت عن «تشوسر» وعن «حكايات كانتربري» التي كتبها. فماذا عن حكاية التاجر؟ شوّقتني!

- حكى أنه كان فيما مضى من قديم الزمان، وسالف العصر والأوان فارس اسمه «ينايير» ببلدة بافيا بإنجلترا. كان يحيا فيها حياة اللهو والمجون إلى أن حدثته نفسه يوماً بالزواج. رام الزواج

من فتاة عذراء حسناء تنجب له ابنا يحمل اسمه ويرث أملاكه. فتزوّج من فتاة لا يقع الطرفُ على أجمل منها صورة في البلاد اسمها «مايو». فعاش معها في غاية البسط والانشراح. ولم يزل على هذه الحالة إلى أن فقدَ بصره يوما، فتساقطت نفسه حزنا وغما وخشي أن تخونه زوجته فتانة المحاسن. فبات يمنعها من الخروج وحدها، ولا يفارق البيت إلا برفقتها. لكنّ زوجته هامت في حبّ شاب اسمه «داميان» خفية. فدعته سرا إلى حديقة منزلها وأومات إليه بالاختفاء في إحدى الأشجار والانتظار.

في تلك الأثناء، كان الإله «بلوتو» وزوجته «بروسبيرينا» يشاهدان المأساة من بعيد، فاختلفا وتنازعا، فقد استقبح «بلوتو» خيانة المرأة لزوجها، فصمم أن يعيد لـ «ينايير» البصر ليكتشف الأمر.

تسلّقت «مايو» الشجرة وارتمت في حضن حبيبها «داميان»، فأعاد «بلوتو» البصر لـ «ينايير»، فرأى الشقيّ زوجته عارية معانقة حبيبها. فنالته عنه روعة شديدة واسودّت الدنيا في وجهه. ولاحت أمارات الذعر والحيرة في وجه زوجته ولم تدر ما تقول. لكنّ الربة «بروسبيرينا» وسوست لها، ووهبتها القدرة على الجواب والتعذّر

من الذنب. فأخبرت «مايو» زوجها أنها فعلت ما فعلته تضحية في سبيله لإعائته على استرجاع بصره، وأنها لو لم تصنع ذلك لما استعاد بصره مدى العمر!

لم يكن «يناير» مقتنعا بكلامها بعد أن شاهدها بعينه في حضن حبيبها، غير أنه تكلف تفهّم مسعاها وتقدير حسن صنيعها، متغافلا عن خيانتها وكذبها.

فحكم الشقي على نفسه بالحياة في جنة المغفلين على كرهه إنقاذاً لحياته الزوجية، مرتطماً في حمأة الهوان، يفرش الهمّ ويتوسّد الغمّ!

- ما أروع القصة! لعمرى لا تضاهيها حسنا وروعة إلاّ حكايات ألف ليلة وليلة! وإن أورشني نهايتها حزناً وأسى إلاّ أنها أفعمت نفسي إثارة وحلّقت بي بعيداً إلى دنيا الخيال، وإلى دنيا ألف ليلة وليلة، وإلى حيث سعة الخيال وبراعة الأفكار وروعة المعاني!

- حقّ ما قلت يا صديقتي! فهذه الأسطورة لعمرى من أروع ما قرأت في حياتي وأكثره عبرة. وإن كانت القصة خيالية إلاّ أنها تجسد واقع البشر بما يحمله من تناقضات. فما أصاب «يناير» ليس بشيء

نادر على الإطلاق، فهو ما برح يصيب البشر في كل زمان ومكان، في أشكال وألوان ومظاهر مختلفة، من خيانة وغش وخداع وكذب وافتراء ونكث عهد وما شابه ذلك.

نرى ذلك يومياً في أفعال البشر ومواقفهم وأقوالهم ونظراتهم. نراه في البيت والشارع والمدرسة والجامعة ومكان العمل ومنابر التواصل. نراه في الأهل والأحبة والأصدقاء من حولنا، وفي المقربين منا والغرباء عنا. فنضطر أحياناً إلى غضّ البصر فتصرّف كما لو أننا لم نر شيئاً رغم كل ما نشاهده وندركه! وقد يخطئ في حقنا أحد فتنبّأه وتصرّف كما لو كنا قد أخطأنا وما نحن بمخطئين، فنعتذر إلى أولئك الذين كانوا في حقنا مذبذبين. وقد يستغيبنا المجتمع وهو يشاهدنا تتصرّف تصرّفاً مماثلاً، وما نحن في واقع الأمر بأغبياء، وإنّما نتصنّع الغباء حفاظاً على علاقاتنا ومكتسباتنا والبقاء! وذلك في الحقيقة منتهى الذكاء!

لقد علمتني الحياة، يا صديقتي يا وفاء، أنّه:

«لَيْسَ مُعْغِلاً كُلُّ مَنْ تَظَاهَرَ بِالْعَبَاءِ، فَالْعَبَاءُ أَحْيَاناً مَلْجَأُ الْإِنْسَانِ لِلتَّعَاشِ وَالْبَقَاءِ.»

(١٨)

ها هو يوم جديد مشرق، يشعُّ نوراً وبهاءً وانتعاشاً، يطلُّ على مدينة الضباب بعد انقشاع الغيوم القاتمة الممطرة التي خيمت طويلاً في سماء المدينة، فرسمت فيها بألوانها الرمادية الداكنة صورة كئيبة يائسة.

يفتح خالد ستار النافذة ويرنو إلى الحديقة. تبدو الحديقة في هذه الساعة ساحرة تحت أشعة الشمس الساطعة، تتعانق أغصان أشجارها، وترفرف الطيور بأجنحتها في أجوائها مرحاً، وتنعكس على أرجائها خيوطُ أشعة الشمس الذهبية، ممزجة بألوانها الطبيعية الزاهية، فترسم أمامه لوحةً زيتية مثيرة، يخشع لها البصرُ، ويزوب لها الخاطرُ.

وبشروق الشمس في السماء، تشرق الابتسامة في وجهه، وتشرق معها في نفسه نشوة السرور والتفاؤل بالخير. مناظر ساحرة تخلبُ لبَّهُ، فتنازعه نفسه إلى الخروج للتجوال والاستمتاع قليلاً بهذا الجو

الشمس النادر في مثل هذا الفصل في الجزر البريطانية المعروفة ببرودة طقسها وغيمةا وغيثها، لكن عقله يصده عن ذلك ويحثه على المكوث في البيت والعمل. فطيف الإلهام الذي غاب عن وجدانه طويلاً يعود إليه اليوم من غير موعد ليدعوه إلى الكتابة، ولعلّ العبارة «يدعوه إلى الكتابة» ليست في محلها والأصح أن يقال «يأمره أن يكتب»، وأمره سمع وطاعة لمن رغب في البقاء في عالم الكتابة. فلا سبيل إلاّ إلى الإصغاء إليه وتلبية رغبته. وسرعان ما يخلو بنفسه في غرفته ويكدّ نفسه في عمله. ينكبّ في بداية الأمر على معجم المترادفات والمتجانسات العربية. وشيئاً فشيئاً، تنعكس على ملامح وجهه آثار التعب والضعف. وبعد ساعات من العمل الشاق، يتلأأ في عينيه بريقُ الرضا والغبطة وهو يفحص الكلمات الجديدة الكثيرة التي تسنّى له جمعها اليوم في معجمه. كان آخرها كلمات «بَذَخَ وَبَذَخَ وَبَذَخَ وَتَبَذَّخَ» ووجد فيها من المترادفات: «تَكَبَّرَ وَاسْتَكْبَرَ وَتَكَابَّرَ، تَعَجَّرَفَ، تَغَطَّرَسَ، تَعَالَى، تَخَايَلَ وَاخْتَالَ، تَجَبَّسَ، تَزَنَّنَخَ، بَخَّرَ وَتَبَخَّرَ، حَاكَ، تَبَكَّلَ، تَاهَ - الرَّجُلُ». ويُقال: زَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَزَمَّ بِأَنْفِهِ، وَأَشَمَّ بِأَنْفِهِ، وَمَطَّ حَاجِبِيهِ، وَنَفَخَ شِدْقِيهِ، وَسَمَّ بِنَفْسِهِ تِيهَاً وَاسْتَكْبَاراً، وَنَأَى بِجَانِبِهِ...

ويصرف نظره أخيراً عن المعجم ليقبلَ على كتابة فصل جديد من قصته الجديدة مع وفاء مسجلاً تفاصيل آخر اتصال بينهما. فتمتلى نفسه راحة ورضاً ويتهلل وجهه غبطة وإثارة وهو يقلّب صفحات كتابه. فهو الآن لا يشك في أنه قد قطع شوطاً كبيراً في مشوار كتابة هذه القصة بفضل هذه الفتاة التي فتحت شهيته للكتابة وصارت اليوم مصدر إلهام كبير له ومصدر طاقة يُغذي محركات تفكيره وإبداعه. فكلّ حديث مع هذه الفتاة هو بمثابة غذاء تقتات منه روايته الجديدة. ويشرد بفكره بعيداً عن نفسه مفكراً في أمر هذه الفتاة، متسائلاً عما تكون قد أنجزته إلى حد الساعة في مشوار كتابة هذه القصة من جهتها. فهي في الحقيقة لم تحدّثه عن شيء حتى الآن. فيبادر إلى مكاتبتها مستفسراً:

-حضرة الأستاذة الرائعة وفاء، ما لك لا تنشرين مقتطفات من قصتنا الجديدة مثلما أفعلُ؟ أين وصلتِ، يا ترى، في مشوار الكتابة؟ فإني لعمرى أذوب شوقاً إلى مشاهدة جديدك، ومتابعة ما تجود به أناملك.

وتفاجئه الفتاة بردّ يحمل سؤالاً لا يمت لرسالته بصلة كما لو أنها لم تر خطابه:

- هل شاهدت صورتي أستاذ خالد؟!

فيسألها متعجباً:

- أي صورة؟! وأين؟! دوختني! أسألك عن الكتابة فتسأليني عن صورة! وما علاقة ذلك بسؤالي؟

- أنا آسفة، الصورة أولاً! إسأل ما شئت بعد ذلك! الصورة مفاجأة لك! لك وحدك! إنها هديتي لك، عرضتها اليوم في منشور خاص لا يراه أحد من الأصدقاء! لا يراه أحد غيرنا أنا وأنت!

- مهلاً، مهلاً يا صديقتي يا وفاء! صورة لك، لأجلي، لا يراها أحد سوانا أنا وأنت؟! ما هذا؟! ولماذا؟! مهلاً علي! فأنا والله لم أفهم شيئاً!

- لست في حاجة إلى فهم أي شيء الآن! هيا انظر الآن قبل أن أحفظها؟! ستجدها في أعلى الصفحة!

- عجباً! هل هذه نكتة أم مسرحية؟! لو حدث هذا في مطلع أبريل لا اعتقدت ربحاً أنها «كذبة نيسان»!

- لا، لا، لا!.. ليست هذه مسرحية، ولا كذبة أبريل، ولا حلم، ولا سراب! إنها الواقع سيدي! فاطمئن وانظر ولا تتردد!
- حسناً، حسناً! سأنظر حالاً! فلا تقلقي...

ويرحل تَوّاً إلى صفحتها ويرسل نظره إلى أعلى منشورها، فتتراءى له صورتها. ويألفها من صورة! ويألفها من مفاجأة! لأول مرّة وعلى غير العادة، تتراءى له من غير حجاب! لم يكن يدري أنّ الحجاب البني الذي شاهدها فيه في أول لقاء في حي (سترات فورد) يستطيع أن يحجب عنه كلّ هذا الجمال والكمال! تقف في الصورة وهي ترتدي فستاناً أزرق اللون رهيفاً به شقّ إلى أعلى الفخذ. وينسدل شعرها البني الحريري على كتفيها تداعبه بأصابعها، يتناغم لونه ولون عينيها الساحر. فيقف الرجل مشدوهاً عاجزاً عن فك نفسه من أسر هذا الملاك الفاتن. ويستفيق بغتة من غفلته على وقع صوت رسالة جديدة تلوح أمامه على الشاشة:

- أستاذ خالد! هل أنت هناك؟!...

فيعجل بالردّ عليها:

-أجل، أجل! آسف إن تأخرت قليلاً، أو بالأحرى نسيْتُ نفسي قليلاً! مررت بصفحتك وكانت المفاجأة عظيمة! بل أعظم مما كنت أتصور!

-صحيح؟!

-بالطبع! ما أجملك أستاذة وفاء! وما أروع الجمال اللبناني! تأكدي، يا صديقتي يا وفاء، أَنِّي لستُ أجاملُك أبداً! لو أَنك سرتِ في شوارع هذه المدينة من غير حجاب، لما ميّزك أحدٌ من بقية نساء أوربا! لك ملامح أوربية خالصة!

-حسناً، ما قولك، أستاذ خالد، إذا أخبرتك أنك محق تماماً فيما ذكرته الآن وأني حقيقة من أصول أوربية؟

-ماذا؟! هل أنا اليوم في حلم أم في واقع؟! صحيح ما تقولين؟! -أجل.

-أنتِ إذاً من أصول أوربية! لم تذكرني شيئاً من هذا القبيل من قبل!

-لعلنا لم نجد الفرصة من قبل للتحدث عن مثل هذه التفاصيل الشخصية، لكنني حقا من أصول أوروبية.. أبي من أب لبناني وأم هولندية أما والدتي فهي إسبانية.

-يا له من مزيج! مزيج عجيب! لكنّ هذا المزيج أنجب فتاة بهذا الجمال والسحر!.. إذاً والدتك إسبانية! أمم! لهذا طبعاً سمعتك يوم اللقاء تتحدثين اللغة الإسبانية بكل طلاقة عندما تلقيتِ مكالمة هاتفية!!

وتمتنع الفتاة عن الردّ بغتة كما لو أنها ارتبكت، فيتابع وهو يبدو منشغلاً:

-ما لك سكتٍ يا عزيزتي؟ أعذريني إن كنتِ قد ضايقتك بكلامي.

فتتابع الفتاة:

-كلامك؟ لا، أبداً! لكنّه أثار أسئلة في وجداني...

-أسئلة؟

-أجل، أسئلة.. قلتُ إنِّي جميلة، فإني أتساءل ما جدوى هذا الجمال
 إن لم يستطع هذّ الأسوار المتينة المحيطة بحياتك! .. وما جدواه إن
 لم يستطع كسر هذه القشرة اليابسة الواقية لإرادتك! وما جدواه إن
 لم يستطع اقتحام قلعة قلبك المحصّنة المنيعة!..

-كسر القشرة؟! اقتحام قلعة...؟! لستُ أفهم...

وتمسك عن الكتابة قليلاً ثم تتابع:

-أستاذ خالد.. أعترف لك أنني تعبت!...

-تعبتِ؟!!

-أجل، تعبت ويئست! ولعلّه قد آن الأوان لأبلغك بذلك!

-تعبتِ ويئست! من ماذا؟! حماك الله يا عزيزتي!

-من الانتظار والصبر! يقال إنّ الصبرَ مفتاحُ الفرج ومفتاحُ الجنة
 ومن صبرَ ظفرَ، وما شابه ذلك.. وفي الواقع، كثيراً ما يغرق المرءُ في
 بحر الألم والأسى ولا ينجو، وكثيراً ما يجتهد ولا يفوز بما يرجو!

-كلام حكيم وفي الصميم. لكن، أعذرني فأنا لم أفهم بعد ما تقصدين من هذا الكلام. هلا تكرمت بالتوضيح قليلاً بلغة بسيطة يفهمها عقلي يا عزيزتي؟

-أستاذ خالد.. قبل أن أتصل بك أول مرة، كنتُ أتابعك من بعيد وكنت أطلع مقالاتك باهتمام وأقرأ مقتطفات من أعمالك الروائية بشغف، وكنت أتابع معاركك الأدبية وصراعتك من أجل البقاء في هذا الغاب الرهيب الذي يطلق عليه اسم «أدب» والبقاء فيه للأقوى والأعنف والأكثر تحملاً.. ولشدة اهتمامي بها تكتب وكثرة متابعتي لك أصبحت ربما أعلم ما لا يعلمه الكثير من القراء عنك وعن طبعك وعن شخصيتك وعن تجاربك الماضية. وبقيت حياتك الخاصة لغزاً لأنك كنت حريصاً على تجنب الحديث عنها واشترطت عليّ من أول وهلة ألاّ أسألك عنها؟! لكنك، على ما يبدو، نسيت أنّي لا أحتاج بالضرورة إلى طرح أسئلة ولا إلى استخدام لغة الكلام التقليدية لمعرفة خبايا الأشياء وفك الرموز واكتشاف الأسرار! هل نسيت ذلك أيها الرجل؟! هل نسيت أيها الرجل أنّ للمرأة حدساً أقوى من حدسك؟! إياك أيها الرجل أن تستهين بالمرأة لأنها مخلوق أضعف منك جسدياً، فالمرأة قوية

بحدسها، بارعة بذكائها، شديدة بمكرها، وهل نسيت أن المرأة، ضعيفة البدن، هي التي أخرجت آدم من جنات عدن! لكم تمنيت أن تكون لي وحدي مدى العمر، لا يشغل فكري أحدٌ غيري!...

-من؟! أنا؟!

-أجل، أنت! لكم تمنيت أن تكون لي نبراسا ينير حياتي، وملاكا يحيا في ذاتي، وحلماً جميلاً لا ينتهي إلا بنهايتي! لكن، هذه الأحلام التي نرحل إليها من عالمنا في منامنا، وتحلّق في أجوائها أرواحنا، ونحقق فيها كلّ ما تشتهيهِ أنفسنا، وننعم فيها بأحلى الأوقات وأطيب النعم، مهما طالّت تبقى مجرد أحلام، ولا بد أن نستفيق منها في لحظة ما، لنعود إلى عالمنا، ونواصل رحلتنا على درب هذا الواقع بكل ما يحمله من خير وشر ولذة وألم... فهذا قد صحوت الآن من حلمي معك لأحيا واقعا سيكون حتماً بعيداً عنك، أحاول فيه النسيان، وأنشد فيه راحة البال والاطمئنان والأمان.

-ما هذا الذي أسمعهُ اليوم على غير العادة يا وفاء؟! ما هذا؟! هل فكرت في مصير صداقتنا الفتية لحظة؟! هل فكرت؟! وماذا عن روايتنا التي شرعنا في كتابتها معاً وأردناها أن تكون تحفة

أدبية مميّزة، بأسلوب غير معهود، نروي أحداثها لحظة حدوثها، دون تنقيح أو تصحيح، على مرأى من الجماهير؟! ألم نتعاهد على مواصلتها إلى الأخير؟!!

لقد خضنا في مواضيع كثيرة، يا وفاء، لكنّ ذلك مجرد قطرة ماء في المحيط! مواضيع أخرى كثيرة ومثيرة ما زالت في الطريق، يا وفاء، ومنها ماهية الإنسان والعدم والوجود وما قبله وما بعده ومفاهيم أخرى كثيرة!

إن رحلتِ الآن حكمتِ على حديثنا هذا بالتوقف، وعلى أفكارنا بالأسر في غياهب النفس، وقد تبقى حبيسة أنفسنا وتزول يوماً بزوالنا ولم يطلع عليها أحد!

إن رحلتِ الآن حكمتِ على قصتنا بأن توارى في الرسم! هل فكرتِ في كلّ هذه النتائج؟! هل فكرتِ في كل ذلك يا وفاء؟! أم أنك فكرتِ في ذاتك ومصلحتك، فكنتِ بذلك نسخة طبق الأصل لتلك المعجبة الممثّلة التي حدثتِك عنها يوماً، وكنتِ نسخة لمئات الملايين من البشر الممثلين على خشبة مسرح الحياة، تحرّك سلوكهم المادة والمصالح والأهواء ولا ترى أبصارهم غير الذات؟!!

- أنا آسفة إن كنتَ تشعر أني خذلتك، لكنني مضطرة إلى الانسحاب.

-تقولين مضطربة؟! لقد صدمتني بهذا الكلام يا وفاء! مضطربة!
ولماذا؟! ألأنك علمتِ بطروفي الشخصية والأسرية فلم أعد أليق
بك!! ألأنّ صورتي اليوم، وقد اكتمل رسمها في الواقع أمامك، لا
تطابق تلك الصورة التي رسمتِ في لوح خيالك؟!!! ألأنّ هذا الثوب
أمامك لم يعد يليق بمقاسك، أو أنّ هذا الحذاء لم يعد يصلح لقدمك؟!!!
وستخترين لك في أرقى المتاجر وفي أفخم المراكز التجارية أجمل ثياب
وأفضل حذاء على مقاسك!! أيعقل ذلك يا وفاء؟! أيعقل؟!!!

قولي لي أرجوك إنك تمزحين!.. قولي، ربما، إنّ هذا الكلام تردّد
على لسان أحد شخوص رواية ما وليس كلامك! قولي ذلك أو أي
شيء خطر على بالك، وأنا سأغفر لك وأنسى سريعاً كلامك، لكن
لا تقولي إنّ هذا الكلام لك! أرجوك!!

لشدّ ما اجتهدت في سبيل دعوتك إلى التحرر من جاذبية الميول
والرغبات والمصالح والتوجهات والتوقعات والأفكار المسبقة،
والارتقاء معي فوق كلّ ذلك إلى ما وراء الأفق الأزرق حيث تسبح
الأرواح الطاهرة حرّة طليقة في فضاء مفعم بالصفاء والصدق والمحبة
وأسمى درجات الحلم والحكمة والعدل والمساواة والإنسانية.

ولكم تمنيت أن أفك بيديّ هذه الأغلال التي أراها اليوم تكبل

ذاتك، وتضيّق فكرك، وتجمّد خيالك، وتهدّ إرادتك، وتملي عليك تصرفاتك، وتحّد نظرتك، فتجعلك تشاهدين الكون من خلال منظار ضيق مضللّ يكبرُ لك صورةَ ذاتك ويصغّرُ لك المجتمع والوجود من حولك!

لكم تمنيت، يا وفاء، أن أهدّ هذه الأغلال بيدي وأرفعك معي عالياً، إلى دنيا ما وراء الأفق الأزرق، فتعانق روحك روحي، ويتصاعد عبير وجدانك مع أنفاسي، وتنصهر مشاعرك في نفسي، ونفرح ونمرح معاً للأبد، من غير حسابات ومخططات وتوقعات بشأن أمور قد تكون فوق طاقتنا وإمكانياتنا!

لكم تمنيت، يا وفاء، أن أبلّغك رسالة «عالم ما وراء الأفق الأزرق» المجيد. وبعد ذلك، نبليّغها معاً إلى قرائنا والمعجبين بنا من خلال مؤلفاتنا ولقاءاتنا. ونبليّغها إلى أولادنا، وأولادنا إلى أولادهم، وتتوارثها الأجيال القادمة عنهم. فتزداد رغبة البشر في التحرّر من جاذبية الدنيا والمادة، وأغلال الغريزة والذات، ورجس المصالح والملفات. ويعظم إيمانهم بقيم القناعة والمحبة والإنسانية. ويرسخ في نفوسهم مبدأ تقبّل الآخر واحترامه بغضّ النظر عن جنسه ولون بشرته ومعتقداته ونظام حياته وواقعه الاجتماعي! لكم تمنيت ذلك يا وفاء!!

لكن، وا أسفاه على كلِّ ما صرفته من وقت وبذلته من جهد!! فإن كنتُ قد عجزتُ اليوم عن إيصال هذه الرسالة إليك وأنت أقرب الناس إلى نفسي، وأكثرهم تفتُّحاً وتفهماً، وأوسعهم ثقافةً وعلماً، أني لي أن أغرس مثل هذه المبادئ في مجتمعات لا تقرأ ولا تعترف بالنقد، ولا تقبل ما كان مخالفاً لما هو موروث عن الأجداد!!

أتدريين يا وفاء أنَّ عالم ما وراء الأفق الأزرق من أروع ما وُجد في الكون! أتدريين أنه فضاء لا متناهٍ تنتشر في ربوعه بساكنات مترامية الأطراف مزهرة مثمرة، يفوح منها شذا الأزهار والثمار، مما يغمر القلوب الضعيفة العليلة، فيروِّح عنها ويشفيها من الشر والغدر والرذيلة! وتعلو أوراق أشجاره وأعشابه وأزهاره قطرات ندى منعشة، كفيلة بغسل نفوس البشر من رجس المصلحة والحقيذة. وتجري من تحته مياهٌ عذبة صافية كفيلة بإخماد نيران الحروب الملتهبة في شتى أنحاء العالم، وحلّ النزاعات التي فرّقت بني آدم! وتتحرك في أجوائه نسائمٌ عليلة، تغعم نفوس بني آدم مودة وألفة وحبا لعمل الخير والإحسان!

لكم تمنيت أن تمضي معي إلى هذا العالم ولو لساعات قليلة، يا وفاء، فترين ما أراه وتشعرين بما أشعر به من استقلال النفس وحرية التفكير، وصفاء الخاطر وراحة الضمير.

وبدلاً من الموافقة ومرافقتي، ها أنت تختارين مفارقتي!!

واليوم، وأنا أراك تقطعين شجرةً سقيئها بعرقِي ودمي وهي اليوم في مستقبل العُمر، وتحمل أول ثُمر، ماذا عساي أن أفعل سوى أن أعضّ شفّتي غيظاً وأسى، وأتقطّع حشرات، وأتصدّع زفرات، وأصرخ من أعماق ذاتي: واحسرتاه عليك يا روايتي!! واحسرتاه عليك يا جهدي وسهدي!!

لكنّي في هذه اللحظة أتساءل إذا كان من العدل أن أدعك ترحلين هكذا من غير عقاب؟! وكيف لي ألا أعاقبك وأنا أرى يدك ها هنا أمامي مضرجتين بالدم، بعد أن طعنت جهدي طعنة الموت المؤلم؟! سأعاقبك عقاباً مماثلاً لما اقترفت، عملاً بمبدأ المساواة في الردّ على الأذى. وبها أنك اقترفت جريمة القتل فإنّه لا سبيل لي عن الحكم عليك بالموت على منوال العين بالعين. وإنّه يحزنني أن أقول إنك ستموتين الآن موت هذه القصة بين يديّ ها هنا تلفظ أنفاسها الأخيرة. ستموتين الآن في خاتمة قصتي على مرأى من كلّ الجماهير والأجيال المقبلة وسيمتزج دمك بدم هذه القصة التي لم تكتمل.. تأكدي، يا وفاء، أنّ الجماهير والأجيال القادمة التي تتابع حديثنا هذا ستعرفني حقّ المعرفة وكيف لا واسمي وصورتي على غلاف الرواية. أما أنت، فإني لن أدع الأجيال القادمة تعرف عنك

شيئاً يذكر. سأححو كل أثر لك وأحكم على هويتك بالموت الأبدي وأحرم اسمك من السفر إلى المستقبل والاستقرار في دنيا الخلود!

وإن كنت سترحلين عني الآن لأجل لقاء بشر مثلك، أنت منهم وهم منك، تنتفعين منهم ويتفعلون منك، فأني سأرحل بعيداً عنكم جميعاً!.. أجل، سأرحل عنكم، وكيف لا وأنا غريب بينكم لا أفكر تفكيركم؟!.. سأرحل بعيداً خارج قضبان هذه الجاذبية المحيطة بعالمكم والتي تقيّد حريتكم وتهدّ إرادتكم، وتعبث بمشاعركم وأفكاركم، وتنشر الحقيذة والتفرقة بينكم، وتحملكم على سفك دماء بشر من طينتكم تحقيقاً لأطماعكم ومصالحكم.

سأرحل إلى ما وراء الأفق الأزرق حيث أنتمي وأشعر بالحرية والأمان والسلام. سأرحل للقاء تلك الأرواح الوديدة الآمنة الأمينة التي لا تقدّس الذات وإنما الإنسانية، ولا تعرف المكر أو الغدر، ولا يتتابها طيفُ الأنانية والحسد والحقد!

مولود بن زادي

لندن ٢٠١٧

عن الكاتب:

مولود بن زادي كاتب ومترجم مقيم في بريطانيا، له عدد من المؤلفات منها:

- سنة ٢٠١١ رواية (عَبْرَاتٌ وَعِبَر) قصّة اجتماعية تاريخية درامية مقتبسة من قصّة واقعية.

- سنة ٢٠١٣ (معجم الرّاد للمتبادلات والمتجانسات العربية) ما يزيد عن ٦٠٠ صفحة وهو الأول من نوعه في بلدان المغرب العربي، نفدت منه طبعتان وبيع منه أكثر من ٣٠٠٠ نسخة في أقل من عامين

- سنة ٢٠١٤ (رواية رياح القدر) عاطفية اجتماعية مقتبسة هي الأخرى من قصة حقيقية.



من مؤلفات الكاتب مولود بن زادي رواية «رياح القدر»، مقتبسة من قصة حقيقية، وهذا مطلع الفصل الأول منها:

«لندن يناير 2005

يدنو فؤاد من نافذة غرفته المطلّة على حديقة جرينتش بلندن، فيمدّ يديه ويسحب الستائر السمكية الثقيلة ويرسل نظره إلى الخارج عبر الزجاج. تبدو الحديقة في هذه الساعة جرداء موحشة قاتمة، كأنّها ترتدي ثوب حداد، تتخلّلها أشجار عارية قاحلة بلا حياة، وكأنّ الزمهرير حمل عليها مع بداية فصل الشتاء الطويل فخلع لباسها وقطع أنفاسها. تعلوها سماء ملبّدة بغيوم داكنة كثيفة منخفضة، بدت لشدة انخفاضها وكأنّها تحضن الأرض.

تردّ السماء من فوقها من غير انقطاع منذ ساعات طويلة، كأنّها تذرف دموعاً حزينة تتناثر على أرجاء هذه الحديقة البائسة فتزيدها كآبةً وبؤساً ويأساً.

ويرنّ الهاتف فيقطع تأملّه وشروده، فيسدل الستائر على عجلة وبغير انتظام ويرفع السّاعة ويردّ في صوت لا يخلو من الإثارة:

- أهلاً نوال! كيف حالك؟...

إنّها شقيقته الكبرى التي حملتها رياح القدر هي أيضاً إلى ديار الغربّة بعد أشهر قليلة من رحيله عن أرض الوطن إلى إنجلترا، فاستقرّ بها المقام في مدينة نيس بجنوب فرنسا.

ما أشقى والدتهما. لم تكد تحفّ دموعها ويسكن ألمها على فراق ابنها الأكبر حتى ودّعها كبرى بناتها، فازداد قلبها حرقة، وعيناها جوداً، وحياتها تعاسة.

ما أشدّ شوقه اليوم إلى بيت أهله ووالدته وأفراد أسرته بعد سنوات طويلة من الفراق. يتلظى بين ألسنة نيران الغربّة فيلفي في كنف مكالمات شقيقته رحمة وسكينة، تؤنسه في وحدته، وتواسيه في ألمه، وتخفّف ما به من ضيق وضجر في غربته...»

رواية رياح القدر متوفرة في شكل كتاب إلكتروني على الرابط التالي:

<https://payhip.com/b/tuTf>

